

الغنازل





المناهل

تصدرها

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب



شعبان 1399
يوليو 1979

العدد الخامس عشر
السنة السادسة

عَلَدٌ خَاصٌّ بِالْيُوسُفِيِّ

تَهْنِئَةُ الْمُنْدَاهِلِ بِعِيدِ الشَّيْبَانِ الْمَجِيدِ

يسعوا لسمي "المندهل" ويشرفها أن ترفع آيات التهادني
والتي يك إلى مفرح حفي صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
المؤيد المنصور بالله . من سبة عير الزكي الخمسين ميلاد، الميمون،
ومملكة في غنى من البهجة والأغنية والمسمات احتفالاً بهزل
العير المجيد، وإعمالاً بعملا يكتنه جميع المغاربة من محبة وإعزاز
وولاء وإكبار فخرفا نثر المعجب الملهم الحكيم، وبرح مسيرته،
ومحقق انتصاراته، وما نفع أعباده .

و "المندهل" إذ ترفع عواكف محبتها وولائها لشخص
جلالته، تدفع إلى الله سبحانه أن يعيد هزل العير السعيد
عليه وعلى أسرته بأعظم المسمات، وأن يكمل عمى ويفتح عينه
بولية عهده صاحب السموات الملكى للأمة الجليل سيرة بمحس
وبهمنو، الأسمى المحبوب مولاي رشيد، وأخواتهما الأمهات
الجليلات، وأن يحقق لهما وهبه الله من عبقريته وحكمته وتوفيق
ما يجمع إليه شعبه من واسع الآمال .

"المندهل"

فهرس

صفحة

- (1) افتتاحية المناهل 11
- (2) أبو على الیوسی 15
- (3) بیوبلیووغرافیا الیوسی 54
- (4) احسن الیوسی من خلال « المحاضرات » 114
- (5) الامام الیوسی فی حله ومبازله 149
- (6) ملامح الفكر السیاسی عند الحسن الیوسی 192

- (7) الحسن اليوسى اللغوي
 د . محمد حجبى 211
- (8) شعر الحسن اليوسى
 محمد ابن تاويست 230
- (9) اليوسى فكر قوي وراء شخصية قوية
 د . محمد زبيير 260
- (10) بطاقة فى منتهى الطاقة
 د . عبد الهادي التازي 287
- (11) جانب من شخصية الشيخ اليوسى ورسالته
 د . عبد السلام الهزاس 311
- (12) انى أوصى أولادى
 د . عبد اللطيف السعدانى 326
- (13) أبو على اليوسى : هموم واهتمامات
 عبد القادر زمامة 375
- (14) القول الفصل فى تمييز الخاصة عن الفصل
 د . القهامى الراجى الهاشمى 392

رَفَاتِيحِيَّة

من جملة اهتمامات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، اهتمامها برواد المعرفة ، ونبيهاء الفكر وأفذاذه القمم . وذلك باحياء ذكراهم ، ونشر تراثهم والكشف عن مكتوباتهم ومطوياتهم ، والتتويه برسالتهم الفكرية ، ولقت أنظار الاجيال اللاحقة اليها ، أسوة حسنة ، ورمز أمجاد .

ويعتبر الحسن اليوسى أحد أعلام المعرفة الكبار ، الذي يعتز ويفتخر به الفكر المغربى الاصيل لشمولية علمه ، ورحابة معرفته ، وتفتح ذهنه ، وحسنة نباهته ، وتمسكه بالمبادئ الاسلامية والوطنية ، وإخلاصه لرسالته العلمية المثلى التى نبهت الى مدرسة ذات طابع متميز فى التفكير والمنهج ، هى ظاهرة من

الطاقة الجديدة ، حركت الفكر المغربى ، ووثبت به السى
مناخ نشيط مبتغى .

وتكريما لهذا النافعة ، رأت وزارة الثقافة ، ان تفرد
لمكانته المرموقة هذا العدد من مجلتها « المناهل » ،
أسهمت فى تحريره صفوة من رجال البحث والدراسة من
المفاربة المتخصصين الكفاة ، اهتم كل واحد منهم بدراسة
واستجلاء جانب من جوانبه العلمية والفكرية والادبية ،
وسواها من الجوانب المتعددة المرامى والاهداف .

ويلمس القارىء مدى صراحة الیومى فى بعض صفحات
هذا العدد وخصوصا ما يتعلق منها بحواره المفتوح مع
المولى اسماعيل ، هذا الملك العظيم الذى لم تصرفه أعباء
الدولة ، ولم تشغله اهتماماته المتنوعة الكبرى - باسترجاع
المناطق المفتصبة من البلاد ، وتوحيد التراب الوطنى ،
واستتباب الامن واتساعة الطمانينة والرغد بين المواطنين -
عن مجالسة العلماء وأهل الراى من شعبه ومطارحتهم
والاتصلت الى آرائهم ، بل وحتى الى ملاحظاتهم التى
كان يتقبلها برحابة صدر ، وتفتح خاطر ، وهو من تعرف
عظمة ومهابة وشجاعة وقوة سلطان .

ولا عجب فى ذلك ، فروح الديمقراطية غريزة طبعت
العرش العلوى ، وتعتبر ميزة امتازت بها الدولة العلوية

ملكا غب ملك ، مرورا بالمولى الرشيد المؤسس الفعال للدولة الطوية ، وسيدي محمد بن عبد الله البقري المصلح ، ومحمد الخامس بطل المقاومة والتحرير ، وزعيم من زعماء العرب والمسلمين ، الى عهد الحسن الثانى العظيم ، الذى أسس نظام الملكية الدستورية ، وأرسى قواعد الديمقراطية الحقة ، وفتح منبرا للشعب يجري فيه حوار الشعب ، وتتبادل فيه الآراء على مختلف اتجاهاتها، وتعد فيه القوانين بكل حرية وتجرد وانطلاق ، بالاضافة الى ما اضطلع به هذا الرائد قائد المسيرة الخضراء للمظفرة من استعادة الاراضى المستعمرة ، وتوحيد أجزاء الوطن ، وانشاء السدود ، وقيامه بحفظه الله بالاصلاحات والمنجزات الكبرى فى المجالات التعليمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وسواها من المجالات التى يقوم عليها صرح المغرب الجديد ، الذى اقترن باسمه الكريم .

انها سلسلة امجاد ومكرمات ملوك الدولة الطوية ، محكمة الحلقات موصولة الابعاد ، لاسعاد المغرب ، والارتقاء به فى مدارج العز والرخاء والمجد .

* * *

واذا رأت وزارة الثقافة اصدار هذا العدد المتميز فى هذه المناسبة المتميزة بالاحتفالات الكبرى التى تقام فى جميع أنحاء المملكة تخليدا للذكرى الخمسينية لمولد عاملنا الذى يتسع قلبه وفكره لجميع شؤون رعاياه ،

وتكريما لجلالته أطال الله بقاءه ، واعترافا بفاخر أياديه
فإنما قصدت بذلك من جانبها ، الإسهام في هذه الاحتفالات
باستمرارية هذه السلسلة الذهبية - من الديمقراطية
والحرية الفكرية - المقرونة بالامجد والانتصارات
والبطولات التي حققها ملوك الدولة العلوية .

* * *

وبعد ، فإن أسرة « المناهل » ترجو أن تتجلى من
خلال مضمون هذا العدد ، ملامح شخصية هذا العالم
الشاعر المفكر الحسن اليوسى ، كما ترجو أن يبرز -
من وراء الدراسات والأبحاث المصروفة لهذا النابغة
المغربى - المحيط الثقافى الذي امتازت به العهود الاولى
لحكم الدولة العلوية .

المناهل

أبو عليّ الليؤسيّ

(1040 - 1102)

شخصيته - حياته - دراسة موجزة لأثاره
"من فاته الحسن البصري يذكره فليأت الحسن البصري كيفيه"

عزالفاسي

رات « المناهل » أن لعبد نشر هذا البحث الذي صدر مجزأ في الأعداد : 4 و 5 و 6 من مجلة « المغرب الجديد » لسنة 1935 . لكنه يدخل في نطاق هذا العدد الخاص باليؤسي ، وليطرح عليه من فاته قرأته لطول العهد على صوره .
وجدير بالذكر أن المرحوم طلال الفاسي ، وقع هذا البحث في المجلة المذكورة بلغناه مستمار هو « أبو الحسن » . وقد كشف بنفسه من اسمه الحقيقي في المرس عدما 9 - 10 : 1936 .

« المناهل »

شخصيته

هذه شخصية من الشخصيات المغربية التي كان لها اثر كبير في الثقافة والآداب القومية في القرن الحادي عشر وما بعده ، والتي تمثل كبرياء العالم واعتداده بنفسه ، وإيمان العارف ووثوقه بربه . وتضم بين احضانها صورة كاملة للروح السائدة في ذلك العصر ، بما فيها من سذاجة وما تتطوي عليه من فطنة ، فتجمع بين عقلية العالم المدقق الذي لا يأخذ شيئا الا بعد التجربة والملاحظة والبحث ، عما فيه من ظواهر قد تكون موهمة ، وخوافي قد تكون باطلة ، ونفسية الشاعر الذي يمتليء من جمال الكون وآثار أهليه ما يكسبه فيضة تنير له السبيل ، وتكسو كل ما في الوجود جمالا يبعث على القناعة به ، والاطمئنان اليه ،

وروحانية الصوفى المستسلم الذى يؤمن بكل شىء ، ويعتقد بكل ما يحدث به ما دَامَ يشاهد فى الجميع اثرا ممكنا من آثار القادر الذى لا يعجزه شىء ، وتلك هى العناصر الثلاثة التى تتكون منها شخصية أبى على اليوسى . وسنرى الى اى حد تستطيع أن تتألف هذه الصفات التى يراها القاريء باديء بدء من المتناقضات ، بينما هى فى كثير من رجالات المغرب فى ذلك العصر متأخية متناسبة .

ولعل فى عقيدة الفرق بين الظاهر والباطن ، والتمييز بين احوال الخاصة والعامة من الخلق ، ما يسهل علينا فهم السر فى ائتلاف هذه المتناقضات واجتماعها كأن ليس بينها من خلاف .

حياته

هو ابو على الحسن بن مسعود بن محمد بن على بن يوسف (1) اليوسى من آيت يوسى (2) القبيلة البربرية ولد عام 1040 هـ

(1) سرد ابو على فى المحاضرات ص 5 عمود نفسه وفيه بعد يوسف احمد بن ابراهيم بن محمد بن احمد بن على بن عمر بن يحيى بن يوسف (وهو ابو القبيلة) بن داود بن يدراسن بن يستن ثم قال وهذا ما نعد من النسب الخ ومن المفيد أن ننبه هنا الى تحريف ارتكبه الشيخ الكتانى فى (تهزى القهارى) فانه حين سرد عمود نسب ابى على وقف عند يوسف بن احمد وقال « ومن العجيب أن المترجم له فى محاضراته لما ذكر انه ابن مسعود بن محمد بن على بن يوسف قال وهو ابو القبيلة وهو عجيب فان جده يوسف هذا رابع الآباء ومع قربه من زمنه تفرعت منه خلائق لخ ص 464 - 2 » وانت ترى فى اللغز الذى صنعته من المحاضرات نفسها ان يوسف ابا القبيلة ليس هو رابع الآباء بل هو الثانى عشر منهم فهل يبلغ حب الاغراب الى التحريف ؟

(2) اليوسى أصله اليوسفى نسبة ليوسف ابى القبيلة كما علمت وهم يستقلون الفاء من لغتهم (انظر المحاضرات ص 16).

أي قريبا من منتصف القرن الحادي عشر ، والقرن الحادي عشر كما يعلم المطلعون على تاريخ المغرب كان بالأسف عصر انحطاط في الهمم ، وتقاعس في العزائم ، واسفاف في الافكار ، وهو عصر عم فيه الجهل جميع الانحاء المغربية ، وكثرت فيه الفتن والقلقل الى حد أصبح عسيرا معه طلب العلم والجد فيه وكانت في ذلك العهد مدارس ثلاث هي التي انبعث منها ضياء لامع أثار السبيل ، واحيا ما كاد ينطمس من معالم المعرفة ومراسم اليقين تلك هي مدرسة ابن ناصر بدرعة ، ومحمد بن ابي بكر بالدلاء ، وعبد القادر الفاسي بفاس (3) .

واذا كانت هذه المدارس قد قامت بجهود عظيمة في خدمة العلم ونشره ، وفي حث الهمم على الجد والمثابرة في طلبه ، فانها لم تستطع أن تخرج عن طبيعة عصرها ، ولا ان تشق سبيلا نيرا للعقل كما فتحتة للعلم ، ولكنها مع ذلك قدمت للمغرب الاسلامي خدمات ستبقى عظيمة وان تطور الزمان ، اذهى — على الاقل — قاومت الذين كانوا يحولون بين الناس والعلم بدعوى انه يقسى القلب ويبعد من الله ، وكونت من هذه الزوايا معاهد تجمع بين تربية النفس وتربية الفكر ، فتخرج تلامذة مطبوعين بطابعها مومنين بمبادئها . وابو علي اليوسي هو احد

(3) قال القادري (النشر ص 26 ج 1) : ومن الجاري على اللسنة وحكاية لي بعضهم عن شيخنا اوريح اهل زمانه سيدي عبد الكبير بن محمد السرغيني ، رضي الله عنه ، قولهم لولا ثلاثة لا تقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر ثم عددهم كما ذكرنا .

أولئك النبغاء الذين استفادوا من هذه المدارس واقتبسوا من تعاليمها ، وكان تخرجه العلمي في واحدة منها هي مدرسة الدلاء .

وولد أبو علي - زيادة على ذلك - في حجر والد أُمي ، يجمع الى ايمان العامي الساذج يقينا يبعثه على الرجاء من الدعوات الصالحة والمراعي الطيبة . وذلك ما يكون فيه الرغبة في تعليم ولده عسى أن تتحقق رؤياه التي رآها والتي يحدثنا عنها اليوسى - بنفس الرجاء الذي كان لوالده - في محاضراته (4) ، فيقدمه الى مكتب القرية لحفظ القرآن ودراسة الأمهات . ويجد نفورا من هذا المكتب الذي لا عهد له به ، ويلج عليه الخجل الذي كان مصاحبه في صباه الى أن يابى هذا التعلم وما يؤدي اليه . ثم تموت والدته فتؤثر (5) وفاتها في نفسه ، وتلمس روحه الشاعرة اثر هذا الموت في اسرته ، فتتكر له الارض ومن عليها .

فما الناس بالناس الذين عهدتهم
ولا الدار بالدار التي كنت تعرف

ثم يكون ذلك سببا في زوال نفوره من التعليم ، فيتردد على المكتب ويرغب من والده ان ياذن له في الرحلة والتغرب في طلب العلم وتحصيل المرغوب ، ويساعده ابوه على هذه الامنية ويسافر الى جهة سجلماسة ، ثم بعد أن يختم القرآن يذهب مع معلمه ابي اسحاق ابراهيم ابن يوسف الحداد اليوسفى الى

(4) المحاضرات ص 36 - وننبه الى أننا نرجع الى نسخة مخطوطة وان ذات الطبع الفاسى ليست تحت يدنا الآن .

(5) الفهرسة لليوسى ص 38 « مخطوط » .

آيت يوسى ويتنقل فى زيارة الصالحين ، مصاحبا للمورد العذب
وبحر الدموع (6) متأثرا باستاذة الذى كان يرجع اليه فى اخبار
الزهاد أمثال اويس القرنى وابراهيم بن ادهم - وهذه النواحي
هى اول ما درسه اليوسى فى صباه - ثم يجول فى انحاء المغرب ،
خاصة بلاد الساحل وسوس ، ويتنقل بين الصحراء وبلاد الاطلس
باحثا عن العلماء آخذا عن مشاهيرهم ، مقيما بكل ناحية يجد
فيها موردا عذبا وروضا يانعا ، وربما تقلقه الغربة فى بعض
الساعات فيجد من اختلاؤه بفكره ما ينسيه ، أو من محادثة
الاعراب ما يؤنسه ويسليه ، وهكذا يقص علينا اليوسى وصوله
لارض دكالة ، واعياؤه من الغربة وطولها ، ثم حنينه الى رجل
هنالك انشده من الشعر الملحون ما كان له الاثر الكبير فى نفسه ،
وما شجعه على المضى فى طريقه الى التمام .

ويحدثنا اليوسى فى فهرسته عن الشيوخ الذين أخذ عنهم
فى اجلال واحترام ، وهم أبو اسحاق الحداد ، وأبو زيان بن
محمد ، والحسين التعلالينى ، والحسين المدوري ، ومحمد بن
الحسن المدوري ، وأبو بكر القطافى ، وعبد الله بن على بن طاهر
العلوي ، وأبو العباس الدراوي ، ومحمد بن عبد الله الحسنى ،
وعبد العزيز الفيلالى ، ومحمد بن محمد التجموعتى ، وأحمد
التجموعتى ، وعيسى السكتانى ، ومحمد المزوار المراكشى ،
ومحمد بن ابراهيم الهشتوكى ، وعبد العزيز الرسموكى ،
ومحمد بن ناصر ، وأحمد بن عمران الفاسى ، وأحمد بن سعيد ،

(6) الفهرسة المضا ص 40 (وهما كتابان لابن الجوزي) .

ومحمد بن محمد بن أبي بكر الدلاهي ، وأبو السعود الفاسي ،
ومحمد بن سعيد المرغني . ثم يعترف في كبرياء وعظمة أن نبوغه
لم يكن على قدر دراسته ، وأن ذكاءه العظيم وفطنته القوية هما
الذان كونا منه هذا الرجل العالم العامل النادر المثال ، وسواء كانت
هذه الملاحظة التي يذكرها عن نفسه صحيحة أو معطولة فإن ذكاء
أبي علي ساعده على استفادة أمور لم يكن ليتلقاها عن الشيوخ ،
أو على الأقل - بعث فيه ملكة الانتباه والملاحظة ، فكان يأخذ من
كل مرئي ومسموع مادة يستخرج منها علما ، ويكمل بها
فهما . وهو كثيرا ما يتحدث عن هذه الملاحظات ويذكرها
للاعتبار بها والاتعاظ ، فتقف به قصة الدكالي (7) التي أومأنا
إليها لينظر في الشعر العامي ، ويدرس ما فيه من حكمة ، وما
ينطوي عليه من بيان ، ويسافر إلى جبل للزبيب (8) (بنى زروال)
فتقف به لهجة الجبليين في كسر آخر الموقوف من الكلام إلى
استقراء الكلمات وتتبع أساليبهم فيها وضبطها بقاعدة عامة
تحفظها ، ثم يستنتج كيف كان أئمة العربية يستقرئون الكلمات
ليضعوا النحو والتصريف . وهكذا يجد من كل جليل وحقير مادة
للدرس والاستفادة ، وعندي أنه لو كان لليوسى من عصره ما
ينمي فيه هذه الملكة ، ومن زمانه ما يربى فيه هذا الاستعداد ،
لسما إلى الدرجة التي تبوأها الجاحظ العظيم ، ولكن البيئة
كثيرا ما تجنى على النابهين فتكبت فيهم غرائز الفطنة والنبوغ .

(7) المحاضرات ص 55 .

(8) المحاضرات ص 63 .

جال اليوسى فى الانحاء المغربية دارما متعلما ، ثم حط رحاله بزاوية الدلاء ، وقد عاد مملوء الوطاب بأنواع العلوم والآداب ، وتصدر للقيام بوظيفة العالم ، فدرس ما يحتاج اليه الناس ، وأجاب عما يقدم له من أسئلة ، وجادل بعض الافراد الذين يرى فيهم ادعاء غير مصيب وتبجحا غير لائق ، وكثيرا ما كانت مجادلته سببا فى رسالة يؤلفها أو قصيدة ينظمها ولم يزل كذلك الى ان استولى على الدلاء السلطان المولى الرشيد ابن الشريف (9) فنقله الى مدينة فاس التى حل بها سنة تسع وسبعين والف (10) .

وفى فاس يريد ابو على ان يلقي عصا التسيار ، وأن يكون له فى مسجدھا القروي صوت مسموع ، وحلقة عامرة ، وميدان فسيح لاطهار ما له من علم ونبوغ ، ويفتتح دراسة التفسير ، فيعرف له الطلبة قيمته العلمية ، ومقدرته على الاداء ، ويجتمع عليه منهم ما لا يجتمع على أحد من المعاصرين ، ويحضر دروسه كثير ممن اتم دراسته واصبح فى عداد العلماء ، ويتخلف رجال لا يرون انهم فى حاجة الى التلقى عنه والارتواء من ورده ، فيأبى ذلك طغيان العلم ، ويوهم ابا على ان ذلك من قلة انصاف القوم وغرورهم بنفسهم ، ولا يكتفم استاذنا غضبه عن الناس ، بل يتحدث به فى الجامع ، يقول فى ذلك شعرا (11) :

(9) الافرانى (الصفوة 287)

(10) المحاضرات 85 والصفوة 207

(11) المحاضرات ص 86

ما أنصفت فاس ولا اعلامها علمى ولا عرفوا جلالة منصبى
لو أنصفوا لصبوا الى كما صبا راعى ستين الى الغمام الصيب
وتشيع الابيات فى الاوساط العلمية ، ويتحدث العلماء عن
غرور هذا الزائر الذى لم يعترف لسابقه بالمكانة ، ويجيب (12)
أبو زيد الفاسى على لسانهم بقوله :

بل أنصفت فاس ومن أنصافها ابدا سقوط المدعى والمعجب
ثم يكثر الكلام ، فى غير لجة ولا خصام ، وترفع القضية
الى أبى السعود الفاسى وهو شيخ هذه المدرسة والمرجوع
اليه فيها فيقول : ان البادىء أظلم ، ثم يصلح بين الفريقين
وتكون النتيجة ان يخرج لنا أبو على كتابه (القانون) ليكون
كعنوان على ماله من المكانة فى العلوم ، على اختلافها ، وليقنع
رجال القرويين بأن له ميزة بهذه المشاركة يجب ان يعترفوا
له بها .

ولكن بعض الحاسدين ممن غاظته مجالسه العامة ،
وتحقيقاته النادرة ، يابى أن يرجع عن اذائته ، ولا يزال به حتى
ينقطع عن التدريس بالجامعة ، ويشغل بالتصنيف وتلقيين
الخواص من مريديه .

(12) الافرانى « الصفوة 208 » .

ويبقى لهذا الموقف الذي صادفه أبو علي أثر كبير في نفسه يعترف به في محاضراته ، ويحدثنا (13) عنه وعن الحسد بصفة عامة ، معترفا بكون النبغاء في كل جيل يلحقون من الحسد والاذاية ما تقضى به الطبيعة البشرية ، ومع اقلاعه عن التدريس في فاس فانه لم ينقطع عن المحاوراة والجدال مع كثير من رجال العلم في مختلف النواحي ، وخاصة في علم الكلام ، فنجدته ينازعهم في فهم كلمة الاخلاص ، ثم في القول باحاطة علم النبی ، وفي تقديم الادب على الامتثال ، وغير ذلك من فنون العلم التي ربما عرضنا لبعضها بايجاز مفيد .

يبقى أبو علي بفاس ، على هذه الحالة التي ذكرنا ، ناشرا للعلم ، قائما بالبحث ، مقيما لسوق الجدل والمحاورات الى ان تنزع نفسه الجبارة الى الخروج من وسط لا يعترف له بالفضل ، فيخرج من فاس اواسط سنة اربع وثمانين والفس ، ويبقى متنقلا في مختلف الجهات وهو هو أين ما حل وحيثما ارتحل ، الى عام خمسة وتسعين حيث يعاوده النزوع الى ذلك الوسط الفاسي الذي يجد من خاصته وكبراء هيئته تنشيطا على الدرس ، وباعثا على المثابرة والجد ، مهما كلفه ذلك من تجرع مرارة الصبر ، وتحمل أعباء المماحكة والخلاف ، فيرجع ويقيم ، ألى ان تشوقت نفسه لحج بيت الله وزيارة قبر الرسول والرحلة في بلاد الاسلام ، عله يجد من اولئك العلماء المشاركة ، الذين يحدث عنهم أبو سلام وغيره من الرحل المغاربة ، ما يطفىء غلته

(13) المحاضرات 85 وما بعدها .

ويكون له عزاء وسلوى ، فيخرج من فاس عام واحد ومائة ألف
صحبة ولده أبي محمد ، ويمر في طريقه ببعض الصالحين يلتمس
البركة من لقياهم ، ويتزود من دعواتهم ، ثم يعرج على
طرابلس الغرب حيث يتخذ فيها دار نزل يتردد اليها علماء القطر
للقيام ويستجيزونه فيجيز ، ويصل الى مصر فيلبث فيها اربعة
أشهر وهو بكبريائه لا يرى في علماء ذلك العهد الذين ملأوا
الدنيا بالرواية والاسناد « امثال العجيمي وابن البنا الدمياطي
والخرشي وغيرهم » من يستحق أن يوخذ عنه ، بل يصل غلواؤه
الى ان يرفض اجازة بعض المشهورين ، بدعوى أنه لا يتحاشى
اللحن في الكلام ، واليوسى لا ينظر الى الاجازة كمجرد اذن في
الرواية تعطى لكل موجود ومعدوم ، بل يغار عليها ان تكون بيد
من لا يستحقها ممن يتصدى للتدريس متبجحا بها وهو يكثر
اللحن ويعرب عن جهله بمبادئ العلوم ، واذا اجاز فانه يختم
بقوله :

على شرطها المعهود في كل دورة

من الفهم والتصيل والصدق في الذكر

وهكذا بعد ان يحج اليوسى يرجع للمغرب ، معلنا بصراحة
واطمئنان ، أنه ما بقى بالبلاد المشرقية من تشدله الرحال في
طلب العلم ، وأنه لم يلق شيئا مما كان يحدث به عن مصر
وغيرها . وبعد ان يلقي عصا الترحال يريد ان يقيم بفاس مرة
اخرى ليعاود القيام بدوره العلمى السابق ، مومنا بان هذه
البيئة — على ما فيها من مكررات — هي أفضل من كل ما عداها

من البيئات . ولكنه لا يستريح الا قليلا حتى تعالجه المنون ،
فيسلم النفس الى ربه خامس عشر ذي الحجة عام اثنين و الف ،
ويدفن بتمزيوت ، ثم ينقل بعد عشرين عاما من مدفنه الى موضع
هنالك ايضا ، حيث لا يزال ضريحه مزارا لقبائل البربر التي
تحبى ذكره كل عام .

اليوسى الاديب

يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته عن علم الادب « ان هذا
العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها وانما
المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الاجادة فى فنى المنثور
والمنظوم على اساليب العرب ومناحيهم » ثم يقول : « وهم اذا
ارادوا حده قالوا : الادب هو حفظ اشعار العرب وأخبارها
والاخذ من كل علم بطرف . يريدون من العلوم فنون اللسان
أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهى القرآن والحديث ،
اذ لا مدخل لغير ذلك من الفنون فى كلام العرب ، الا ما ذهب اليه
المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من القورية فى اشعارهم
وترسلهم بالاصطلاحات العلمية ، فاحتاج صاحب هذا الفن الى
معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها » .

هكذا كانوا ينظرون للادب فى العصور السالفة حين لم يكن
تحليل الشخصيات ولا دراسة المجتمعات والبيئات جزءا من
العلم لأبد للاديب أن يكون قائما عليه ، وحين كانوا يحصرون

العلوم الادبية في اثني عشر فنا (14) فاذا أردنا الآن أن نبحث قيمة اليوسى الادبية فيجب أن لا ندرسه خارجا عن الدائرة التى كان يقطن داخلها الاديب وان لا نتطلب منه أن يكون انسانا فوق ما يمكن أن يكون .

كان الاديب هو ذلك الذي يستطيع الاجادة فى فنى النثر والنظم من جهة ، ويحظى بالاطلاع على اشعار العرب وأخبارها ومصطلحات العلوم ولطائفها ليطرف بذلك جلساءه ويحاضر بها ندماؤه من جهة اخرى . فهل كان اليوسى عارفا بالفنون الادبية ؟

وهل استطاع ان يجيد فى فنى النثر والنظم أم لا ؟
لقد كان اليوسى أدبيا حقا . كان أدبيا لانه كان لغويا ولانه كان مطلعاً على أخبار العرب وأيامهم وحافظاً لأشعارهم (15) .

وكان أدبيا لانه كان كاتباً مترسلاً يستطيع ان يستمر فى الكتابة المنشأة الكراسات المتعددة فى وقت لا يقدر مؤلفوه على اكثر من ربط الانتقال بجمل مختصرة مالوفة ، وكان أدبيا لانه كان شاعرا نابغا فى شعره ، قويا متينا فى أسلوبه .

(14) علوم الادب المشار اليها هى : اللغة والخط والشعر والعروض والقافية والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والمحاضرات والنثر .

(15) كان اليوسى كثير الحفظ لكلام الادباء يستحضر ديوان ابى تمام وأبى الطيب والمعري ويسرد عدة قصائد عن ظهر قلب (القادري : نشر المثنى 142 - 2) .

وخلف اليوسى آثارا أدبية هى اعظم برهان على ما ندعيه ،
خلف لنا فى ناحية الادب العلمى كتاب المحاضرات ، وكتابه
زهر الأكم فى الامثال والحكم ، وشرح الدالية ، وفى الادب العلمى
فهرسته ورسائله فى مختلف الاغراض وديوانه الشعري البديع .

المحاضرات

فاما المحاضرات فهو كتاب ألفه « حين اتفقت له سفرة بان
بها عنه الاهل شغلا وتانيا ، وزايله العلم تصنيفا وتدريسا ،
فاخذ يرسم فى هذا المجموع بعض ما حضر فى الوطاب » وحملته
على ذلك أمور ، « منها التفادي من البطالة ، وافادة جاهل ، أو
تنبيه غافل ، وتخليد المحفوظ لئلا ينسى ، واستمطار علم جديد
لأن العلم كالماء نباع ، وبعضه للبعض تباع » (16) .

و « المحاضرات » علم من علوم الادب الفرعية (17) استعاض
بها المتأخرون عن اسلوب « الامالى » التى كانت للمتقدمين ، وهى
عادة لا ترتبط بموضوع خاص ولا بترتيب متبع وانما الشئ
بالشئ يذكر والعلم يضرب اوله بآخره كما يقولون .

واليوسى فى محاضراته يفرط فى هذا التخليط افراطا كبيرا
الى درجة تصعب معها الاستفادة من الكتاب . وهو يحاول ان

(16) انظر طالعة المحاضرات .

(17) يقسمون العلوم الادبية الى قسمين اصول وفروع فالخط والشعر
والانشاء والمحاضرات والتاريخ فروع وما عداها من بقية الاثنى عشر
أصول .

يرتب ذلك بفاصلة يضعها بين موضوع وموضوع تحت عنوان (الله الامر من قبل ومن بعد) لتقوم مقام الابواب والفصول ، ولكن رغبته في تسجيل كل ما يخطر بباله تضيق عليه هذه المحاولة وذلك الترتيب .

ويزيد الكتاب تشويشا ما يعنى به المؤلف من حشد كثير من الخرافات التى يتقبلها مترجمنا بقلب مطمئن ونفس ثابتة ، ويحاول بكل قواه ان يجد لها مبررا من ناحية الدين أو على الاقل من ناحية الامكان .

وبعد ان يجول اليوسى فى كتابه جولات مختلفة يختتم بباب فى فضيلة الادب والشعر ، ثم ينبذ فى أبيات المعانى والالغاز وينبذ فى المضحكات وأخرى فى الاوليات وخاتمة فى المواعظ والوصايا .

وعندي ان كتاب المحاضرات - على علاقته - هو افيد مؤلفات اليوسى للباحث المؤرخ ، لانه يستطيع ان يستفيد منه حالة المجتمع المغربى فى ذلك العصر ، الذى يعطينا عنه صورة بيّنة واضحة حين يحدثنا عن كثير من الحوادث التى شاهدها صاحبه والوقائع التى حضرها وحين يتكلم عن الصالحين وكراماتهم (18) واتباعهم فى عصره ، وعن البطالين وخرافاتهم فى عهده ،

(18) انظر المحاضرات ص 38 وغيرها .

وجين يتبسط في الكلام على ابي محلى والمتهمدين (19) وغيرهم من طلاب الرياسة ، ويعرض الى المحاورات التي كانت تقع بسجلامة وغيرها في اعتقاد العامة ، وهل هم مطالبون بالادلة والبراهين على الشكل المنطقي الصعب في وقت كثر فيه الجهل وانتشر فيه الضلال ؟ الى غير ذلك من النواحي التي يطرقها اليوسى طروق الطائر المتنقل دون أن يقف عندها ليطلعك على دجائلها وخفاياها .

وأظرف ما في المحاضرات هو محاولة اليوسى ان يتحدث لك عن حياته نفسها وعن الخواطر التي تعرض له في سائر المواقف وكل المناسبات . ثم محاولة التعليل لكل ما يحدث عنه والتبرير لكل ما يشاهد أو يرتكب ، وانه لتغلب عليه الانانية احيانا فيمدح نفسه ويطري ، ثم يعاوده التنبه لعواقب ذلك المدح عند الناس فيبحث عن مبرر يبيديه . وكثيرا ما يكون طليا مضحكا تتقبله وانت لا تومن باصوبية ما فيه .

ويبث اليوسى في ثنايا محاضراته افكارا قيمة جدية بالاعتبار . يتكلم عن ضرورة التعاون (20) بين الخلق فيقول : « ان عادة الله لم تجر باختصاص رهط أوحى واحد من الناس

(19) انظر المحاضرات ص 50 . وابو محلى هذا هو احمد بن عبد الله الفيلالى كان ادعى المهدوية سنة 1019 هـ وتبعه اقوام كثيرون حتى قتل سنة 1022 هـ ، وله رسائل ومؤلفات ومنع لدعوته كتابا سماه الاصلية ، وهو شخصية غريبة جدية بالعناية والبحث .

(20) المحاضرات ص 8 وما بعدها .

بالتفرد بالمعارف والاستقلال بالمصالح الدينية أو الدنيوية دون
سائر أصناف الخلق حتى ينتظم بهم الأمر وحدهم وتحصل لهم
المزية بذلك والذكر فيه دون من سواهم ، بل بث الله تعالى
بلطيف حكمته الخصائص والمزايا في الناس ، فيوجد في هذا الرهط
عالم ، وفي آخرين شاعر ، وفي غيرهم صانع او تاجر ، وهكذا
ليتم التعاون ويظفر الخلق كلهم من مائدة الله تعالى في باب
الخصوصيات بنصيب « وفي هذه الفكرة يبدو اليوسى كداعية
للقضاء على الانظمة القبلية ، ضرورة ان حيا واحدا لا يمكنه
ان يختص بتدبير الشؤون ولا يمكن ان ينتظم به الامر وحده ،
بل لابد لهذه القبائل التي اختصت كل واحدة منها بانجاب فرد في
ناحية ما ان تجتمع وتتعاون مع بعضها على القيام بالواجبات
العامية ، متناسين كل ما يحول بينهم وبين هذا التعاون من
مختلف العوامل والاسباب .

بل ربما اذا توسعنا في فهم كلامه في الموضوع نستشعر
بدعوته الى التعاون بين سائر الناس في كل بلد وفي كل مكان ،
لانه لا غنى لبعضهم عن بعض — وهو في ذلك لا ياتي بأكثر من
شرح الآية (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا) وقد يساعده على انتحال هذه الفكرة
ما فيه من روح صوفية تميل للوحدة والشيوع ، ونفس شاعرة
لا تفرق بين الموجودات الا كما تفرق بين أشعة الشمس في
اشراقها على أما كن مختلفة .

ويتحدث اليوسى عن النسب (21) والفخر به فيقرر ان نسب الانسان الاول هو الطين وانه لا فرق بين الناس بهذا الاعتبار ما دام كلهم ابنا للتراب ومنفصلا من ماء مهين ، ثم يذكر الاسباب التى يشرف بها المرء حتى يصح الافتخار بالانتساب اليه . وهى اما دينية فقط كالنبوة ، او دنيوية وأعلامها الملك ، ويرى اليوسى ان الناس فى هذا الامر على ثلاثة أقسام ، واحد له سلف مجيد يبنى على ما ورثه عنه من شرف ومجد ، وآخر يرضى بما تخلفه من اعمال سالفه ، والثالث لا نسب له ولكنه يصنع المجد لنفسه فيشرف بعمله لا بجدوده . وهو لا يستنكف ان يستهزىء فى لطف بذلك العظامى الذى يقنع بالانتساب لآباء كرام ، ويحتقره الى درجة الاستخفاف بعقله ، ولكنه مع ذلك يرى للنسب قيمة لا يمكن الذهول عنها ، ويعتقد أن هنالك تأثيرا للسلف لا بد أن يساعد على انجاب عقب نابغ ذكى ، وندعوات الجدود أيضا بركات باقية الى يوم الدين .

ويريد اليوسى أن يتكلم على الطبع البشرى (22) وان يعلل تشكى الناس من زمانهم واعتبارهم للماضى وتقديرهم له ، فيصرح بجلاء ان الناس كالناس لم يتبدلوا فى وقت من الاوقات على ما هم عليه من خير أو شر ، وانما يشكى الناس من زمانهم لانه هو الذى شاهدوه ، وثناؤهم على الماضى اما لانقطاع شره عنهم ان ادركوه ، أو لانهم لم يدركوه فلم يلحقهم منه شر .

(21) المحاضرات ص 26 وما بعدها .

(22) المحاضرات 76 وما بعدها .

فهم لا يتكلمون الا عن تاثراتهم الخاصة وانفعالاتهم للوقتيّة ، ولو أن الماضي المقدس اعيد لهم لما تبدل موقفهم معه عن موقفهم مع هذا الحاضر البغيض .

ثم يبدو اليوسى (23) متفائلا مسرورا بزمانه الذى يعيش فيه قائما بذلك العهد — الذى ننظر اليه باشمئزاز — لاطمئنانه فيه على عقيدته ، اذ هو عصر توحيد سالم من زيغ شتى الفرق الاعتقادية التى كانت فى صدر الاسلام ، فليس هنالك جبرية ولا قدرية ولا روافض ولا غيرها من هذه الطوائف التى تحاول ان تخرج المرء عن دائرة التوحيد السنى الخالص ، وقد يكون اليوسى فى تفاؤله هذا لا ينظر بعيدا لا من حيث الحس ولا من حيث المعنى ، فهو لا ينظر من جهة الحس الى أبعد من وطنه الذى يعيش فيه والذي يراه كله على عقيدة الامام الاشعري ، وهو من جهة المعنى لا ينظر الى الخرافات المزدهرة فى عهده أتم ازدهار وألتي يرى هو نفسه فى كثير منها مساسا بالتوحيد واقتربا من الاشراك ، ولعل اصدق تعليل لهذه الحالة النفسية التى يسجلها اليوسى فى المحاضرات ويكررها فى قطعته التى يقول فى مطلعها :

نحمد الله الوقتة وقت خير بذ ما قبله من الامقلت

هو فى تلك الروح الصوفية التى اوماننا اليها ، وهى بطبيعتها ميالة الى القناعة بالواقع والرضى بالمقدور ، ومشاهدة

(23) المحاضرات ص 79 .

ان ما هو كائن في زمن ما لا يمكن ان يكون غيره اولى منه بالوقوع في ذلك الزمن ، (اذ ليس في الامكان ابداع مما كان 24) (وما نرك من الجهل شيئاً من اراد ان يظهر في الوقت غير ما اظهره الله فيه 25) وهي فلسفة واقعية لها اثرها في النفس وخطرها في السلوك ، ونحن وان كنا ننظر اليها نظرة من يرى في الركون لها والاطمئنان اليها ابتعادا عن العمل والجهد في وسائل التغيير والتطوير للاوساط والهيئات ، فانا لا نجد مناصا عن الاعتراف بانها حقيقة نافعة في كثير من الاحيان ، وانه من الحماسة ان يعدل العامل عن النظر لروح العصر او يحاول الخروج عن محيطها ، لان للروح العصرية سلطانا بالغاً أسمى درجات القوة والنفوذ .

ويتكلم اليوسى (26) عن مذهبه في مخالطة الناس ومعاملتهم ، فيقرر لذلك وجوب التعافل عما يصدر عنهم من الكلام وعدم تتبع ما لا حاجة اليه ، او ما فيه كلفة ولا تدعو الضرورة له من قول او فعل ، لان ذلك عنده اسلم وأبعد عما يخشى من ارتكاب الفضول احيانا ، وتجاوز الحد أحيانا ، واحراج الصدور واثارة الشر احيانا اخرى ، وهو في ذلك يميل الى وجوب التعرف لطبائع الخلق واستكناه نفسياتهم ، والبحث عن كل ما يمس جانبهم العاطفى لنتخذ من ذلك قانونا لكل شخص نعامله به ونجريه عليه ، زيادة على القوانين العامة التي توجبها العشرة ويفرضها الاختلاط .

24) الكلمة للغزالي .

25) من حكم ابن عطاء الله .

26) المحاضرات ص 31 .

وهكذا يبدى اليوسى فى كتابه المحاضرات دخائل نفسه
وخبائيا فكره ، فى اسلوبه المختلط المتسلسل ، اكثر مما يبدى فى
غيرها من الكتب التى يخضع فيها للقواعد التعليمية والاصول
المنطقية الجافة .

والمحاضرات مطبوع بفاس سنة 1317 هجرية .

زهر الاكم

واما زهر الاكم فى الامثال والحكم فمن الاسف ان لا يكمل
منه الا مجلدان ، وهو لا يمكن ان يفيدنا عن اليوسى اكثر من
كونه لغويا كبيرا وعالما نحويا مطلعا على مفردات اللغة
واحكامها وقادرا على فهم الامثال والابانة عن مضاربها .

يبتدىء الكتاب بمقدمة فى تعريف الحكمة وذكر اختلاف العناء
فى تحديدها ، ثم فى حقيقة المثل وانواعه ، ثم يسرد الحكم
والامثال مرتبة على حروف المعجم مفردا الكلام على ما صدر
منها عن النبى صلى الله عليه وسلم — اما اسلوبه فى الشرح
فهو تحليل المعنى اللغوي لمفرد المثل واتباعه بما قيل فى معناه ،
ثم حكاية السبب الذى قيل من اجله ، وقد يتوسع فى ذلك الى
درجة تذكرنا باسلوبه فى المحاضرات ، وربما يعرض ما يشبهها
من الامثال المغربية موضحا معناها ايضا وذلك فى النادر القليل ،
ومتى استشهد بكلام الشعراء فانه لا يتاخر عن الاستدلال بكلامه
ايضا وقد يبدو ذلك غريبا فى كتاب لغوي يوتى فيه بالشعر

للابراه (27) على وجود اللفظة وصحتها ، ولكن روح الإديب المحاضر تابى الا ان تتسلسل في حديثها ، وعند ما يفرغ من جلب الامثال والحكم الموجودة في الباب يبتديء في سرد الابيات والقطع والقصائد التي على روى ذلك الحرف من الجاهلية الى الاسلام منحدرًا الى عصره وشعره ، وقد يمتد به النفس في ذلك الى أن يتجاوز الستين صحيفة وما اليها ، وهو كلما سرد قطعة اعقبها بشرح مفرداتها وبيان معانيها . وانه لصنيع يدل على اطلاع واسع ، ودراية عجيبة ، ومقدرة على تذوق الكلام واستكناه معانيه قلما يحصل على ملكتها الا من اوتوا حافظة اليوسى الراسخة . وما أجدر هذا الكتاب بان يقدم للطبع فيكون — على ما فيه من نقص — مادة لغوية لا يستغنى الاديب عن الرجوع اليها .

نيل الأمانى

ونيل الامانى في شرح قصيدة التهانى وهو شرح صغير لداليتة التى هنا بها شيخه ابن ناصر باوبته من الحج والتى سنعرض لتحليلها فيما بعد ، وقد وضعه (لما رأى كثيرا من رواتها تنبو أفهامهم عنها ويستغربون كثيرا منها) فهو لا يرمى لأكثر من تقريب تفهيمها للقاريء ، اما الاعراب عما فيها من معنى ، ومتين ما تشتمل عليه من مبنى فهو شئ يطول ولا يجتزا فيه بمثل ذلك المختصر الصغير كما يقول اليوسى في خطبة الكتاب .

(27) الابراه التدليل من ابره اى اتى بالبرهان وقد عدلنا عن لفظ البرهنة لانها من الخطأ المشهور ولا نعلم وجودا فى كتب اللغة .

وقد تستفيد من هذا الشرح — زيادة على حل المفردات اللغوية التي تحتشد في الدالية احتشادا متراكما — ايضاها لبعض افكار اليوسى المبتوثة في شعره ، والتي سنعرض لها في الكلام على اليوسى المصوفى .

وهذا الشرح طبع اولا بمطبعة الكواكب بالاسكندرية سنة 1221 ثم جدد بالمطبعة الميمنية سنة 1332 هـ (28) وهو من اشهر كتب المترجم المتداولة بين الناس .

الفهرسة

لم يكتب اليوسى من فهرسته الا قليلا ، ولو كملت لافادتنا كثيرا عن حياة ابي على وافكاره ومختلف الحوادث العلمية التي جرت له . اذ لم يكن يريد منها ان تكون كمعجم من معاجم شيوخه او مسندا من مسانيدهم فقط ، بل اراد ان يسطر (29) فيها زيادة على ذلك (ما حضره من الحكم والفوائد والملح وغيرها من الامور التي ينبغي تخليدها في بطون الاوراق تذكرة لنفسه ولمن يطرق ساحتها من الطراق) .

وهي بحسب التقسيم الذى وضعه في طالعته تشتمل على فوائد وخمسة فصول : الاول في ذكر اشياخه في التعليم مع الالمام

(28) قد جدد طبعه بعد ذلك بمصر سنة 1347 هـ بمطبعة صبيح ووقع في هذه الطبعة من التصحيف والتحريف ما ضاعت معه فائدة الكتاب .

(29) انظر طالعة الفهرسة .

بشيء من الفوائد والمذاكرات الواقعة معهم . الثاني في ذكر
اشياخه في الدين ولو بطريق التبرك . الثالث في ذكر ما الهمه من
الفهوم في بعض الآيات والاحاديث والحكم على طريق الصوفية
في الاشارات . الرابع في ذكر شيء مما خوطب به او خاطب به
غيره نثرا ونظما . الخامس في جمع الفوائد الملقوطة من اي
نوع كان .

هكذا كان اليوسى يريد ان يجعل فهرسته ، ومن ذلك نعلم انه
لو اكملها لأعطانا مناظر مفيدة من حياته وافكاره ، ومناظر من
مخالطته لاشياخه ومذاكراته معهم ، واخرى لعلاقاته مع مادحيه
وممدوحيه ، وصورا مفيدة من دقائقه الصوفية وافكاره في
مناحي السلوك (30) .

يفتح اليوسى فهرسته بالاسف على تقاعس الهمم عن
وعى العلوم وحفظها وعن ذهاب اولئك الذين لم يكونوا
يحتاجون للكتابة في الاوراق ، ثم يعود فيتسلى عن ذلك بكون
الكتابة حفظا من لون آخر مخلص ويقول : ان ما يفوت المرء من
عزم الذاكرة يجب ان يعوضه بحزم الكتاب ، ويحث المرء على
تقييد كل ما يسمعه او يراه او يخطر بباله واو ظنه في نفسه عديم
الفائدة قليل الجدوى ، ويحدثنا عن نفسه في بادىء امره انه

(30) لم يكتب اليوسى من فهرسته الا المقدمة والفصل الاول وترجمة شيخه
ابن ناصر من الفصل الثانى والكل يقع في ستين صحيفة وهى عندى
منقولة من خط المؤلف وعليها كتابة بخط بعض تلامذة سيدي الحسن
المعدانى رحمه الله .

(كثيرا ما كانت تتفق له النادرة نظما ونثرا فلا يقدر لها قدرا ، بل ما كان يرضى ان يجريها ثانية على لسانه ، فضلا عن ان يعرضها على النظار في بطون الاسفار ، بينما ارباب الفهارس والكتانيش لا يتحاشون عن مثلها واقل منها) ويعمل اصوبية هذا الفعل بان الناس في الانتفاع بالمسائل مختلفون ، وفي الاستحسان والاعجاب متباينون ، فينبغي للمرء ان لا يراعى طائفة بعينها ولا جماعة دون غيرها ، بل يجب ان يطلق لنفسه العنان ، ويقيدهما يظهر له من حقير وجليل ، اذ لا يعدم من يرى فيما يصدره فائدة ينتفع بها في دينه او دنياه .

ونحن نرى في كتب اليوسى تأثرا كبيرا بهذه الفكرة التى يدافع عنها بكل قواه ، فنجده يحشر الغث والسمين ويذكر بجانب الفكرة النافعة والقول المفيد مسائل ان دلت على شىء فانما تدل على بساطة قائلها والمعتنى بها ، ولعل كثيرا من الناس فى هذا العصر لا يستطيعون ان يقرأوا اليوسى فى محاضراته مثلا ، لأنهم لا يقدرّون على تحمل كثير من الصغائر التى يأتى بها . ومن يدري ؟ فلعل لكل ساقطة لاقطة كما يقول ابو على .

ويعرض اليوسى فى فوائده التى صدر بها الى تعريف العقل واقسامه ويشير الى اختلاف الحكماء الاقدمين فيه هل هو عرض او جوهر او مجرد ، ثم يعود لتحديد العلم وبيان اطلاقاته واقسامه بحسب مقاصده وبحسب وسائله ، ويلم المامة باحصاء العلوم الذى يولع به المترجم كثيرا والذي نؤخر دراسة عمله فيه الى تحدثنا عن كتابه (القانون) .

ولكننا لا نمر دون ان نعرض لتحديد المترجم لعلم الادب فهو يقول : « ان البراعة في الصنعة الشعرية بالاتساع في فنونه ، واستتباط عيونه ، وسلوك السهل منه والصعب ، والانسحاب معه في كل شعب ، يسمى علم الادب ، وكثيرا ما يطلق اسم الادب على العلوم اللغوية كلها ويقال لها علم العربية ، وهي بازاء المنطق في الفلسفة لأنه موضوع لاصلاح الفكرة وهي موضوع لاصلاح اللسان ، غير انها لما تعلق باللفظ اختصت منفعتها باللغة العربية الموضوع هي فيها ، والمنطق لما تعلق بالمعاني وهي مشتركة في اللغات والامم عمت منفعته ، فلذلك نقل من العجمية الى العربية فكان نافعا في الطرفين » .

وهذا التحديد الدقيق لما تدل عليه لفظة الادب بمعناها المجازي في اللغة العربية قل من تنبه له من الباحثين وهو يدل على تعمق اليوسى في فهم اللغة وادراك مدلولاتها .

رسائل اليوسى

لا يهمنا هنا أن نعرض لكل الرسائل العلمية والدينية التي كتبها اليوسى ، وانما يهمنا أن نتحدث عن رسالتين عظيمتين خلفهما المترجم كدليل قاطع على اخلاصه وصدق نيته ، وهما في نظرنا كافيان للدلالة على ما وراءهما من مختلف الرسائل التي لا تخرج عن دائرة العلم والدين .

هاتان الرسالتان كتبهما اليوسى للمولى اسماعيل ، وضمنهما من الصراحة في القول والاخلاص في النصيح ما يشهد بفضله وعلو مكانته .

أما أسلوبهما الكتابي فهو لا يخرج عما في المنشئات اليوسية من التسلسل في الحديث ، وحسن العرض الأفكار ، واستعمال الشدة في المجادلة واتخاذ كل الوسائل للتأثير على المخاطب ، واقتناعه بصدق الكاتب ونزاهته فيما يقول ، ومع ما يأتى به اليوسى من التهلل في الجمل ، والسذاجة في العبارة ، فان له مقدرة على اختيار الألفاظ ووضعها في مراكزها ، وهو من هذه الجهة قوي الشبه بالجاحظ — على بعد ما بين انشائهما — اذ كل منهما يختار اللفظة ويتحرى أن تكون محددة لكل ما يروج بفكره من معنى وكلاهما لا يتأخر في سبيل ذلك عن استعمال اللفظة العامة اذا كانت هي وحدها المؤدية للمعنى المطلوب .

الرسالة الاولى وظروف كتابتها

لما ولى المولى اسماعيل عرش المغرب رأى من الضروري لتوطيد الامن ونشر السكينة نزع الخيل والسلاح من القبائل المغربية ، ورأى ان مصلحة الوطن قاضية بالاستعاضة عن عموم المقاتلة بتأليف جيش منظم خاضع لقيادة عامة ، محكمة القواعد ، متينة الضبط ، يوزع على سائر المراكز المغربية فيقوم عن الشعب بحمايتهم والدفاع عنها . وكان بعض القواد الذين كلفوا بتنفيذ الخطط الرشيدة التي نظمتها المولى اسماعيل — سواء في نزع السلاح أو جباية المال وتنظيم الجيش وتوزيعه على الثغور — اخفوا يستعملون الشدة في التنفيذ ، ويستخدمون الغلظة في التبليغ ، وتحصنهم بواعث كثيرة على ارتكاب مظالم في الرعية وأموالها ، ثم يدعون بغض

الجهات المطروقة عورة مكشوفة من الحماة والمقاتلين ، وينتشر خبر ذلك في الناس فتعظم الشكوى منه ، ولا يجرؤ أحد على تبليغه لسمع الملك خوفا من أولئك القواد الظالمين ، ولكن مترجمنا الذي يرى واجبا عليه أن يؤدي مهمة العالم الوارث ، والذي يولع بالتجوال في القبائل المغربية فيرى بعينه ، ويسمع بأذنه ما يحفره للتقدم والتبليغ ، يابى إلا أن يعلن للسلطان جليلة الأمر وينصحه بوجوب زجر هؤلاء الظلمة ، حتى يقفوا عند حدود الشريعة وأوامرها ، وتلك هي الظروف التي كتب فيها اليوسى رسالته الأولى للمولى اسماعيل .

تقع هذه الرسالة في نحو الأربع صفحات اثبتتها الناصري في الاستقصا ، استهلها المترجم بالثناء على جلالة الملك الذي يعلم منه الميل لمن ينصحه ويحثه على الخير ، وثنى بتذكير جلالته أنه عبد من عبيد الله لا فرق بينه وبين غيره من الخلق إلا بصفة الخلافة التي أورثه الله إياها ليكون أمينا على هذه الأمة ، وحريصا على ما فيه مصلحتها ، وبعد هذا يتخلص للموضوع الذي يرمى إليه فيقول : (ان على السلطان حقوقا كثيرة لا تفي بها الطاقة ، ولنقتصر منها على ثلاثة هي امهاتها .

الأول جمع المال في حق وتفريقه في حق . الثاني اقامة الجهاد لأعلاء كلمة الله ، وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة الثالث الانتصاف من الظالم والمظلوم ، وفي معناه كف اليد العادية عنهم منهم ومن غيرهم ، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة ، فان تنبهه وفعل فقد فاز وذلك صلاح الوقت وصلاح

اهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة ، والا فقد اديننا الذي علينا ...)

هكذا يتكلم العالم الدينى فى ذلك العصر فى رسالته لملك من الملوك الذين عرفوا بالشدة والصرامة ، تأدية للواجب الذى يراه فى ذمته لا يبرئه منه الا الاداء ، وهكذا يقبل ذلك الملك من العالم نصحه وأمانته ، لعرفانه انه لا يدعو الا لما فيه الخير والصلاح وبقاء الملك محفوظا محروسا : لا يخشى العالم أن يتكلم ، ولا يستنكف الملك ان يقبل ، ذلك هو الخلق الذى ساد به سلفنا الاولون .

يمضى اليوسى بعد هذا فى الكلام على تلك النقاط الثلاث ، ويشرح كيف تتخبط البلاد فى معامع الظلم بسبب اولئك الولاة الظلمة ، والجباة المعتدين . ويبين الطرق متى يجب أن تستعمل فى جمع المال من الرعية ، ثم المصارف التى ينبغى ان يقصر عليها ذلك المال ، ويعلن للملك برباطة جأش وثبات قلب أنه هو وحده المسؤول عما يصيب الرعية من الظلم والاعتداء ، وانه ليس من مصلحته الدينية ولا الدنيوية ان يترك الأمة لهؤلاء الجباة الشرهين الذين «اكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ» بل يجب عليه ان يعزلهم عما طوقوا به وان يختار غيرهم من رجال الامانة والصدق الذين لا تغرهم الدنيا وزخارفها ، ولا تلفتهم بهرجتها عن دينهم واخلاصهم ، ويختم الرسالة بحث السلطان على ترك الاستبداد فى الرأي والعمل ، وعلى استشارة

العلماء المخلصين من رجال دولته ، والوقوف عندما يأمرون به
او ينهون عنه .

يستفيد أكنسوس من هذه الرسالة ان اليوسى لم يكن راضيا
عما فعله المولى اسماعيل من نزع الخيل والسلاح ، ويجيب
عن ذلك بأن جلالتة ارتكب اخف الضررين فى اضعاف القبائل
وتقوية الحكومة ، ويقول الناصرى ان هذه الرسالة لا تتناول
هذا الموضوع بالمرّة ، وانها كتبت فى غرض خاص ، وهو الحث
على تعمير الثغور ، وكف الظلمة من الولاة والجباة ثم يقول :
ان ما فعله المولى اسماعيل غنى عن الاعتذار والتبرير ، ونحن
مع اعترافنا بأن هذا الفصل ظاهر المصلحة واضح الفائدة ،
وان بقاء السلاح فى يد القبائل المغربية فى تلك الظروف
معناه هو ابقاء الفوضى سائدة والنظام مفقودا ، نرى أن اليوسى
لم يكن راضيا عن هذا الفعل ولا كان قابلا لان يرى البدو عزلا
من الخيل والسلاح ، يدل لذلك قوله فى اثناء هذه الرسالة عن
نفسه « انه حضر فى تطوان ايام المولى الرشيد فكانوا اذا سمعوا
الصريخ تهتز الارض خيلا ورماة وقد بلغه بعد ذلك — اى فى
عهد المولى اسماعيل — أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات
يوم ، فخرجوا يسعون على ارجلهم بأيديهم العصى والمقاليع »
ويقول عن ذلك : « انه وهن فى الدين وغرر على المسلمين » ويدل
لذلك أيضا ما فى رسالته الكبرى من التأسف على كون القبائل
المطبعة بقيت عز لا محاويج تهاجمها قبائل آيت عطة العاصية ،
فلا تجد ما تدافع به عن نفسها ، فلو ان اليوسى كان مكثفيا بما
فعله المولى اسماعيل من تكوين جيش منظم وتوزيعه على

الثغور لحمايتها لما اكثرت الاشارة والتفجع لحالة هؤلاء الذين اصبحوا لا يجدون من السلاح ما يقابلون به الصريخ .

الرسالة الثانية :

ان الذي يدرس تاريخ الادب العربى بالمغرب الاقصى ليلاحظ في عصره الثالث ازدهار لون من الوان الادب يمكننا أن نسميه « ادب الحوار السياسى » يكون عادة بين زعيمين مختلفين او بين ملك وخارج عليه ، وقد يقع احيانا بين الملك وشخصية عظيمة يرى فيها الملك ميلا لانتقاده ونفورا عن الركون اليه . ويمتاز في القسمين الأولين بالجدل العنيف والمحاورة الشديدة ومقابلة النقد بالنقد الى درجة المهاجاة ؟ اما في الثالث فيميل للملاينة والتلطف وقليل من الدبلوماسية – ويتجلى في شكل مذكرات ورسائل تتبادل بين الجانبين يستفرغ كل واحد منهما جهده فيها لتبرير موقفه وادانة صاحبه مستعملا في ذلك كل ما يساعده على النجاح لدى خصمه ولدى الفكر العام الذي يتحسس هذه الرسائل ويبحث عنها وقليل ما يبدي رأيه فيها – وقد كانت هذه المراسلات تقوم في ذلك العهد مقام المناقشة الخطابية في العصور الاولى والصحافية في العصر الحديث .

يمكن للقارئ ان يرى امثلة من القسم الاول في الرسائل المتبادلة بين أبى زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحى والسلطان زيدان او الشى بين المنصور وابن اخيه السلوخ ، وبين محمد الشيخ وأهل زاوية الدلاء ، أو بين الاول والامير محمد بن الشريف ، الى غيرها من المحاورات الواقعة في ذلك العهد ،

ويمكنه ان يرى أمثلة القسم الثالث في الرسائل التي تبادلها المولى اسماعيل مع كثير من علماء عصره في مسألة العبيد وغيرها من القضايا ، ومن هذا القسم محاورته مع اليوسى التى نريد ان نتحدث عنها الآن .

لقد اختار اليوسى سكنى البادية والابتعاد عن الحاضرة او بالحري عن ابواب الدولة : وكانت له فى ذلك فكرة خاصة سنشير اليها . اما المولى اسماعيل فكان يريد منه دخول الحاضرة وملازمة الاعتاب السلطانية بقصد القيام بنشر العلم ومساعدة الحكومة ، ولكنه هو يابى الخضوع لهذه الفكرة التى تحول بينه وبين ما يعشقه من خلوة واعتزال ، فيؤثر ذلك فى السلطان ويظن الباعث عليه مجرد الرغبة فى الانتصاب للمشيخة والاحتياى لجمع المال . وهنا تظهر عدالة المولى اسماعيل فى استطاعته ان يلزم اليوسى بسكنى الحاضرة وتنفيذ كل ما يريده منه ولو اصدر امره بذلك لما تأخر اليوسى نفسه عن الطاعة والامتثال ، ولكن العدالة وتقدير العلم هما اللذان صرفا نظر جلالتة عن هذه المعاملة التى ليس من شأنها أن تزرع المحبة فى القلوب ، وجعله يستعيز عن ذلك بأخذ اليوسى بالحجة والبرهان ، فبعث اليه كتابا ينتقد هذا السلوك ويحاكم صاحبه الى الشرع طالبا الوقوف عند ما حده وامر به: اما اليوسى فبعد أن يتلجلج قليلا من أجل هذا الخطاب السلطانى الذى يمزج الشدة باللين ، وبعد أن يستصعب مجادلة الملك ومعارضته فى كل ما يدلى به يرجع الى نفسه فيستجمع قواه ويكتب جوابا ممتعا ذا مائة صفحة معتذرا عن فعله بان الكلام مع الكلام .

من الاسف ان لا نعرثر على الرسالة الاسماعيلية كاملة ،
وان لا نرى منها الا ما حفظه اليوسى فى جوابه من الفقر
المقتضبة التى اختارها ليجيب عنها ، ومع ذلك فيظهر ان هذه
الرسالة لا تتناول غير المواضيع الآتية :

- (1) تفجع السلطان لحالة العلم بالمغرب .
- (2) احتجاجه ضد ابتعاد اليوسى بان العلماء معروفون
بصحبة الملوك منذ القدم .
- (3) انتقاده سكنى البادية لانها سبب فى ضياع العلم .
- (4) عرض بعض المداخل المالية على أبى على .
- (5) دعوته للنزول على حكم الشريعة مع الانذار والتوبيخ .

اما المترجم فقد جعل جوابه كتطبيق على كتاب الملك ينتهز
الفرصة فى النقطة المتفق عليها فيتوسع فى شرحها ويدعو للعمل
بها ويجيب عن غيرها من النقاط بما يراه مقنعا فى دحضها وتقرير
الخطأ فيها ، فهو حين يصل الى تفجع المولى اسماعيل لحالة
العلم بالمغرب وخشيته من تفاقم الامر وقدح الخطب يجد مجال
القول ذا سعة فيقف عنده لبيان فضل العلم ومكانته وشرح
حاجة الخلق اليه ، ويقول انه قسم من الجهاد هو اسبق من جهاد
العدو ومقدم عليه ، لان العدو اذا استولى على قوم فانه لا يفعل
بهم ما يفعله الجهل من الابداء والتخريب ، اذ كل ما فى استطاعة

القوة ان تنال منه هو الاموال والرقاب ، اما العقائد والافكار
فهى من الحصانة والمناعة بحيث لا يقوى على الخلوص اليها ولا
الفيل منها ، وليس فى استطاعة القوة ان تلزم احدا بتغيير فكره
او تبديل عقيدته ، ولكن الجهل وحده هو الذي ينسى الناس فى
عقائدهم ويلهيهم عن العمل لها وبذلك تخرب الضمائر ، فلا تبقى
الا اشباح لا قيمة لها وليس لديها رادع يردّها عن الالتقاء
بنفسها وقومها ودينها فى احضان العدو والاستخذاء له ، فاذن
(الجهاد فى دفع الجهل وتحسين الدين أهم وأوكد من الجهاد فى
دفع العدو) ولذلك بدأ نبينا صلى الله عليه وسلم بتعليم الخلق
ودعوتهم الى الله ودفع الجهل عنهم ، ولم يشتغل بالجهاد الا
بعد ان أصبحت الدعوة معلومة لدى الجميع ، والاسلام معروفا
لدى العدو والصديق ، فحينئذ اذن له بمقاتلة مناوئيه والمقاومين
لدعوته . واذا كان المولى اسماعيل يأسف حقيقة لحالة العلم
فعليه أن يبحث عن البقية الباقية من العلماء ويوفر لهم ما
يحتاجون اليه ثم يدعوهم بالرغبة لا بالرهبة ليؤدوا للجيل الناشئ
امانة العلم التى فى ذمهم وهم مسؤولون مغتبطون ، أما أن
يلزمهم بالانتقال من منازلهم وصرف الوقت فى تعليم الناس
وتهذيبهم دون أن ينشطهم بالعطايا والصلاات فذلك ليس له ، بل
عليه أن يهيا المال ويبدأ فى انفاقه على العلم ، واذا العلماء ينهالون
عليه من كل صوب ، ويتسابقون فى خدمته والعمل لما يرجوه .

تسقط الطير حيث يلتقط الحـب وتغشى منازل الكرماء

« والعطايا تطلق اللسان ، وتشرح الجفان ، وتشجع الجبان ،
وتتنشط الكسلان ، وتسرع الغضبان ، سجية مطبوعة في الانسان ،
على مرور الازمان . »

ويمر اليوسى في هذا المهيع مستنطقا التاريخ في الشهادة
على ما يقول ، ومستعرضا حالة كثير من الملوك الذين نشطوا
العلم وخدموه من لدن الامويين والعباسيين في المشرق والموحدين
والمرابطين وبنى مرين في المغرب الى عهد السعديين ثم الى عهد
المولى الرشيد الذي كان يبذل مجهوداته العظيمة في هذا السبيل
ويقول : ان المجتمع المغربى كان على عهد هؤلاء زاخرا بالعلوم
والعرفان ، وان مدارس المغرب في مختلف المدن كانت مليئة بالعلماء
والمتعلمين الذين يفدون اليها من كل الجهات حتى ان مدرسة
الوادي بفاس (وكانت خربة في عهد اليوسى - أما اليوم فقد
بنى على انقاضها مسجد جامع) كان فيها سبعمائة استاذ ، وقيل
سبعة الاف ، وانه هو ادرك سجل مائة مليئة بمجالس العلم
ومعاهد التدريس حتى كان في ثلة من رفاقه لا يذوقون طعاما
من طلوع الشمس الى غروبها في اكثر الايام ، لتقلبهم في المجالس
واشتغالهم بطلب العلم طول النهار ، وقد مر بعد ذلك بهذه
المدينة فوجد الامر قد لحقه من الفتور والضعف ما يخشى معه
على الضياع فكيف لا يأسف الملك على هذه الحالة التى آل اليها
امر مملكته والتى لا تؤدى الا الى الخراب والدمار ، وكيف
لا يقتدى بمن سلف من الملوك الاعاظم في خدمة العلم ونشره
« وهمته اعلى وخزانتة املى . »

وهو حين يصل الى قول المولى اسماعيل : ان العلماء لا يعرفون الا بصحبة الملوك وان اليوسى يجب عليه ان يسلك طريقتهم فى خدمة سلطانه وملازمة أبوابه — يتعجب من اطلاق هذا القول على عواهنه ويقرر أن العلماء فى ذلك مختلفون ، وان منهم المنقبض الذي لا يبيح لنفسه مخالطة الامراء والاتصال بهم اما لنفور فى طبعه او لاقباله على ما ينفعه فى دينه ودنياه ، ومنهم الذي يبيح لنفسه الاتصال ويرى فى ذلك فائدة تحمله عليه ، وكلهم مصيب فيما يرى ان كانت له نية صالحة واعتبار صادق ، وليس لاحد أن يلزمهم بالعدول عن فكرتهم أو اختيار سلوك اخر غير سلوكهم ، اللهم الا بالاحسان الذي يجلب الخلق ويبعث فى قلوبهم المحبة للمحسن ، ويرى اليوسى ان النفع الذي يحصل من العالم المنقبض اكثر من الذي يحصل من غيره ، لانه بملازمته لبيته ولاقباله على كتبه تنمو مداركه ويكون بحيث يجده كل من اراد سؤاله عن مسألة أو مراجعته فى قضية ، أما صاحبه الذي يقضى أوقاته فى الذهاب والاياب وانتظار الاذن فى الابواب، فهو لا ينفع الناس الا باليسير من علمه ، لانه لايبقى له من الوقت ما يشتغل فيه بنشر العلم وبثه .

ثم يزيد فى الاحتجاج لتتحية الملامة عنه هو الذي اختار العزلة والانقباض ، معلنا ان صحبة الملوك تحتاج الى شروط قد لا تكون متوفرة فيه ، فالسلطان لا ينبغي له ان يتخذ لصحبته من الناس الا الافذاذ الذين يجمعون بين الادب والفهم والظرف ، ويستمد اليوسى حجته فى هذا الباب من أقوال الحكماء وقواعد علم الفراسة ، ويستخدم من أساليب الاستهواء ما من شأنه ان

يغري السلطان بالبحث عمن يتخذه لصحبته في طراز غير طراز
اليوسى من الظرفاء الفصاح اللسن ، الصباح الوجوه
« ليكون بهم للسلطان متعة شاملة ، لقلبه بالعبر ، ولاذنه بالخبر ،
ولعينه بالنظر » .

ويعتذر اليوسى عن اختياره البادية لسكناء بان طبعه قبل
كل شيء ميل اليها ، لانه لم يولد بين الدروب الضيقة والاسوار
المتقابلة ، بل ولد في الفجاج الواسعة (بين الشيع والحرمل ،
والجنوب والشومل) فأى عجب من ان يحن الى وطنه ، او يميل
الى عطنه ، والحال ان ذلك شيء غريزي في النفوس ، فما زال
الناس منذ القدم يميلون الى مساقط رؤوسهم ويفضلونها على
كل ما عداها من الجهات .

وحبب اوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالك

ثم هو بعد قد جرب سكنى الحاضرة امدا طويلا قاسى فيه
من الشدائد والآلام ما جعله يبغض العودة اليها مرة اخرى ،
ولقد كان هو واولاده في البادية قانعين بما وجدوه في المأكل
والمشرب والملبس فلما دخلوا الحاضرة « نظر النساء للنساء
والصبيان للصبيان فطلبوا الاتساع والرفاهية وابتلوا كما ابتلى
الآخرون) هذا الى ما في الحاضرة من الوقاحة وقلة الحياء
والتعرض لاذية اهلها ومكابدة فتنهم . وهنا يتحدث اليوسى عما
لقيه من علماء فاس من الحسد والبغضاء لما ابتدأ التدريس
بالقرويين واجتمع عليه خلق كثير ، وان ذلك أدى بهم الى ان

سحروه فاضطر الى اتخاذ بعض الرقى والعزائم الواقية ولم
تزل محمولة عليه منذ ذلك الحين....!

ويرجع اليوسى للحديث عن البادية وفضائلها والطمأنينة
التي حصلت له بسكنائها ، فهو قد ابتنى لنفسه دويرات يجلس
فيها للمطالعة والذكر أمام ساقيتين جاريتين وبجانب مسجد
شريف ، ويدخل لخلوته فلا يرى غير عياله احدا ، « والمثونة
مكفية والاحوال مرضية ، والدروس قائمة » لا تطلعا لرتب ،
ولا رغبة في دنيا ، وانما ذلك لله ولدفع الجهل عن البلاد فكيف
يعدل عن هذه الحالة الهنية الى حالة كلها مشقة وعناء ؟

وينتقل بعد ذلك الى آداب المتعلم ووجوب رحلته في طلب
العلم والاخذ عن المشاهير ، وغرضه من ذلك ان يدفع ما يريد
الملك الزامه به من انتقاله للتعليم ، لان من شرف العالم ان
يقصده المتعلم في بيته لا أن يرتحل هو اليه ، أما ما فعله ملوك
الموحدين وبنى مرين من نقل العلماء فذلك شيء لا ينبغي للمولى
اسماعيل ان يفعله لأنه لا يجدر بملك قرشى هاشمى ان تنحط همته
للاقتداء بملوك البربر ، بل عليه ان يقتدي بافعال سلفه من
الخلفاء الراشدين الذين ما أثر عن واحد منهم انه فعل ذلك على
جهة الالزام ، وهكذا يغالط اليوسى في حججه ، ويستعمل كل
الوسائل التي تبلغه الى غايته وهي تركه وشأنه يعمل كيف يشاء
ويسكن حيث يريد .

ثم يعرض المولى اسماعيل على المترجم مدخول معدن من
المعادن او زكاة قبيلة يقبضها ، ويمزج هذا العرض بقليل من

التوبيخ ، اذ كيف يتورع اليوسى عن قبض ما يعرضه عليه اسماعيل فى حين انه كان يقبض من أخيه الرشيد — فيستعظم اليوسى هذه التهمة ويراهم مغالطة من الكاتب لم ينتبه لها الملك ، والا فمن له بهذا الرعب الذي يعرض عليه ؟ ومتى قدم له عطاء فردة ؟ انه مستعد أن ياخذ كل ما يقدم له المولى اسماعيل من العطايا والصلات كما كان ياخذ من أخيه ، وانما الشيء الذي لا يمكن أن يفعله هو المطالبة والالاحاح ، فقد ربي نفسه على عدم التشوف لما فى أيدي الناس ، ان وصله شيء اخذه والا فلا .

ويختتم الملك العدل رسالته بدعوة المترجم الى النزول على حكم الشرع الشريف ويقول له : (نحن بالله وبشرية الله معك) وهنا ينتفض اليوسى انتفاضة البطل المقدام ويصرخ قائلا :

« أنا الذي أقول هذا وأطلبه لو أجده ، وأما السلطان ففى يده اليوم الشريعة وغيرها ، فما شاء فعل بى وبغيري ، شرعا كان او غيره ، وأما انا لو وجدت شريعة الله لم احتج الى شيء من هذا الكلام ، فو الله لا اعلم على حدا ثابتا عند السلطان فيطالبنى باقامته ، ولا جناية على احد فى مال ولا نفس ، ولا انا عبد أبى ولا فارس هربت براية الملك ، ولا عامل بقى على حساب الجباية ، ففى أي شيء يطالبنى السلطان بشريعة الله ، أما كون علمى حجة لى او على عند الله فالامر الى الله تعالى ، والتعليم اشتغلت به جهد طاقتى ، ولو لم اشتغل به أصلا لم اقبض فيه لانه فرض كفاية لا فرض عينين ، فاي شيء ثبت على شرعا يامعشر المسلمين حتى أطالب فيه ، وقد اعترفت على نفسى

بطاعة السلطان لم انازع ولم اخالف ولم احارب ولم اخلط وهذا القدر هو المطلوب من الطاعة ، اما ما خرج عن ذلك كخروج فرد عن داره او بلده او نزوله بلداً او لزومه جهة او انتقاله من موضع الى موضع فلا مدخل له في الطاعة ، لان السلطان خليفة الله في الارض فليس له ان يكلف العباد الا بما كلفهم الله تعالى « وكذلك يقف اليوسى موقف الدفاع عن الحرية الشخصية بكل شجاعة واطمئنان .

وفي الرسالة غير هذه الفصول نقط كثيرة مبعثرة ، ترجع الى تحذير السلطان من قبول الوشائيات والاعتماد عليها ، والاشارة الى ان طبائع الناس مجبولة على التأذى من الحاكم ، ولذلك يجب اخذهم على ظاهرهم وعدم التجسس عن بواطنهم ، اذ حسب السلطان ان يخضعهم للنظام العام فلا ينقصون له بيعة ، ولا يخرجون عن طاعة . اما تقززهم الداخلى او حديثهم الخاص مع بعضهم فذلك شئ لا ينبغي اعتباره ولا العناية به ، لانه لا يمكن تقطعه ، ولا بد ان يكون في كل مملكة ناقدون .

علال الفاسى

يُوسُفُ غُرُفِيَا اليُوسُفِيُّ أو سِيرَتُهُ البِيلُيُوغَرافِيَّةُ

د. عباس بحراري

وضعت في هذه السيرة البيليوغرافية قوائم بانتاج اليوسفي في جميع ألوانه وفنونه ، وبالمؤلفات التي ترجمت له أو تعرضت له .

وقد حاولت ان تكون هذه القوائم مستكملة ومستوفاة بقدر المستطاع . وهي — على ما فيها من نقص — تضيف الكثير من الجديد الى كل ما سبقها في هذا المضمار .

أولا : إنتاج اليوسى

وقد قسمته الى نوعين ، ورتبته في كل نوع حسب الموضوعات (1)

1 - كتب اليوسى وتقاييده وأشعاره ومنظوماته

✽ أدب (بمفهومه الواسع)

1 - الديوان (جمعه ولده بعد وفاة والده)

طبع على الحجر بفاس ، وتوجد منه ثلاث نسخ مخطوطة في خزانة الرباط العامة : الاولى ضمن مجموع عدد 32 ج ، الثانية رقمها ج 157 ، والثالثة تحمل رقم ك 491 . كما توجد منه ثلاث نسخ اخرى في المكتبة الملكية بالرباط تحمل هذه الارقام : 312 - 2339 - 6549 . كذلك توجد مخطوطات للديوان بباريز والجزائر ، وفي مكتبتى الخاصة كرايس منه عليها طرز .

(1) تنظر فى عرض هذا الانتاج بتفاوت مصادر ترجمة اليوسى المذكورة فى القسم الثانى من هذه السيرة البليوغرافية وخاصة منها كتاب الاستاذ جاك بيرك عن اليوسى ، ويبحث د. محمد حجي عن الزاوية الدلائية ، والرسالة التى أيجزت الأستاذة فاطمة خليل تحت اشرافى عن رسائل اليوسى .

وقد ذكر الاستاذ عبد الله جنون (النبوغ ج 1 ص 286) انه وضع منتخبا من هذا الديوان ، ولكنه لم يطبع على حد ما كتب في (خل وبقل ص 273)

2 - القصيدة الدالية في مدح الشيخ محمد بن ناصر ، ومطلعها :

عرج بمنعرج الهضاب المورد

بين اللصاب وبين ذات الارمد

عارض بها دالية البوصيري في مدح الشاذلى والمرسى وردت في ديوان اليوسى المطبوع ، وفي كثير من مصادر ترجمته وغيرها . وطبعت مع شرحها ، وهو لليوسى أيضا ، في مصر سنة 1291 (الاسكندرية) و 1329 (القاهرة) . وتوجد منها نسخ مخطوطة كثيرة في الرباط وفاس والقاهرة وباريز ، نكتفى منها بنسخة خزانة الرباط العامة رقم 79 د ونسخة المكتبة الملكية (الزيدانية) رقم 3633 (ضمن مجموع غير مرقم)

3 - نيل الامانى في شرح التهانى (شرح القصيدة الدالية في مدح الشيخ محمد بن ناصر)

طبع بمطبعة الكوكب الشرقى في الاسكندرية سنة 1291 وبمطبعة التقدم في القاهرة سنة 1329 .

وتوجد منه نسخ مخطوطة بالرباط والجزائر والقاهرة
وباريز ، نذكر منها ثلاث نسخ في خزانة الرباط العامة
مسجلة في حرف د ، وارقامها 712 - 1292 - 1604

4 - القصيدة الرائية في رثاء الزاوية الدلائية ، وأولها :

أكلف جفن العيد ان ينثر الدرا
فيا بى ويعتاص العقيق بها حمرا

وهى تشتمل على اثنين وستين ومائة بيت

وردت في ديوان اليوسى المطبوع ، وفي بعض مصادر
ترجمة اليوسى وغيرها . وتوجد منها نسخ مخطوطة ،
نكتفى بالاشارة منها الى نسخة خزانة الرباط العامة
الواردة ضمن مجموع 163 د (من 98 الى 103)

كتب عليها محمد بن احمد الشاذلى شرحا أتمه محمد البكري
(وهو مخطوط بخزانة الرباط العامة في نسختين : الاولى
ك 248 ، والثانية 2295 د ضمن مجموع ، ابتداء من ص
262) . كذلك كتب عليها أبو عبد الله محمد بن المهدي بن
سودة شرحا في ستة أسفار ، ذكر صاحب دليل المؤرخ
(ج 2 ص 426 ط. دار الكتاب) أنها توجد عند أحفاده .

5 - شعر في مدح خير البرية ، اوله القصيدة المشهورة :

جد في سيرها فلست تلام

هذه طيبة وهذا المقام

يوجد مخطوطا في خزانة الرباط العامة ضمن مجموع 774
د وتوجد القصيدة في « ديوان قصائد وموشحات في المديح
النبوي »

(مخطوطة خاصة للكاتب ص 85)

6 - قصيدة طويلة اولها :

هذا مقام السر والعرفان

قدما مقام الامن والايمان

وردت في ديوان اليوسى المطبوع ، وفي « هداية الملك
العلام » للهشتوكى (مخطوط خزانة الرباط العامة ق 190
من 307 الى 310)

7 - اشعار مختلفة

وردت في ديوان اليوسى ومصادر ترجمته وكذلك في الكتب
الآتية :

أ - مجموع بالمكتبة الملكية 2850 (غير مرقم)
ب - مجموع آخر بنفس المكتبة (الزيدانية) 3628 (غير مرقم)

ج - مجموع بمكتبة تطوان العامة 621

د - مجموع آخر بنفس المكتبة 518

هـ - كناش بمكتبة تطوان كذلك 327 الورقة 62 - 149

و - ديوان قصائد وموشحات في المديح النبوي ص 85 -
87 مخطوطة الكاتب الخاصة)

ز - كفاشة عبد السلام الصقلي ص 34 - 71 - 128 -
206 - 217 (المكتبة الخاصة للكاتب)

ح - النبوغ المغربي للاستاذ عبد الله جنون (دار الكتاب)

ج 2 (مختارات نثرية) ص 307 و ج 3 (مختارات شعرية)
ص 37 - 80 - 133 - 159 - 230 - 256 - 277)

8 - الرحلة (سجلها ولده حين سحب والده الى الحج)

مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 2343 وبخزانة الرباط العامة
رقم ك 1418 (معها الفهرسة) .

9 - زهر الاكم في الامثال والحكم

يوجد مخطوطا في المكتبات الآتية :

- أ - خزانة الرباط العامة 71 د - 191 د - 1001 د -
1159 د - ج 596 - ج 844 - ق 388 - ك 1679
- ب - مكتبة القرويين بدون رقم .
- ج - المكتبة الوطنية بالجزائر 184280
- د - المكتبة الوطنية بباريز 52304
- هـ - دار الكتب المصرية 14097 - 14842 (ادب)

10 - المحاضرات

طبع على الحجر بفاس سنة 1327 ، وتوجد منه نسخة مخطوطة فريدة بخزانة العطارين بتونس انتسخت بعد وفاة المؤلف بأربع سنوات ، وتوجد نسخ أخرى مخطوطة في الرباط والقاهرة وباريز ، منها نسخة خزانة الرباط العامة ك 2329 . وقد أعيد طبع المحاضرات ضمن منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر (سلسلة الادب 1) بعناية الدكتور محمد حجي (الرباط 1396 - 1976)

توجد نقول من المحاضرات كثيرة في مصادر ترجمة اليوسى وغيرها من الجاميع والكناشات نذكر منها مجموع مكتبة تطوان العامة رقم 850 م

11 - الفهرست (لم يكملها المؤلف)

توجد منها نسختان مخطوطتان في المكتبة الملكية بالرباط 1138 و 5470 ، كما توجد نسخ متعددة في خزانة الرباط العامة ارقامها : ك 1418 (مع المرحلة) - ك 1234 ضمن مجموع (من 103 الى 147) - ك 1301 ضمن مجموع (من ص 134 الى 164) 1838 د ضمن مجموع (من ص 77 الى 170) .

12 - شرح تلخيص المفتاح للقرويني (لم يكمله)

ذكره الكردودي في الدر المنضد 1584 د الورقة 218 و

13 - القانون

طبع على الحجر بفاس سنة 1310 و 1315

توجد منه نسخ مخطوطة في المكتبات الآتية :

أ - المكتبة الملكية بالرباط رقم 6643

ب - خزانة الرباط العامة ارقام ق 931 - ج 1304 -
2382 د - 2359 د

ج - خزانة تمكروت رقم 1923

د - ظاهرة دمشق 7934

هـ - المكتبة الوطنية بباريز رقم 5291

14 - الكناشة العلمية (تشتمل على فوائد في التفسير والحديث والتصوف والتراجم)

مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 5995

* تصوف

15 - تأليف في الهيلة :

ذكره القادري في نشر المثنى ، ومحمد الفاطمي الصقلي في تقديم كتاب « القانون » لليوسى ص 1 وقال عنه انه تأليف كبير .

وذهب د. محمد حجي في « الزاوية الدلائية » ص 102 (م) الى أن كتاب الهيلة هذا هو « مشرب العام والخاص »

16 - تنكرة الفافل

ذكره البغدادي في ايضاح المكنون (م 1 ص 275) وهداية العارفين (م 1 ص 296)

17 - الدر المصون

ذكره البغدادي في ايضاح المكنون (م 1 ص 448) وهداية العارفين (م 1 ص 296) .

18 - شرح قصيدة « عقد جواهر المعاني في مناقب الفروث

عبد القادر الجيلاني)

لاحمد بن المختار بنخدة الراشدي ، واولها :

أقول لمن أعىى الطبيب علاجه
وقد مل من شرب الدواء لعة

الا لذ بمحيى الدين يا طالب المنى
وعول عليه فى الامور المهمة

ذكره عباس بن ابراهيم فى الاعلام (ج 3 ص 161 ط ملكية)
نقلا عن « تحفة الزائر »

* قراءة وتفسير

19 - ارجوزة فى قراءة القرآن

ذكرها محمد بن على الحسنى المغالى فى دوحة البستان
(مخطوطة خزانة الرباط العامة 390 د ص 113)

20 - فتح الملك الوهاب فيما استشكله بعض الاصحاب من السنة والكتاب او الفتوحات السوسية المشتملة على الانوار القدسية

يوجد مخطوطا فى خزانة الرباط العامة ج 618 (ضمن
مجموع من ص 1 الى 129)

21 – نعيم الجنان في معنى قوله تعالى ويطوف عليهم ولدان

ذكره صاحب الفتح الوهبي (مخطوطة خزانة الرباط العامة
ك 2312 ص 507)

* توحيد

22 – تأليف في الهيئة

ذكره الكردودي في الدر المنضد (مخطوطة خزانة الرباط العامة 1584 د الورقة 218 و) ، كما ذكره بيرك الذي جعله في التنجيم ، وراجع د. محمد حجي الذي ذهب في الزاوية الدلائية (ص 102 هـ) إلى أنه كتاب الهيلة وإنما اختلطت الكلمة على بيرك فقرأها هيئة .

23 – حاشية على شرح كبرى السنوسى

مخطوطة في :

1 – خزانة الرباط العامة ك 2645 – 1771 د

ب – خزانة القرويين بفاس 40 – 837 / 40 – 732

ج - المكتبة الحمزاوية 69 .

د - دار الكتب المصرية 222 - 266 - 473 - 562 -
1117 (كلام)

24 - شرح صفري السنوسي

ذكره صاحب المنح البادية (انظر المصادر) ومحمد
الفاطمي الصقلي في تقديمه لكتاب القانون ص 1

25 - كتاب اخذ الجنة عن ائتنال نعيم اهل الجنة

يوجد مخطوطا بالمكتبة الملكية 6602 وخزانة الرباط العامة
3373 د ضمن مجموع من ص 414 الى 428 .

26 - مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص او منهج
الاخلاص من كلمة الاخلاص

طبع على الحجر بفاس سنة 1327 وتوجد منه نسخة في
تمكروت (آخر مجموع رقم 1928) وثلاث نسخ في خزانة
الرباط العامة : ك 35 - ك 2418 - ق 1013 في مجموع
غير مرقم .

*** فقه وأصول**

27 - بحث فيما يجب على المكلف من أصول الدين وفروعه

مخطوط بخزانة الرباط العامة ضمن مجموع رقمه ج 612
من ص 21 الى 27

**28 - تقييد شرح فيه قول خليل : « وخصت نية الحالف
وقيدت ... »**

توجد منه نسخ مخطوطة متعددة ، نذكر من بينها نسخة
المكتبة الملكية 6726 ونسختين بخزانة الرباط العامة رقمهما
ق 302 (ضمن مجموع من ص 294 الى 305) و 2223 د
(ضمن مجموع كذلك)

29 - قواعد الاسلام من مضمون حديث النبي عليه السلام

مخطوط في مجموع بالخزانة العامة ج 612 من الورقة
27 و الى 42 و.

30 - منظومة فقهية (ارجوزة) على نسق متن ابن عاشر

مخطوطة في مجموع بالخزانة العامة بالرباط 1164 د من

الورقة 124 و الى 131 ظ

31 - الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكي

تحدثت عنه كثير من المصادر التي ترجمت لليوسى وذكرت أنه وصل فيه الى (اذا الفجائية)

توجد نسخ منه في بعض المكتبات الخاصة كمكتبة الاستاذ حماد الصقلي التي رجعت اليها السيدة فاطمة خليل

* منطق

32 - شرح ام المنطق او مزامر المنطق للعزیز بن يوسف الفاسي

ذكره صاحب المنح البادية (انظر المصادر) وصاحب الكناشة التي في ملك الكاتب (مجهول ص 73) وذكره كذلك الازهري في اليواقيت الثمينة ص 133

33 - شرح السلم للاخضري

ذكره الاستاذ جنون في التبوع (ج 1 ص 303)

34 - شرح على الطالع المنتشر (لم يكمله)

ذكره صاحب المنح البادية (انظر المصادر) وصاحب
الكفاشة التي في ملك الكاتب (ص 73 مجهول) والصقلى في
تقديمه لكتاب القانون ص 1

35 - القول الفصل في الفرق بين الخاصة والفصل او الفرق ما بين الذاتى والعرضى

يوجد مخطوطا في :

أ - المكتبة الملكية 1314

ب - خزانة الرباط العامة 271 د - 2775 د - 2881 د -
1072 د (من 196 الى 223)

ج - مكتبة تمكروت - مجموع رقم 1928 (أوله)
وضع عليه عمر بن عبد الله الفاسى حاشية بعنوان

« احراز الفصل بتحرير مسائل القول الفصل » (انظر
عناية أولى المجد ص 64)

36 - النسبة الحكمية بين الطرفين الموضوع والمحمول

مخطوط بخزانة الرباط العامة 2143 د (من ص 193 الى 195) .

وتوجد منه نسخة في المكتبة السليمانية باسطنبول رقم 2649/2 .

37 - نفائس الدرر على شرح المختصر (للسنوسى)

توجد مخطوطة في المكتبات الآتية :

أ - خزانة الرباط العامة ك 1751 - 451 د - 2141 د -
2143 د (ضمن مجموع) - 2225 د - 2249 د -
2289 د - 623 د 1072 د (من ص 52 الى 195)

ب - مكتبة القرويين دون رقم

ج - خزانة تمكروت : آخر مجموع رقم 1929 - 2162 -
2221 - 2571

د - المكتبة السليمانية باسطنبول 2696

هـ - المكتبة الوطنية في الجزائر 2 و 1382

و - المكتبة الوطنية بباريز 2400 (من 104 الى 251)

II - رسائل اليوسي وفتاويه (2)

* دفاع عن النفس

38 - الرسالة الكبرى ، وتعرف باسم « جواب الكتاب » ، وفيها رد على المولى اسماعيل الذي كان كتب يعيب عليه موقف الهروب والانسواء .

توجد مخطوطة في :

أ - المكتبة الملكية بالرباط 2998 - 2850 (آخر مجموع غير مرقم) - 1558

ب - خزانة الرباط العامة ج 849 (من الورقة 1 الى 91)
1348 د - 2753 د - 3390 د

* سياسة

39 - رسالة في نازلة العرائش

تتعلق بالامان الذي أعطي لنصارى هذا الثغر عند فتحه

(2) جمعت السيدة فاطمة خليل رسائل اليوسي وانجزت باشرافي تحت هذا العنوان (رسالة جامعية) أحضرت بها على دبلوم الدراسات العليا من كلية آداب جامعة محمد بن عبد الله بفاس ، بعد المناقشة العلنية التي تمت يوم 18 أبريل 78 . وهي الآن قيد الطبع .

توجد مخطوطة في مجموع بائخزانه العامة ك 1234 (من
ص 188 الى 194)

40 - رسالة نذب الملوك للعدل

ناقش فيها مشكل الخلافة الاسلاميه وما آلت اليه توجد
مخطوطة في مجموع بخزانه الرباط العامة - 364 د (من
221 الى 228) .

41 - الرسالة الصغرى لاسماعيل ، وتعرف باسم « براءة اليوسى »

تعرض فيها لقضايا ثلاثة هي : الجباية والجهاد والعدل
وردت في الجيش لانتسوس (ص 78 - 82 ط. حجرية)
وفي الاستقصا (ج 7 ص 82 - 86 ط. الدار البيضاء)
كما وردت في نشر المثنى (الكبير) : مخطوط بخزانه
الرباط العامة ك 2253 (من الورقة 28 و الى 29 ط)
وتوجد مخطوطة في المكتبات الآتية :

أ - المكتبة الملكية 5356 - 7150 - 7154 - 9249 -
7704 (من ص 23 الى 27)

ب - خزانه الرباط 163 د - 1348 د (من 13 الى 36)
6111 د (من 1 الى 4)

**42 – رسالة جوابية الى المولى إسماعيل حين حصاره للعرائش
أواخر الحجة متمم المائة بعد الالف**

توجد مخطوطة في نسخة بمكتبة المرحوم العابد الفاسي
وأخرى عند السيد فاطمة خليل

*** فقه**

43 – رسالة (فتوى) في قضاء الصلوات المنسية

مخطوطة بالخزانة العامة ق 302 (من ص 247 الى 248)

44 – رسالة (فتوى) حول اخراج الزكاة في البادية

نفس المخطوطة (ص 277 – 278)

45 – رسالة (فتوى) حول اقامة الجمعة في تامسنا

نفس المخطوطة (ص 253 – 254)

46 – رسالة (فتوى) حول اقامة الجمعة في حصن فشتالة

نفس المخطوطة (من ص 250 الى 253)

47 - رسالة (فتوى) حول اقامة الجمعة في المحشر

نفس المخطوطة (من ص 326 الى 328)

48 - رسالة (فتوى) اجاب فيها على استفسار طرحه المولى اسماعيل في موضوع نشر الحرمة بين الامة وابنتها

نفس المخطوطة (من ص 211 الى 215) . وتوجد كذلك في المنزاع اللطيف (مخطوط الخزانة العامة) ج 595 (من ص 84 الى 87) وفي نوازل الشريف على بن عيسى العلمي الحسنى (مخطوط الخزانة العامة) ك 832 (من ص 13 الى 17) وفي مجموع للسيدة خليل (من ص 161 الى 165)

49 - رسالة (فتوى) اجاب فيها على استفسار المولى اسماعيل في موضوع الامة التي اعطيت بدون شراء

توجد في المنزاع اللطيف (مخطوط الخزانة العامة) ج 595 (ص 88 - 89)

50 - رسالة الى محمد الصالح بن المعطى حول الحلف والاستبراء

مخطوطة الخزانة العامة ق 302 (ص 276 - 277)

**51 - رسالة (فتوى) أجاب فيها على استفسار من مكناس يتعلق
بحكم الذكر في المسجد**

مخطوطة الخزانة العامة ق 302 (من ص 278 الى 286)
ومخطوطة للسيدة خليل (من ص 10 الى 14)

**52 - رسالة أجاب فيها على نقل أحباس مسجد قديم الى آخر
جديد**

كما أجاب فيها على خلق الخيل وعلى ملوك الدنيا

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 209 الى 211)

**53 - رسالة الى السيد المرجاني بن المواق في شروط الرجل
المعدل**

مخطوطة الخزانة الرباط ق 302 (من ص 270 الى 272)

54 - رسالة (فتوى) في صلاحية الرجل الفاجر

نفس المخطوطة (ص 255 - 256)

**55 - رسالة رد فيها على استفسار للمولى اسماعيل حول المغمم
الذي اعطى الخليفة عثمان لمروان بن الحكم في افريقيا**

مخطوطة خزانة الرباط ج 595 (ص 87 - 88)

56 - رسالة حول الدعاء والتصلية والأذان وغيره .

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (ص 273 - 274)

57 - رسالة حول الذكر بعد الصلاة

نفس المخطوطة (ص 340 - 341)

58 - رسالة (فتوى) في عادة وصل الشعر

مجموع السيدة خليل ص 155

*** توحيد**

59 - رسالة ناقش فيها قضية وجوب الشهادتين في الاسلام

(تناول فيها كذلك موضوعا فقها يتعلق بصرف الزكاة
للعلماء)

مخطوطة بخزانة الرباط ق 302 (من ص 330 الى 332)
- 1241 د (من الورقة 8 و الى 9 ظ)

60 - رسالة المقيدة الصغرى

شرح فيها العقائد العامة وناقش قضية قدم القرآن
وحدثته .

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 287 الى 294)

61 – رسالة في مسألة علم النبي عليه السلام

عقب فيها على « ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب »
لعبد الملك التجموعتي (وهو وارد في مخطوطتي خزانة
الرباط العامة ح 115 ص 348 – ك 1284 ص 2 – 5)
توجد الرسالة مخطوطة في خزانة الرباط ح 115 ص 362

**62 – رسالة أجاب فيها بعض الفاسيين حول استحالة عروض
الكنز للانبيا.**

مخطوطة بخزانة الرباط العامة ق 302 (من ص 236 الى
244)

63 – رسالة أجاب فيها على ماهية ذات الله

نفس المخطوطة (من ص 234 الى 236)

**64 – رسالة جوابية على سؤال يتعلق بذات الله هل هي حسية
أو معنوية**

نفس المخطوطة (من ص 119 الى 202)

65 – رسالة في ابطال مبدأ التسلسل لابي العباس احمد بن ابراهيم العطار

نفس المخطوطة (من ص 313 الى 324)

وكذلك مخطوطة خزانة الرباط 1755 د (من ص 286 الى 293) .

66 – رسالة في قضايا عقبية

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 232 الى 234)

67 – رسالة في تقرير « اللمعة الخطيرة والنبذة اليسيرة في مسألة خلق افعال العباد الشهيرة » لمحمد المهدي ابن احمد الفاسي

مخطوطة خزانة الرباط ك 1234 (ص 100 – 101)

68 – رسالة حول ماهية الازمنة وتعاطي الاسباب

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 245 الى 247)

*** تصـوف**

69 – رسالة تتعلق بالهيئة والذكر

مخطوطة خزانة الرباط العامة 1241 د الورقة 9 ظ

70 – رسالة حول زيارة الشيخ محمد بن ناصر

وردت في « طلة المشتري » للناصرى ج 1 ص 273
(ط. حجرية)

**71 – رسالة تضمنت نصائح الى ابي العباس احمد بن مسعود
البوعمرى (معها قصيدة سينية)**

مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 7704 (ص 14 – 15)

**72 – رسالة الى احمد الشيطمى وسيدى مسعود (فى آداب
السلوك)**

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 256 الى 259)

73 – رسالة فى التوبة والاستغفار وحسن الظن بالله

نفس المخطوطة (ص 286 – 287)

74 – رسالة في السلوك الصوفى

نفس المخطوطة (من ص 216 الى 219)

75 – رسالة تتعلق بمراحل وصول المريد

نفس المخطوطة (من ص 225 الى 228)

76 – رسالة تربوية في سلوك الطريق

نفس المخطوطة (من ص 204 الى 207)

77 – رسالة في استخلاف الشيخ بعد موته

نفس المخطوطة (ص 207 – 208)

78 – رسالة تتعلق بدور الشيخ في تربية المريد

نفس المخطوطة (من ص 222 الى 224)

**79 – رسالة الى محمد الصالح بن المعطى اجابه فيها على
مجاهدة النفس**

توجد في فهرست العميري (مخطوطة بخزانة الرباط
ك 1361 من ص 198 الى 200) وفي كناشة محمد بن علي
الدكالي (مخطوطة خزانة الرباط ج 91 من ص 207 الى
209)

80 - الرسالة الى قبيلة المزامز (نصيحة سلوكية)

مخطوطة خزانة الرباط ج 612 الورقة 15

81 - الدلالة الوافية في الرسالة الاسفية ، وهي نصيحة سلوكية لاهل آسفى

مخطوطة في المكتبة الملكية (7704 من الورقة 4 ظ
الى 6 و) وفي خزانة الرباط ج 612 (من الورقة 50 الى
58) - ق 302 (من ص 333 الى 338)

82 - رسالة في التربية الصوفية ، هي عبارة عن جواب رد فيه على أسئلة تتصل بالسلوك الصوفي

مخطوطة خزانة الرباط ج 612 (من الورقة 49 ظ الى 52و)

83 - الرسالة الى اهل بلد كارت ، ضمنها نصائح سلوكية للفقراء

مخطوطة خزانة الرباط 612 (من الورقة 42 ظ الى 45 و)
ق 302 (من ص 341 الى 347)

84 - الرسالة الى المقدمين ، موجهة الى الحاج على وابى
القاسم بن معمر ، وتتعلق بالزاوية والشيخ

مخطوطة في خزانة الرباط العامة ق 302 (من ص 259
الى 270) - ق 950 (من ص 262 الى 267) - ج 612
(من الورقة 52 الى 56) - ك 1138 (من ص 32 الى
39) - 2010 د (من ص 41 الى 51) ، وكذلك في خزانة
تمكروت 1902 (مجموع)

85 - الوصية :

وجهها الى أبنائه وجميع اخوانه يعرفهم فيها بالسلوك
الحق وينبهم الى بعض الانحرافات التي وقع فيها بعض
أبناء المتصوفة . وفيها يوصى بتحبس كتبه على أولاده .
توجد مخطوطة في :

أ - المكتبة الملكية رقم 1577

ب - خزانة الرباط العامة ق 950 (من ص 248 الى 262)

ج 612 (من الورقة 57 الى 64)
ج - مكتبة تطوان العامة في أول المجموع 485 م

86 - النصيحة الفياثية

تناول فيها حقيقة التصوف السني ونقد مظاهر الشعوذة والانحراف المنتشرة .
مخطوطة بالمكتبة الملكية 8936 وخزانة الرباط العامة
1816 د (من 432 الى 475) - ج 612 (من الورقة 1
الى 15) - ك 1138 (من ص 1 الى 30) - ق 302 (من
ص 349 الى 368 مبتورة) .

87 - رسالة حول الانكار وتلاوة القرآن

مخطوطة خزانة الرباط 1241 د الورقة 9 ظ . .

✻ تفسير

88 - رسالة حول التفاسير وتفسير ابن عطية

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 371 الى 373)

89 - رسالة في حكم تفسير القرآن لمن لا يتقن علوم الآلة

وتتضمن كذلك حكم السماع واستعمال الآلات
نفس المخطوطة (من ص 191 الى 197) وكذلك مخطوطة
خزانة الرباط ج 612 (من الورقة 46 و الى 49 ظ)

*** نحو وبلاغة**

90 – رسالة جوابية تتضمن اعراب لو (نظما)

كما تتضمن ماهية الضوء والظل
مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (ص 220 – 221)

91 – رسالة تتضمن أجوبة حول

- أ – شخصية علمية أسماء القبائل
- ب – علاقة الاسم بالمسمى زيادة ونقصانا
- ج – اضافة الاسم الى اللقب وقضية التعريف والتتكير
مخطوطة السيدة خليل (من ص 157 الى 159)

92 – رسالة أجاب فيها على سؤال يتعلق بقول البوصيري :

الا استلمت الندى من خير مستلم

هل هو بفتح اللام أم كسر ها ؟
مخطوطة خزانة الرباط 302 (ص 219 – 220)
ومخطوطة السيدة خليل ص 165

**93 - رسالة رد فيها على استفسار حول قول الأئمة والعلماء
بان المراد لا يدفع الايراد**

توجد مخطوطة في خزانة الرباط ق 302 (من ص 228 الى
232) - ك 910 (من ص 247 الى 250) - 1755 د
(من ص 262 الى 264)
وتوجد كذلك في هداية الملك العلامة للهشتوكي (مخطوطة
خزانة الرباط ق 190 من ص 80 الى 86)

*** ا د ب**

94 - رسالة رد فيها على استفسار حول بيت أبي نواس :

مالى اليك وسلية الا الرجا وجميل ظنى ثم انى مسلم
وبيت البوصيري :

شاكى السلاح لهم سيما تميزهم
والورد يمتاز بالسيما من السلم

مخطوطة خزانة الرباط ق 302 (من ص 197 الى 199)

*** الرد على أهل البدع**

95 - رسالة في طائفة المعاكزة

وردت في مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ك 1224 (من

ص 167 الى 187) ، وورحت كذلك في هداية الملك العلام
(مخطوطة خزانة الرباط ق 190 ص 84)

96 - رسالة الى الفقيهين العربي وعبد السلام القادريين
والفقيه المهدي الفاسي أجابهم حول بدعة ابراهيم
الكوراني

وردت في نشر المثاني (الكبير) مخطوط خزانة الرباط
ك 2253 ج 2 ورقة 23 و

*** عوائد**

97 - رسالة تتعلق ببعض العوائد

مخطوطة خزانة الرباط العامة ق 302 (ص 332 - 333)

*** قضية تبرئة صحابيين من النفاق**

98 - رسالة رد فيها على عبد الملك التجموعتي في قضية تبرئة
الصحابيين سعد بن عبادة وحاطب بن ابي بلتعة من
النفاق

وردت في هداية الملك العلام للشهيد (مخطوطة خزانة
الرباط ق 190 ص 75 - 76)

* تعزية :

99 - رسالة الى عبد الرحمن الفاسى وأخيه محمد يعزيهما في
والدهما عبد القادر

وردت في نشر المثنى (الكبير) مخطوط خزانة الرباط
ك 2253 ج 2 الورقة 6 ظ

* * *

ثانياً: مصادر ترجمة اليوسى

رتبتها على أسماء المؤلفين وفق حروف المعجم

ابراهيم الالفى

- 1 - تاريخ الادب العربى للمدارس الثانوية
ج 2 (فى الادب المغربى والاندىسى) ص 96 - 97
المطبعة المهدية - تطوان 1375 - 1955

أبو العباس بن يعقوب الواللى

- 2 - مباحث الانوار فى أخبار بعض الاخيار
مخطوط خزانة الرباط العامة ق 342 ص 35

أبو القاسم بن سعيد العميرى

- 3 - فهرست
مخطوطة المكتبة العباسية 3140 ص 29 - 104

أبو القاسم الزياني

- 4 - البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف
مخطوط خزانة الرباط العامة 1577 د ص 40
- 5 - تحفة الاعلام
مخطوط خزانة الرباط العامة ك 224 ص 162
- 6 - الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا
ص 55 - 61 - 100
- ت. عبد الكريم الفيلاي - نشر وزارة الانباء
مطبعة فضالة - غشت 1967

أبو المحاسن (علال الفاسي)

- 7 - أبو علي اليوسي
مجلة المغرب الجديد
السنة الاولى 1935 أعداد 4 - 5 - 7

أحمد بن خالد الناصري

- 8 - الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى
ج 7 ص 108 ط دار الكتاب - الدار البيضاء 1956

9 - طلعة المشتري في النسب الجعفري
ص 196 - 273 حجرية

أحمد بن عاشر الحافى

10 - فهرست

ضمن مجموع مخطوط بخزانة الرباط العامة ك
1421

(من ص 251 الى 308) ص 257

أحمد بن عبد القادر التستاوتى (جمع تلميذه الحافى)

11 - تحفة الناظر وبهجة خاطر الغض الناظر

مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 1669

ص 73 - 122 الى 132 - 324 الى 344 - 365

أحمد بن عبد القادر القادري

12 - نسمة الآس في حجة سيدنا أبى العباس (رحلة)

مخطوطة خزانة الرباط العامة ك 1418 الورقية

148 ظ 149 و

أحمد بن عبد الوهاب الفساني الشهير بالوزير

13 - التعريف بالشيخ عبد السلام بن الطيب القادري
مضمن في نشر المثنى (الكبير) لدا ترجمة القادري
ك 2253 ج 2 من الورقة 39 ظ الى 41 و (ذكر
اليوسى في 40 و) وكان قد نبه الى هذا التضمنين
الاستاذ محمد المنونى في مقال له بعنوان « المصادر
الدقيقة في تاريخ المغرب » منشور في مجلة البحث
العلمى ع 10 س 4 ص 16

أحمد بن محمد بن عجيبة

14 - أزهار البستان في طبقات الاعيان
مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط 3347
ج 1 ص 277 الى 283

أحمد زياد

15 - لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب
(نقل ما كتبه أبو المحاسن في مجلة المغرب الجديد
متعلقا بمؤلفات اليوسى ، وقد سبق ذكر هذا
المصدر)

ص 33 ط دار الكتاب - الدار البيضاء 1973

أحمد النميشي

16 - تاريخ الشعر والشعراء بفاس (مسامرة)
ص 31 ط فاس - شعبان 1343

أحمد بن محمد الهشتوكي

17 - قرى العجلان على اجازة الاحبة والاخوان
نقل عنه الكتاني في « فهرس الفهارس » حيث ذكر
(ج 2 ص 465) أن الهشتوكي في « قرى العجلان »
فصل أخذ اليوسى عن علماء الاقاليم التي جال فيها
وان لم يذكر ذلك هو في فهرسته . كما ذكر في ترجمة
الهشتوكي (فهرس الفهارس ج 2 ص 423) أن
له فهرسا سماه « قرى العجلان على اجازة الاحبة
والاخوان » في نحو كراسين ، وصرح أنه وقعت له
منه نسخة بخط الحضيكي في كتاشته . وقد كنت
أمل الوقوف على هذا الفهرس في مكتبة الكتاني
المضمومة الى خزانة الرباط العامة ، ولكنى لم أعر
له على أثر ، ولعله ضاع فيما ضاع من هذه المكتبة.

18 - هداية الملك العلام الى بيت الله الحرام والوقوف
بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام

مخطوطة خزانة الرباط العامة ق190 ص 52 وأماكن
أخرى أورد فيها بعض رسائله (ينظر القسم الخاص
برسائل اليوسى وفتاويه من هذه السيرة
الببليوغرافية)

اسماعيل باشا البغدادي

19 - ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن
أسماء الكتب والفنون .

ج 1 ص 275 - 448 ، ج 2 ص 220 - 250
ط الثالثة 1378 (المطبعة الاسلامية - طهران)

20 - هدية العارفين

م 1 ص 296

ط. الثالثة 1387 (المطبعة الاسلامية - طهران)

R. BASSET

باسى

21 - Recherches Bibliographiques sur les Sources de la Salwat el - anfàs
(actes du XIV^e Congrès des Orientalistes n° 106 p. 46 Alger 1905)

L. PROVENÇAL

بروفنسال

Les Historiens des Chorfa p. 269 Paris 1922 .

— 22

C. BROCKELMANN

بروكلمان

G. AR. Litt 92 pp. 675 - 676 Leiden 1938

— 23

J. BERQUE

بيرك

AL - Youssi : Problèmes de la culture Marocaine au XVII^e : — 24
Paris Mouton et co la haye 1958

H. PERES

بيريس

Répertoire alphabétique des auteurs publiés à Fès — 25
" Bulletin des Etudes Arabes n° 32 1947 pp. 62-70 "

جورجى زيدان

26 — تاريخ آداب اللغة العربية
ج 3 ص 306 ط. شوقي ضيف (دار الهلال)

حسن جلاب

27 — أبو عبد الله محمد المرابط الدلائلى

(ورد ذكر اليوسى فى أماكن متفرقة)
رسالة جامعية حصل بها صاحبها تحت اشرافى على
دبلوم الدراسات العليا من كلية آداب جامعة محمد
الخامس بالرباط بعد أن نوقشت يوم 25 فبراير
1978 (لم تنشر بعد)

حسن الوراكي

28 - زهر الاكم فى الامثال والحكم
مجلة دعوة الحق ع 3 دسمبر 1963 (وزارة الاوقاف
- المغرب)

خير الدين الزركلى

29 - الاعلام
ج 2 ص 237 ط: الثالثة

ROSEN

روذن

30 - Collections Scientifiques de l'Institut des langues Orientales de
St. Pétersbourg I p.:86 - 87

سليمان الحوات

31 – البدور الضاوية في التعريف بالسيادات أهل الزاوية
الدلائلية

مخطوط خزانة الرباط العامة 261 د ص 224

32 – السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من
أعقاب الشيخ عبد القادر

(نقل عن تأليف والده محمد بن عبد اله الحوات
المسمى : « تحفة المعاصر في بعض صالحى تلامذة
أبى عبد الله محمد بن ناصر ») ط. حجرية

سليمان العلوي – السلطان (ينسب له)

33 – عناية أولى المجد بذكر آل الفاسى ابن الجذ
ص 40 – 64 المطبعة الجديدة – فاس 1347

عباس بن ابراهيم

34 – اظهر الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال
مخطوط المكتبة الملكية 232 ص 226 – 227

35 – الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام
(نقل فيه عن : « افادة النبيه من ادعى الاجتهاد أو
ادعى فيه »)

ص 154 - 163 ج 3 المطبعة الملكية - الرباط
1975

عبد الحى الكنانى

36 - رسالة اليواقيت الثمينة فى الاحاديث القاضية بظهور
سكة الحديد ووصولها الى المدينة

ص 22 - 27 مطبعة جوردان بالجزائر 1329 هـ

37 - فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم
والمشيخات والمسلسلات

ج 2 ص 464 و 165
المطبعة الجديدة - فاس 1347

عبد الرحمن بن زيدان

38 - اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس

ج 3 ص 32 - 42 - 49
الطبعة الاولى - الرباط 1349 - 1931

39 - الدرر الفاخرة بآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة

ص 12 - 15 - 36 - 120
المطبعة الاقتصادية - الرباط 1356 - 1937

40 - المنزع اللطيف فى التلميح لمفاخر مولانا اسماعيل
ابن الشريف

مخطوط خزانة الرباط العامة ج 595 ص 308
وأماكن أخرى وردت فيها بعض فتاويه (انظر
القسم الخاص برسائل اليوسى وفتاويه من هذه
السيرة الببليوغرافية)

عبد الرحمن الجبرتى

41 - التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والاخبار
ج 1 ص 68 ط. مصر 1297

عبد السلام بن سودة

42 - دليل مؤرخ المغرب الاقصى
ينظر فيه بعض انتاج اليوسى (الفهرس ج 2 ص
596) ط. دار الكتاب - الدار البيضاء

عبد العزيز بن عبد الله

43 - الفكر الصوفى والانتحالية بالمغرب (الحلقة الثالثة)
مجلة البيئة س 1 ع 7 ص 63 عام 1962 (المغرب)

عبد القادر الصحراوي

44 - على هامش رسائل الحسن اليوسى الى مولاي اسماعيل

مجلة دعوة الحق ع 4 س 12 ذو الحجة 1388
مارس 1969

**عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري الحسني المدعو عليـوات
الزجني**

45 - سراج الغيوب في أعمال القلوب
مخطوط خزانة الرباط ك 455 السفر الاول -
المقدمة ص 1 - 2

عبد الكبير المدغري

46 - الققيه اليوسي أبو علي الحسن بن مشعود
رسالة جامعية قدمها صاحبها لنيل دبلوم الدراسات
العليا من دار الحديث الحسنية عام 1976 (لم أطلع
عليهما)

عبد الكريم الفيلالي

47 - التاريخ المفترى عليه في المغرب
ورد ذكر اليوسي في أماكن متفرقة (انظر ص 213)
مطبعة الصومعة - الرباط - جنبر 1969

عبد الله الجراري

- 48 - رحلتى الصيفية
ص 54 - مخطوطة المؤلف
49 - هذه مذكراتى
المجلد الثانى ص 141 (نسخة مرقونة خاصة)

عبد الله جنون

- 50 - خل ويقل
ص 273 الى 277 المطبعة المهدية - تطوان
51 - النبوغ المغربى فى الادب العربى
ج 1 ص 285 ط. دار الكتاب اللبنانى - بيروت

د. عبد الله العمرانى

- 52 - مولاي اسماعيل بن الشريف (حياته السياسية -
مآثره)
ص 127 - 128 الطبعة الاولى - تطوان 1398 -
1978

عبد الملك التجموعتى

- 53 - خلع الاطمار البوسية عن الاسطار اليوسية

يرد فيه على تعقيب اليوسى على اجابته احمد الحلبى
فى مسألة العلم النبوي
مخطوط خزانة الرباط العامة ح 115 من ص 373
الى 445 مع طرر وتعاليق لمحمد الحجوي

د. عبد الهادي التازي

54 - جامع القرويين

م 3 ص 795

الطبعة الاولى 1972 - دار الكتاب اللبناني - بيروت

عزيز سلام

55 - ثلاثة قرون وعشر سنوات من تاريخ الدولة العلوية
ص 27 - 29 وزارة الانباء - مطبعة فضالة

على بن محمد بن على العكاري

56 - مناقب الشيخ على العكاري

أورد اجازة اليوسى له

مخطوط خزانة الرباط العامة 88 د ص 2 - 38

عمر رضا كحالة

57 - معجم المؤلفين

أشار الى فهارس عدد من الخزائن والمكتبات تضم
بعض كتب اليوسى كالخديوية والتيمورية والازهرية
ودار الكتب المصرية والظاهرية بدمشق
ج 3 ص 294 نشر مكتبة المثنى بيروت ودار احياء
التراث العربى بيروت .

فاطمة خليل

58 - رسائل أبى على الحسن بن مسعود اليوسى

رسالة جامعية حصلت بها صاحبتها تحت اشرافى
على دبلوم الدراسات العليا من كلية آداب جامعة
محمد بن عبد الله بفاس بعد أن ناقشتها في 8 أبريل
1978 .

قييد الطبع

CH. DE FOUCAULD

فوكو

Reconnaissance au Maroc p. 38 Paris 1888

— 59

لجنة الاحتفال بموسم اليوسى

- 60 - نشرة عن اليوسى
انظر الملحق الاسبوعى لجريدة العلم المعداد 459
السبت 11 ذي القعدة 1398 موافق 14 أكتوبر 1978

مجهول

- 61 - اجازة لابی على الحسن بن مسعود اليوسى
موجود ضمن مجموعة بالزاوية الحمزاوية
ذكرها الاستاذ المنونى فى المقال الذى عرف فيه بما
فى هذه الزاوية ، مشيرا الى أنه لم يذكر اسم المجيز
الذى هو من الآخذين عن تلاميذ القصار والمنجور
مجلة تطوان ع 8 س 1963 ص 160

مجهول

- 62 - كناشسة
نقل صاحبها ترجمة اليوسى عن « المنح البادية »
ص 73 - مخطوطة خاصة للكاتب

د. محمد الاخضر

- 63 - الحياة الادبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية

ص 122 ط. دار الرشاد - الدار البيضاء ط. الاولى
1977

محمد أكنسوس

64 - الجيش العرمرم
ص 60 - 78 ط. حجرية

محمد الامري

65 - أبو علي الحسن اليوسى
الملحق الاسبوعى لجريدة العلم العدد 459 السبت
11 ذي القعدة 1398 موافق 14 أكتوبر 1978

محمد البشير ظافر الازهرى

66 - كتاب اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة
ص 133 - 134 ط. الملاجىء العباسية 1324

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسى

67 - المورد الهنى بأخبار مولاي عبد السلام بن الطيب
القادري الحسنى
مخطوط خزانة الرباط العامة ك 1234 ص 231

محمد بن أحمد الحضيكي

68 - مناقب

ج 1 ص 195 الطبعة الاولى - المطبعة العربية
الدار البيضاء 1355

محمد بن أحمد الشانلي (ثم اكلمه محمد البكري)

69 - شرح القصيدة الرائية في رثاء الزاوية الدلائية
مخطوط بخزانة الرباط العامة ك 248 (المقدمة
ص 1 - 2)

محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي

70 - الادب المغربي

ص 337 ط. دار الكتاب اللبناني ط. الاولى 1960

محمد بن جعفر الكناني

71 - سلوة الانفس

ج 3 ص 81 ط. حجرية

محمد بن الحسن الحجوي

72 - الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي
الربع الرابع ص 117 مطبعة النهضة - تونس

محمد بن زاكور

73 - الروض الارض في بديع التوشيح ومفتقى القريض
(ديوان)

مخطوط بخزانة الرباط ك 357 ص 7 - 38 - 92
- 115 - 224 - 226 - 273

74 - نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان
ص 88 - للمطبعة الملكية - للرباط 1387 - 1967

M. BEN CHENEB-L. PROVEN-
ÇAL

محمد بن شنب وبروفنسال

75 - Essai de Répertoire Chronologique des Editions de Fès
Revue Africaine 1922 N° 81 - 142 - 293

محمد بن الطيب القاري

76 - التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار
أعيان المائة الثانية والحادي عشر

- مخطوط خزانة الرباط 676 د ص 64
- 77 - حوليات نشر المثنائى
ت. د. نورمان سيكار
نشر المعهد الجامعى للبحث العلمى بالمغرب 1978
- 78 - نشر المثنائى
ج 2 ص 142 ط. حجرية
- 79 - نشر المثنائى (الكبير)
ج 2 ابتداء من الورقة 26 ظ .
مخطوط خزانة الرباط ك 2253

محمد بن عبد الرحمن الفاسى (المعروف بالصغير)

- 80 - المنح البادية فى الاسانيد العالية والمسلسلات
الزاهية
مخطوطة بالمكتبة الملكية 1227 (الزيدانية) غير
مرقمة ، وكذلك 5165 غير مرقمة أيضا .
وفى خزانة الرباط العامة توجد نسخة مبتورة
رقمها ك 1249

محمد بن عبد القادر الكلالى الحسنى المعروف بالكربودى

- 81 - الدر المنضد الفاخر فيما لابناء مولانا على الشريف
من المحاسن والمفاخر

مخطوط خزانة الرباط 1584 د الورقة 216 ظ الى
218 و

محمد بن عبد الكريم العبدونى

82 – يتيمة العقود الوسطى فى مناقب الشيخ سيدي
المعطى
مخطوطة بخزانة الرباط ك 305 ص 188

محمد بن على الحسنى الزيادى

83 – دوحة البستان ونزهة الاخوان فى مناقب سيدي على
ابن عبد الرحمن
مخطوطة بخزانة الرباط 390 د ص 113 – 207

محمد بن على الدكالى السلوى

84 – كئاشة
مخطوطة بخزانة الرباط ج 91 ص 45 – 46 –
95 – 112 – 186 – 187 – 207 – 209

محمد بن على دينية

85 – واسطة العقد النضيد فى شرح حديث التجديد
ص 30 ط. الاولى – الرباط 1347

محمد بن الفقيه أبو بكر اليازغى

86 – حدائق الازاهر الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية
(منظومة)

وردت في أول « البدور الضاوية » (مخطوطة خزانة
الرباط 261 د)

محمد بن محمد مخلوف

87 – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية
ص 328 ط. دار الكتاب العربى ببلنار (مأخوذة عن
الطبعة الاولى 1349)

محمد بن موسى بن محمد الناصري الدرعى

88 – الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة أو كشف الروعة في
التعريف بصلحاء درعة
مخطوطة بخزانة الرباط العامة ك 265 ص ص 35
– 53

محمد بن الموقت المراكشى

89 – السعادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة
المراكشية

ج 1 ص 136 ط. هجرية لدا ترجمة شيخه محمد
المزوار)

محمد بوجندار

90 – الاغتيال بتراجم أعلام الرباط

مخطوط خزانة الرباط العامة 1287 د ص 14
(لدا ترجمة أحمد بن يحيى والزهرى وذكر اجازة
العكاري له)

محمد الحبيب بن عبد القادر الحسنى السجلماسى

91 – شرح منظومة الهلالى فى الاسماء الحسنى

تعرض فيه للخلاف بين اليوسى والتجموعتى فى
قضية العلم النبوي، وعنه نقل عبد الحى الكتانى فى
« رسالة اليواقيت الثمينة » ما أورد فى الموضوع .
(لم أقف على هذا الشرح)

د. محمد حجي

92 – المحاضرات لليوسى

تقديم الطبعة الجديدة ص 4

مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر

(سلسلة الادب 1) - الرباط 1396 - 1976

93 - الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين
ج 2 ص 503 وأماكن أخرى (انظر ص 706)
منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة
والنشر (سلسلة التاريخ 2) 1396 - 1976

94 - الزاوية الدلائية

ص 97 الى 108

المطبعة الوطنية - الرباط 1384 - 1964

محمد داوود

95 - تاريخ تطوان

م 1 ق 3 ص 411

ط. تطوان 1379 - 1959

محمد السايح

96 - المنتخبات العبقريّة

ص 52 - المطبعة الرسمية - الرباط 1920

محمد الصغير اليفرنى

97 - روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف
ص 15 - 33 - 38 المطبعة الملكية - الرباط
1382 - 1962

98 - كتاب صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن
الحادي عشر
ص 206 ط. حجرية

99 - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي
ص 284 نشر هوداس - الطبعة الثانية - مكتبة
الطالب - الرباط

محمد الصغير الرباطى

100 - تاريخ الدولة السعيدة
مخطوط خزانة الرباط العامة 758 د ابتداء من
الورقة 23 و

محمد الطالب بن الحاج

101 - رياض الورد الى ما انتهى اليه هذا الجواهر الفرد
مخطوط خزانة الرباط 111 د ص 21

محمد العربي بن داوود

102 – الفتح الوهبي في مناقب الشيخ أبي المواهب مولانا
العربي

مخطوط خزانة الرباط ك 2312 ص 507

Med. EL FASSI

محمد الفاسي

La littérature Marocaine (MAROC) - 103
L'encyclopédie coloniale et maritime p. 534 A
Paris éd. de l'Empire Française 1948

– 103

محمد الفاطمي الصقلي

104 – القانون لليوسى

تعريف بمؤلفه في أول الكتاب ص 1 وانظر كذلك
آخره

محمد المختار السوسى

105 – ايلينغ قديما وحديثا

ص 69 – المطبعة الملكية – الرباط 1386 – 1966

106 - سوس العالمية

ص 38 - 67 مطبعة فضالة - المحمدية 1380 -
1960

107 - المعسول

ج 5 ص 21 - 22 مطبعة النجاح - الدار البيضاء
1380 - 1961

محمد المنتصر الريسوني

108 - شخصيات من بلادي : العالم الشاعر

جريدة الحسنى الاسبوعية
العدد 40 الى 48 السنة الاولى 1962 - 1382

محمد المنوني

109 - ركب الحاج المغربي

ص 33 - 51 ط. معهد مولاي الحسن - تطوان
1953

يوسف سرقيس

110 - معجم المطبوعات العربية والمعرية

ج 2 ص 1959 - ط. لبنان 1928

* * *



تجدر الإشارة في ختام هذه السيرة الببليوغرافية الى وجود خط اليوسى ، متمثلاً في تمليك كتبه على « شفاء السائل » لابن حلدون (مخطوط المكتبة الملكية رقم 3396 ص 1) ، هذه عبارته : « لعبيد الله تعالى الحسن بن مسعود اليوسى كان الله له »

وبأسفله كتب ولده بخطه : « ثم صار الى أحوج العباد الى الله تعالى عبد الكريم بن الحسن اليوسى كان الله له آمين عام ستة وعشرين ومائة وألف » .

عباس الجراري

الرباط

لم نتمكن في هذا العدد من إدراج البحث الذي كتبه الدكتور عباس الجراري بعنوان :

« اليوسى رائد عصره ومجده »

وسننشره في عدد مقبل من المجلد .

الحسين البوسني من خلال "المحاضرات" جوانب من شخصيته وتفكيره وسلوكه

محمد العزني الخطابي

« اللهم اجعله عينا يستقى منها أهل المشرق والمغرب »

يخبرنا الامام أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي في كتابه (المحاضرات) أن شيخه واستاذه أبا عبد الله محمد بن ناصر الدرعي كان يدعو له بهذا الدعاء كلما دخل مقاما أو مزارا في سفرته الثانية الى الحج .

والغريب أن هذه العين الثرة المباركة كانت بمثابة رمز لازم اليوسي منذ أن كان جنينا في بطن أمه الى أن صار عالما أديبا مدرسا يستقى منه الطلاب والمريدون والمعجبون .

فهذا اليوسي نفسه يخبرنا أن أباه - « وكان رجلا أميا . . متدينا مخالطا لأهل الخير محبا

للمصالحين . . . وكان قد أعطى الرؤيا للمصادقة وأعطي عبارتهما
فيمر الرؤيا ويعبرها لنفسه فتجىء كفلق الصبح » (*) كان قد
رأى في مقامه عيني ماء اهداهما له والاخرى لعلى بن عثمان
والد « الاديب البارع » أبى سعيد عثمان بن على ، ابن عم
اليوسى « غير أن عين على كنا نسقى بها في بلادنا وعيني خرجت
الى ناحية أخرى . . . وكانت العين التى هى لى أقوى ماء وأكثر
فيضا » وقد عبر والد اليوسى هذه الرؤيا بمولودين ينتفع
بهما « فولد أبو سعيد المذكور . . . وولدت أنا أيضا ، وقد كان
لى اخوان أسن منى فملتا أميين رحمهما الله . . . فأرجو أن أكون
تلك العين ، وقد اتفق خروجى عن البلد كما قال رحمه الله » .

وقد تنبه اليوسى الى التوافق بين رؤيا والده ودعوة الشيخ
ابن ناصر له فاعتبر هذه المواظاة « من عجيب الاتفاق » .

ولا شك أن هذا الذي يخبرنا به اليوسى عن والده وعن
شيخه أبى عبد الله محمد بن ناصر يكشف لنا عن جانب من
شخصيته وتفكيره وتربيته الروحية كما يسلط بعض الاضواء
على المجتمع الذي عاش فيه من حيث المعتقدات والسلوك .

وقد رأيت من الفائدة أن أبدأ بابرار هذا الجانب المميز من
شخصية اليوسى كما يكشفه لنا كتاب (المحاضرات) الذي
يمكن اعتباره مصدرا هاما لا يستغنى عنه كل من يقدم على
دراسة حياة اليوسى وآرائه فى الدين والادب والسياسة

(*) كل الاستشهادات الموضوعة بين علامة التنصيص ولم نشر
لمصدرها فهى من كتاب « المحاضرات » لليوسى .

والمجتمع . ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن (المحاضرات) ترجمة ذاتية للمؤلف بالمعنى المصطلح عليه بل انه في المقام الاول أحاديث لا تكاد تجمع بينها وحدة في الموضوع ولا يميزها منهج خاص في العرض والتقرير والشرح ، انه كتاب يتناول فيه المؤلف ، بطريقة المحدث المحاضر ، أشقانا من أمور الدين والتصوف واللغة والادب وأحوال المجتمع مستشهدا بالقرآن والحديث وأقوال الأئمة وأفعالهم وسلوكهم وبكلام العرب شعرا ونثرا ، الا أنه يدلى فيه بآرائه ويستشهد بنقف من شعره ويتعرض لكثير من تجاربه ومشاهداته في ترحاله وطمعه بما في ذلك التجارب المتعلقة بالطب والتداوي والاطعمة . وهو يذكر أسماء الأماكن التي زارها في المغرب وخارجه مع بيان التواريخ في بعض الأحيان ، فهو يخبرنا ، مثلا ، أنه ورد على أستاذة وقدوته محمد بن ناصر الدرعي « في أعوام الستين والالف بقصد أخذ العلم » وأنه دخل مدينة فاس « سنة تسع وسبعين وألف » اذ خربت الزاوية البكرية « ، وأن معركة بطن الرمان التي انهزم فيها الدلائيون على يد السلطان مولاي رشيد بن الشريف وقعت في « أوائل محرم فاتح سنة تسع وسبعين وألف » ، ثم أن اليوسى يسمى في (المحاضرات) كثيرا من شيوخه ومن العلماء والصلحاء والصوفية الذين أخذ عنهم العلم أو لقيهم ، بل اننا نجد في خاتمة الكتاب قائمة طويلة بأسماء هؤلاء .

هذا ويوضح اليوسى المناسبات التي قال فيها بعض شعره المبثوث في (المحاضرات) ويثبت بعض مناظراته مع العلماء

ويورد روايات عن محمد الحاج الدلائي وغيره . فضلا عن أن اليوسى يصدر كتابه بمعلومات عن اسمه ونسبه وقبيلته ويسمى كثيرا من أجداده ومنهم أبو القبيلة « يوسف » واليه ينتمى اليوسيون (أي اليوسفيون بحذف الفاء) .

ومن هنا يمكن اعتبار كتاب (المحاضرات) مصدرا لا غنى عنه لكل من يريد أن يتصدى لدراسة سيرة اليوسى . كما أنه لاغنى للدارس عن كتاب (الفهرسة) وبعض رسائل المؤلف التى توضح جوانب من شخصيته وسلوكه .



نعرف أن الامام الحسن اليوسى — الذى عاش بين النصف الثانى من القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر الهجرى وتوفى عام 1690/1102 — كان واسع الاطلاع على علوم اللغة والادب متين الدراية بالاصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والمنطق ، وكانت له مع ذلك ميول ظاهرة الى أصحاب التصوف واعجاب بالصلحاء والاولياء ، نظر فى كتبهم وروى أخبارهم وتشبع بأقوالهم وأفعالهم ، واتصل ببعض الاحياء منهم . ولا عجب فى ذلك فقد أخذ اليوسى العلم فى زاوية الدلاء وعلم بها وقضى فيها شطرا من حياته الخصبة تلميذا ثم أستاذا ، كما أخذ العلم عن الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعى ، وكان يشد الرحال الى أضرحة الاولياء والصالحين يلتمس فى مقامهم الخير والبركة له ولأهله ، ويجد فى ذلكراحة النفس وطمأنينة خاطر .

وَمَعَ هَذَا كُلَّهُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْطَعَ بطنَ الْيُوسَى كَسَّانَ صُوفِيًّا مُتَفَرِّغًا لِلزُّهْدِ وَالْمُضْلُوعَةِ سَالِكًا طَرِيقَ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ .
نَعَمْ ، كَانَتْ تَرْبِيَّتُهُ وَإِيمَانُهُ الْعَمِيقُ بِالْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ
يَمِيلَانِ بِهِ إِلَى أَهْلِ اللَّهِ وَأَقْطَابِ التَّصَوُّفِ وَعُلَمَائِهِ يَكْبُرُهُمْ
وَيَجْلَهُهُمْ وَيَسْتَحْسِنُ الْإِقْتِدَاءَ بِهِمْ وَالتَّبَرُّكَ بِمَقَامَاتِهِمْ فِي حُدُودِ
تَعَالِيمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَدُونَ أَنْ يَتَخَلَّى هُوَ نَفْسَهُ عَنِ السَّعْيِ فِي
الْحَيَاةِ لِاِكْتِسَابِ الْعِلْمِ وَالرِّزْقِ وَالنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْمَجْتَمَعِ وَالْأَمْرِ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ جَهْدَ الْمُسْتَطَاعِ ، وَذَلِكَ بِاللِّسَانِ
وَالْقَلَمِ وَالْقُدُورَةِ الصَّالِحَةِ ، كَمَا أَنَّهُ تَصَدَّى لِلتَّدْرِيسِ وَالْمُحَاضَرَةِ
مُدَّةً طَوِيلَةً مِنْ حَيَاتِهِ الْخَصْبَةِ ، وَأَلَّفَ عَدِيدًا مِنَ الْكُتُبِ وَالرِّسَالِ .

لَقَدْ جَاهَرَ الْيُوسَى بِتَسْفِيهِ بَعْضِ أَدْعِيَاءِ الصَّلَاحِ
مِنَ الْمُضْلِينَ وَالدَّجَالِينَ وَحَذَرَ مِنْهُمْ ضَعْفَاءَ الْعُقُولِ ، وَلَا أَدُلَّ عَلَى
ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي يَسُوقُهُ فِي الْمَحَاضِرَاتِ عَنْ « الشَّجَرَةِ
الْخَضْرَاءِ فِي الْمَدِينَةِ الْخَالِيَةِ » وَيَبْدَأُهُ بِأَسْلُوبٍ قَصَصِيٍّ جَمِيلٍ
فَيَقُولُ :

« كَانَ بِمَسْجَلْمَاسَةِ أَيَّامِ ارْتَحَلْنَا إِلَيْهَا لِلْقِرَاءَةِ زَمَنُ الصَّبَا
شَجَرَةٌ يُقَالُ لَهَا الشَّجَرَةُ الْخَضْرَاءُ مَشْهُورَةٌ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَفِي
سَائِرِ بِلَادِ الْقُبْلَةِ ، وَهِيَ قَدْرُ الزَّيْتُونَةِ أَوْ السَّدْرَةِ الْكُبْرَى ،
وَوَرَقُهَا يَقْرُبُ مِنْ وَرَقِ السَّدْرِ وَبِسَبَبِ شَهْرَتِهَا أَنَّهَا غَرِيبَةٌ الشَّكْلِ
دَائِمَةٌ الْخَضْرَاءُ وَغَرِيبَةٌ فِي مَحَلِّهَا وَلَيْسَتْ مِنْ شَجَرِ الْبِلَادِ ، وَهِيَ
مَنْفُودَةٌ لَيْسَ مَعَهَا شَجَرٌ أَصْلًا ، وَكَانَتْ نَائِبَةً خَارِجَ سُورِ الْمَدِينَةِ
الْخَالِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّهْرِ قِبَالَةَ الرَّمِيفَةِ الَّتِي يَعْبُرُ عَلَيْهِ لِلنَّاحِيَةِ
الزَّلَامِيَّةِ ، وَيُقَالُ أَنَّ ذَلِكَ بَلَدٌ مِنْ أَبْوَابِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ . . »

وخلصة القول في أمر هذه الشجرة الغريبة أن « الاستاذ
الفاضل أبا زيد عبد الرحمن بن يوسف بحث اليها جماعة من
الطلبة فقطعوها . . وكان كل من يمر فيراها تقطع يصيح
ويتأسف ويقول : ما فعلت لكم المسكينة ؟ وكان أهل سجلماسة .
يزورونها ولا سيما النساء ، فيكثرن عليها من تعليق الخيوط
ويطرحن الفلوس أسفلها ، وربما تغالت النساء في تعظيمها
والتقوية بشأنها حتى يسميها بلسم امرأة صالحة كالسيدة
فاطمة ونحو ذلك ، فلهذا أمر الاستاذ المذكور بقطعها وكأنه
يرى أنها صارت ذات أنواط كما قال الشيخ أبو العباس المرسى
رضي الله عنه . »

ويعلق اليوسى على هذه الرواية بقوله : « فذكرناها نحن
للتنبية على ذلك ، فان عوام الناس أكثروا عليها منذ عقلنا حتى
كانوا ينسبون اليها من ترهات الراجيف نحو قولهم : قالت
الشجرة الخضراء : هذا زمان السكوت من قال الحق يموت .
فليعم الناظر أنها إنما هي شجرة لا تنضر ولا تنفع ، ولا تبصر
ولا تسمع ، ومثلها أحق أن يقطع . »

وقبل أن نواصل الكلام عن موقف اليوسى من هذا النوع
من السذاجة الاجتماعية التي ترافق عصور الانحطاط والتخلف
الفكري نود أن نقف قليلا عند تعليق اليوسى على قضية
الشجرة وتعلق الناس بها ولا سيما الفقرة التي نسب فيها إلى
العوام قولهم : « هذا زمان السكوت ، من قال الحق يموت »
الآ يكون هذا نوع من النقد المستر الرمزي للأوضاع السائدة

في ذلك العصر ؟ ألم يعتمد اليوسى ذكر هذه الفقرة بالذات لتوافقها مع بعض آرائه في عصره ورجاله ؟ مع أن القصد الاساسى يظل هو استنكار تعلق العوام بهذه الشجرة واعتقادهم أنها قد تنفع وتضر .

ونعود الى سياق الكلام الذي بدأناه فنقول أن اليوسى — الذي يستنكر غفلة الناس في عصره وميله م الى تصديق بعض الترهات والاباطيل — كان يعتقد « أن التبرك بآثار الصالحين مع صحة العقيدة لا بأس به » وهو انما ينكر على العوام التعالى في ذلك ، ولا يتردد في ذكر أمثلة من « مواضع اشتهرت بآثار الصالحين » في بلاد المصامدة ، وشالة في رباط سلا ، وميسرة في ملوية « حيث مدفن الشيخ أبى الطيب بن يحيى الميسوري » وفي رباط شاكر « وهو مشهور ، وكان مجتمعا للصالحين من قديم »

ويذكر اليوسى طائفة من أخبار بعض المحتالين الذين يظهرون الصلاح ويخدعون الناس فلا يخفى أنه كان في بعض الاحيان من جملة من خدع . فهو — مثلا — حينما يحدثنا عن ظهور رجل في سجلماسة (المدينة الخالية) — كما يسميها — اعتقد الناس أنه صاحب الوقت وولى من أولياء الله « فلما كثر الناس اشتد الزحام عليه وتعذرت رؤيته فدخل في قبعة هناك في المقابر فأخرج كفه من طاق القبعة ، فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون ، وكان كل من قبل الكف اكتفى ورأى

أنه قضى الحاجة فقبلنا وانصرفنا ، ثم بعد أيام سمعنا أنه ذهب الى ناحية الغرفة وأنه سقط في بئر هنا لثومات ، فظهر أنه رجل مصاب وكأنه يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلك غهلك .

ثم يعلق اليوسى على هذه القصة بقوله : « فكم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الاغمار » .

فها نحن أمام رأي واضح كثيرا ما أعلنه اليوسى مع أننا لا نملك الا أن نتساءل بشيء من الفضول : كيف كان اليوسى نفسه — وهو عالم جليل عارف بالكتاب والسنة متمسك بهما — ينخدع أحيانا فيظن الصلاح فيمن لا صلاح فيه ويقبل يسهو معتوه لا يعرف من أمره شيئا وينصرف مع المنصرفين ؟ أهذه سذاجة من اليوسى أم أنه نوع من التغافل والمداراة يفرضهما السلوك الاجتماعى والبيئة ؟ أم أنه تأثر حتمى بالمحيط الذى نشأ فيه وعاش ؟

والواقع أن اليوسى نفسه يطلعنا على جانب من رأيه فى السلوك الاجتماعى فيقول : « انى لاتغافل عما لا حاجة اليه ، ولا أتتبع ما فيه تكلف ولا تدعو الضرورة اليه ، وان ذلك عندي هو أسلم و أبعد عما يخشى من ارتكاب الفضول أحيانا ، وتجاوز الحد أحيانا ، واحراج الصدر أحيانا ، واستثارة الشر أحيانا ، وأقرب الى مكارم الاخلاق ، وأدخل فى المداراة المطلوبة ، وأبعد عن الملاحاة المذمومة » ثم يستشهد اليوسى بحديثين

نص أحدهما : « مداراة الناس صدقة » . ونص الآخر « أمرنى
ربى بمداراة الناس ونهانى عن ملاحاتهم » .

ثم ان اليوسى يرى أن حسن الظن بالناس والتغافل عن
عيوبهم واجب مع التزام الحذر « ولا سيما فيما نحن فيه من
آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح والهوى
على الحق والبدعة على السنة الا من خصه الله وقليل ما هم » .
ويظهر من كتاب (المحاضرات) أن اليوسى كان يوقر الصوفية
ويجل أقطابهم ، ويذكرهم بعبارات وأوصاف تتم عن ذلك
ويستشهد بأقوالهم وأفعالهم ، فهو - مثلا - ينعت أبا العباس
المرسى بالقطب العارف ، ويختتم الكلام عنه وعن أمثاله كتاج
الدين بن عطاء الله والشيخ أبى زيد والشيخ أبى مدين بقوله
« رضى الله عنهم » أو « نعمنا الله بهم وبأمثالهم » .

وكان اليوسى - كما سبق أن قلنا - يؤمن بالرؤيا الصالحة
ويتأويلها مستندا في ذلك الى حديث يقول فيه رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من
سنة وأربعين جزءا من النبوة » .

ومن الطريف في هذا الباب أيضا أن الحسن اليوسى
يحدثنا بنفسه عن رؤيا قصها عليه « أحد الاخوان » فقال
بأنه « رأى فيما يرى النائم جماعة من الصالحين ، والكاتب معهم
- أي اليوسى - وفيهم الشيخ محمد بن مبارك وغيره من
أمثاله ، فتكلم بعضهم . . . الى أن قال : ان كان الحسن
البصري في زمانه فهذا الحسن اليوسى في زماننا ، يشير

الى الكاتب « . وربما اسقلهم أبو سالم العيتشي بيته المشهور
من ذلك :

من فاته الحسن البصري يدركه

فليصب الحسن اليوسى يكفيه

وكان هذا التشبيه بأحد كبار اعلام الاسلام قد وقع من
نفس اليوسى موقعا حسنا فتقبله « رجاء وطمعا في اللحناق
بالصالحين أو بمحببيهم وتبركا بذكرهم ، والا فليس بعشك
فادرجسى :

لما انتسبت الى علاك تشرفت

ذاتنى فصرت أنا ، والا من أنا ؟ »

واذا تركنا الرؤيا وتاويلها عند الحسن اليوسى وتأثير ذلك
في تفكيره ومسيرة حياته فاننا نجم أن عالمنا وأدينا الكبير لا
يتردد في التصريح باعتقاده أن الاولياء والصالحين يمكن أن
يكون لهم تأثير في سعى الانسان ومصيره سواء كانوا أحياء
يدبون على الأرض أو أمواتا جاثمين في قبورهم ، فهو يخبرنا
بزيارته لمقام الاولياء الاقطاب الذين تقضى عندهم الحاجات
من أمثال الشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ أبى يعزى يلنور
والشيخ أبى سلهام . ويحدثنا عن بعض تجاربه الروحية فيقول ،
مثلا ، « وقد شاهدت المولى ادريس بن ادريس رضى الله عنه
أيام مقامى بمدينة فاس ترياقا مجربا في كل ما انزل به من
حاجة » . بل أن اليوسى يؤكد لنا في إحدى محاضراته أن زوجه

كانت « قد تراخت عنها الولادة فدخلها من ذلك غم عظيم » ،
وبعد أن رأت في منامها أنها ذهبت الى مقام سيدي أبي علي
العجاتي فوجدته جالسا وهي في غاية العطش « فاذا حوله
عين يرشح منها ماء قليل لا يغنى » فقالت : « يا سيدي ما
هذا ؟ جئت اليك عطشى رجاء أن أشرب أفارجع كما جئت ؟
قال : لا ، ان الماء ثم ، انبشى يخرج . قالت : فنبشت بيدي
فخرج الماء وشربت حتى ارتويت » . ويعقب اليوسى على
ذلك بقوله : « وطلبت منى أن نزوره وأن نطعم عنده طعاما
ففعلنا ، فولد ولدنا محمد الكبير أصلحه الله وأمتع به » .
ويحدثنا اليوسى أيضا عن بنية له كانت قد عجزت عن النهوض
وهي في سن من يمشى « فظنناها مقعدة فذهب بها الخدم اليه
— أي الى سيدي أبي علي المذكور — وزوروا فقامت بالفور
على رجلها تمشى » .

هذا ويؤكد لنا اليوسى أنه رأى « لبعضهم أن الولي اذا
مات انقطع تصرفه من الكون ، وما يحصل لزاثره ، مثلا ، انما
يحصل له على يد قطب الوقت بحسب درجة ذلك الولي » ، ولم
يخبرنا اليوسى برأيه هو في هذا التفويض الروحاني الذي
يخول لقطب الوقت التصرف باسم الولي الذي « مات وانقطع
تصرفه من الكون » الا أننا نعلم أن اليوسى لا يشك في النتيجة
الاجابية التي تحصل من زيارة أحد الاولياء .

ونقرأ لليوسى بعض الروايات التي لا نجد مبررا للشك
في صحة سندها ، والتي تحدث في نفوسنا بعض الاستغراب
وما يشبه التساؤل ، من ذلك ، مثلا ، ما يرويه عن محمد الحاج

الدلائل عن والده سيدي محمد بن أبي بكر قال : « ان شيخه سيدي محمد بن أبي القاسم المعروف بالشرقي التدلاوي كان وقع بينه وبين ولده سيدي الغزواني كلام وعتاب الى أن قال الولد: أأنت ترزقني ؟ فقال الشيخ : نعم ، أنا أرزقك . فأعظم الناس هذا الكلام . . فقال الوالد : لا شيء في هذا ، فان الشيخ هو القطب في الوقت ، والقطب تجري الارزاق على يده ، فصيح بهذه الاضافة أن يكون رازقا » . ولم يعلق اليوسى على هذه الرواية بشيء ، ولا يمكننا أن نؤول سكوته بالموافقة على قول الشيخ الشرقي التدلاوي ونحن نعلم أن الله وحده هو رازق العباد وأن الناس جميعا انما يتصرفون بإرادته تعالى سواء كانوا من الاقطاب أو العامة « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » واذا كان للارزاق أن تجري على يد أحد ، باذن من الله ، فان ذلك لا يكون ، عقلا ، الا من باب اعطاء الاجرة للاجير أو اعالة الاهل والاطفال أو نحو هذا ، أما التصرف في أرزاق الناس واجراؤها عليهم من طريق الخوارق فذلك ما لا تقوم لدينا عليه حجة من كتاب أو سنة أو منطق . وهذا كله لا يمنعنا من توسم الخير في الدعاء الصالح من الرجل الصالح يدعوه به لاحد من عباد الله مع رجاء الاستجابة والقبول من الخالق الذي لا يقوم بينه وبين خلقه حجاب .



قلنا أن الحسن اليوسى كان ميالا الى علم التصوف مطلعا على كتبه ، عارفا برجاله ، مدليا فيه برأي . وقد عقد

فصلين كاملين هما من أطول فصول (المحاضرات) أولهما بعنوان « الكشف والمكاشفة عند الصوفية » والثاني « تذوق الصوفية معانى الأبيات والاشارات وتأويلها حسب المقامات » وإن كان هذا الفصل من باب جولات اليوسى الأدبية الدالة على عمق فهمه وتذوقه لكلام العرب شعرا ونثرا . وفضلا عن هاذين الفصلين فى الصوفية وأحوالها نجد فى (المحاضرات) فصولا وأخبارا أخرى عن الزوايا والأربطة ومقامات الأولياء والصالحين مما لا يدخل فى باب علم التصوف الخالص بل يرتبط أكثر بالطرقية وسلوك الشيوخ والمريدين والفقراء ، أى بذلك التيار الذى عرفه المغرب والمغاربة وعاشوا تقلباته طوال قرون من الزمن . ثم إن لليوسى مؤلفات فى التصوف نذكر منها شرحه لكتاب بمخائب الغوث عبد القادر الجيلانى ، ومصنفا فى موضوع محتاجة الشيخ وتأدية الأوراد وما شابه ذلك .

فما هو إذن موقف اليوسى من التصوف ومتاهاته ؟ نستطيع أن نقول فى البداية أن عالمنا الكبير كان يعطى « عهد الشاذلية » فيأخذ عنه الطالبون « الورد والرواية والزمان والمكان الذى وقع فيه ذلك » كما يحدثنا هو نفسه فى إشارة عن مقامه فى مصر . ثم إن لليوسى يقول لنا فى أحد فصول (المحاضرات) : « بعد وفاة الأستاذ المحقق السنى أبى عبد الله بن ناصر - رضى الله عنه - لم نزل نسعى فى نفع الناس بتعليم ما يحتاجون من دينهم ، وما يحتاجون من أوراد النوافل والأذكار التى يترودون بها لمعادهم ، ويتحسبون بها ويتقربون إلى ربهم ، عاملين فى ذلك على وجه المؤاخاة والمعاونة على البر

والنصيحة لا وجه المشيخة ، وعلى وجه التعليم والارشاد لا على وجه التربية . . فأخبرني بعض أصحابي أنه جرى كلام بينه وبين بعض القضاة المتصدرين للدرس ، فتكلم له القاضي في شأنى وقال له على وجه النصيحة فيما زعم : ما ألجا فلانا الى تلقين الاوراد ؟ فهل رأيت مريدا بشروط الارادة قط ؟ فلما حدثنى بذلك قلت له : هلا قلت له : أما أنا لم نر مريدا كذلك فهو كذلك ، وكيف نراه الا أن يتداركنا الله برحمته ! » نستنتج من هذا الكلام أن اليوسى كان ، كما قلنا ، يعلم الاوراد ، وأنه لم يدع في ذلك لنفسه مشيخة أو تصديا للتربية السلوكية على طريقة شيوخ الزوايا ، بل ان قصده كان مجرد النصيحة والتعليم ، وهو لم يكن يطمع في أن يرى « مريدا بشروط الارادة » ولربما كان يشك في امكان ذلك كما يستنتج من استشهاده في نفس الفصل بكلام الشيخ أبى العباس بن عتبة الحضرمى برواية تلميذه أبى العباس زروق ، ولفظه : « لو فتشتم من أقصى مشارق الأرض الى أقصى مغاربها على مريد صادق في أحواله لم تجدوه ، فكيف بالعارف الكامل » ؟ وينتهى اليوسى الى رد الكيل للقاضى الذي انتقد فعله فيقول : « فهل رأيت بنفسك متعلما على شروط التعليم المعتبرة أو هل رأيت في نفسك شروط المعلم وعلى من يجلس اليك شروط المتعلم ؟ فلا بد أن تعرض على نفسك شروط المعلم وعلى من يجلس اليك شروط المتعلم ، فان تجد ذلك صحيحا ظاهرا أو باطنا فتصدر ، وان وجدته مختلا فكيف يحل أن تتصدر وارتفاع الشرط يوجب ارتفاع الشروط . »

فهذا كلام لاذع قارص يوجهه اليوسى الى منتقده ، وقد نرى فيما تقدم ذكره تأييدا لما ذهبنا اليه من أن اليوسى إنما كان

يرمى الى أداء رسالة التعليم التي كرس لها حياته وجهده ،
وأنه لم يكن يدعى ولاية ولا مشيخة ولا يزعم تربية المريدين
والسالكين والاتباع مع أننا لا نشك لحظة في ورع الـيوسى
ونزاهته العلمية والخلقية وصدق مقاصده وجدارته بأن يكون
قدوة ومثالا .

وبعد هذا أيمكننا أن نقول ، على سبيل القطع واليقين ، أن
اليوسى لم يكن طريقيا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة أي أنه لم
يكن من أتباع شيخ من شيوخ الزوايا في عصره ، يحضر
مجالس الذكر وينتسب بالى شيخ الزاوية وينقطع لخدمته ؟
وكيفما كان الحال فان الـيوسى لم يدع مشيخة ولم يتصدر
لرئاسة طريقة .

لقد كان عالما الجليل من المـ تلاميذ الزاوية البكرية
الدلائية ثم أصبح من أبرز أساتذتها وأقدرهم على التعليم
والإفادة ، قضى في هذه الزاوية نحو عشرين عاما من عمره
وورد عليها وهو علم ببعض العلوم ونال عند أساتذتها وطلابها
حظوة ومكانة حتى ان شيخه محمد المـ رابط نعتة ، حينما أجازة ،
بلقب « شيخ الجماعة بالديار البكرية » ، ومع ذلك فان تعلق
اليوسى بهذه الزاوية وحنينه الدائم اليها واكبارها لـشيوخها
وعلمائها انما يمكن أن يفسر بالمدة التي قضاها هناك متعلما
ومدرسا ، ولا نجد في ذلك سندا كافيا للقول بأنه كان طريقيا
منتظما في سلك الزاوية ما لم يتح لنا الاطلاع على جميع مؤلفاته
ومؤلفات من ترجم له .

نعم ، اننا نعلم أنه كان يداوم على تلاوة الاوراد كما كان يعلمها وان الناس كانوا يأخذون عنه « عهد الشاذلية » ، وطريقة الدلائين ، كما نعلم ، شاذلية انحدرت اليهم عن طريق الشيخ محمد الجزولى والشيخ أحمد زروق ، مع أن الشيخ أبا بكر الدلائى « لم يلتزم تلقين أذكار مخصوصة لمن يريد الاخذ عنه » كما لاحظ الاستاذ محمد حجي في رسالته القيمة عن الزاوية الدلائية .

وعلى هذا يمكننا أن نقول أن اليوسى كان متفرغا للتدريس والتأليف ، علم في الزاوية الدلائية كما تصدر للتدريس في فاس ومراكش وتطوان ، وترك ذخيرة كبيرة من المؤلفات أحصى منها الاستاذ بريك ثلاثة وثلاثين مؤلفا وأضاف الاستاذ حجي الى هذه القائمة أربعة عشر كتابا ، ولم يشغل اليوسى بغير ذلك فيما نعلم الا ما كان من تجواله ورحلاته .

وأما اهتمام اليوسى بعلم التصوف وأخبار رجاله فاهم يؤكد كتاب (المحاضرات) - كما سبقت الإشارة الى ذلك . والفصل الذي خصصه للحديث عن الكشف والمكاشفة عند الصوفية جدير بالاهتمام فقد عرض فيه طائفة من الاخبار والآراء التى حضرتها فى الموضوع وأطال فى ذلك وأجاد .

استهل اليوسى هذا الفصل بخبر نقله عن شيخه أبى بكر بن الحسن التطافى ونصه : « دخلت على شيخنا العلامة الزاهد أبى محمد عبد الله بن على بن طاهر الحسنى - رضى الله عنه - يوما ، وهو اذ ذلك بقرية أولاد الحاج من بلد مدغرة ، فقل

لى : ان بنى يفوس ، وهى قرية من الخنق ، وقع بينهم قتال .
قال : فقلتيا سيدي أجاى أحد من هنالك ؟ قال : لا ، ولكن أخبرنى
بذلك قلبى ، وقلبى لا يكذب على فقد جربته . وكان بينه وبينه وبين
هؤلاء مرحلة ، قال : فجاء الخبر بعد ذلك بوقوع الامر كما
أخبر به .

وبعد نقل هذا الخبر عمد اليوسى الى محاولة استخدام
ميزان العقل والعلم المتداول موضحا منهجه بقوله : « وانما
أقرر شيئا أتعقله فهما أو شيئا وجدته فى كتبهم مشروحا ، ولا
أدعى أنه ليس فى حكمة الله البالغة وموهبته السابغة أزيد من
ذلك بل أذكر ما انتهى اليه فهمى » فالعلم والعقل شىء والمواهب
والخوارق شىء آخر .

يقرر اليوسى فى هذه المسألة (الكشف والمكاشفة) أن
الغيب قسمان : قسم يمكن لبعض العقول أن تدركه كصفات
الله تعالى وأسمائه ، وحكمته فى أرضه وسمائه ، وأحكام
المعاد وكل علم مستنبط من الاصول والفروع . ويعتبر اليوسى
هذا القسم من الاطلاع الصحيح الذى لا يمكن أن يسمى فى
الاصطلاح كشفا . وقسم مرجعه الموهبة ، ولا مجال فيه
للعقول ، وهو اما أن يكون تلقائيا كحال المجذوب والنائم ، واما
أن يتقدمه سبب من رياضة أو نحوها . وبعد أن يعطينا
اليوسى بيانات عن خصائص (الموهبة) ومظاهرها من رؤيا

وغيبة ويقظة ينبهنا الى أن العلم بالغيب « من أوصاف الربوبية ، والعبد مرتاح الى ذلك كارتياحه الى القدرة والعلو ، فكان للناس ولوع بذلك وتشوق اليه ، وتشوق الى من يظهر عليه شيء من ذلك . . . حتى ان العامة مطبوعون على جعل ذلك آية لثبوت ولاية الولي من غير تعريج على المستقيم منه والسقيم » . ثم يتصدى اليوسى لبيان « وجوه الغلط » الذي يقع فيه الناس بخصوص مسائل الكشف وما يزعمه الزاعمون من أنه يأتي يقظة أو مناما ، ويمكن تلخيص ذلك كما يلي :

— ان أمور النوم قلما تنضبط ، والاحلام ظواهر نفسية معقدة تؤثر فيها المشاعر والحالات الظرفية كالشفف والاستغرا بوالخوف « ولا حاصل لذلك » .

— يحتمل الخطأ في تعبير الرؤيا . والمنامات لا تختص بأفراد دون آخرين « بل تقع لسائر الناس حتى الكفرة ، ولذا وقع في الحديث : الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح . . وفي الحديث أيضا : اذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب » . — حال الغيبة يمكن أن يقع فيها الخطأ أيضا « بتلاعب الشيطان » ، وقد تكون غيبة من تصيبه هذه الحال « بوارد ربانى أو شيطانى » .

— وفي حال اليقظة يمكن الغلط أيضا « فى رؤية البصر بان يكون المرئى خيالا لا حاصل له كما يقع ذلك للمخوم وصاحب الميد وراكب البحر . . . وفى رؤية القلب كذلك ، وفى خاطر بان

يكون شيطانيا أو مجرد حديث نفس أو قوة رجاء وظن ونحو ذلك « والواجب في هذه الحالة أن لا ينخر الانسان في حق نفسه وأن يتهم رأييه ، كما يجب عليه « أن لا ينخدع لكل مبطل ولا يسيء الظن بكل مسلم » .

وبعد هذا التحليل العلمى لمسألة الكشف يتصدى اليوسى الى تحذير الناس من الاغترار والافتراء والاستسلام للالوهام وينصحهم بالتزام جانب الصواب الموافق للشرع والعقل مستشهدا بالسنة الطاهرة وبأقوال بعض أقطاب الصوفية كالشيخ أبى العباس زروق ، وقد نقل عنه قوله : « ان من اعتاد من نفسه الغيبة عند السماع لا يحل له تعاطيه ، لان حفظ العقل واجب » .

واليوسى يفرق بين المهوسين الادعياء « وأهل الشراب الصافى من أولياء الله تعالى » مؤكدا أن هؤلاء لم ينالوا ما نالوه « بحولهم ولا قوتهم ولا بالترهات . . . » وانما اختصهم الله بموهبته ، وأهلهم لحضرته من غير تدبير منهم ولا اختيار ، ولو كان لهم اختيار لاختاروا البقاء في خدمته ، وان لا يغيبوا عنها لحظة ، فان أدب العبد وشرفه انما هو في خدمة مولاه لقيامه بحق سيده لا بحظ نفسه . وما مثال من يطلب ذلك بالوله والسكر الا مثال عبد نصبه سيده لخدمته وهو يريد الابق عنه أو يريد أن يتركها اختياراً منه . . . »

ويؤكد اليوسى في مكان آخر أن تحذيراته وما قررره

من تحوزات انما تخص المريدين والعوام الذين يتعرضون للغلط والزلق « وأما العارفون الكاملون ، وإن كانوا أيضا غير معصومين ولا مستغنيين عن التحفظ ، فلا حديث لنا عنهم ، لانهم أعرف بحالهم فيما يأتون ويفرون » .

وواضح أن اليوسى كان يقصد الى محاربة البدع السائدة فى عصره والتنبيه الى مهاوي الضلال والترهات التى يتردى فيها العوام من أدعياء الجذب والحال فيضللون الناس ويفتنونهم . إلا أن اليوسى لم يتناول على مقام أصحاب « الموهبة » الحقيقية من أولياء الله وأقطاب الصوفية ، بل انما نراه يستشهد بأقوالهم وأفعالهم ويجعل من ذلك حجة لما يرومه من بيان ونقد واصلاح ، ومن بين الرجال الذين ورد ذكرهم فى الفصل الذى نحن بصدده : الشيخ أبو العباس زروق ، والشيخ أبو مدين ، والشيخ السري ، والامام الغزالي ، وسيدي محمد الشرقى التدلوي ، وسيدي على أبو الشكاوي ، والشيخ عبد الوهاب الشعرانى ، والشيخ عبد القادر الجيلانى ، والشيخ أبو عبد الله السنوسى ، والشيخ أبو القاسم الجنيد . ومع ذلك نرى اليوسى يتحرز بأسلوبه الخاص وطريقته الاستطرادية فيقول مثلا بأن هؤلاء العارفين الكاملين غير معصومين هم أيضا ولا مستغنيين عن التحفظ ، ويؤكد أن ما تنكره « الشريعة أو الحقيقة والعقل فينكر بالشروط المقررة فى انكار المنكر فى الفقه والتصوف مع حسن الظن فى الباطن » ، ويلج اليوسى كثيرا على سلامة الضمير وحسن الظن بالفلس والمتعاطل عن مساوئهم « مع فطنة ويقظة ومعرفة بالزمان وأهله » .

أن عالمنا الكبير لم يكن مرتاحا كل الارتياح الى زمانه بسبب ما ساد من عادات فاسدة وأفعال مشينة ، فهو يقول فسى (المحاضرات) : « أما الزمان فلا تسأل عنه ، وقد مر في الحديث : صنفان اذا صلحا صلح الناس واذا فسدا فسد الناس : الامراء والعلماء ، وقد فسدا معا والى الله المشتكى » ويضيف اليوسى « وكان الامر يصلح بأئمة العدل وفقه الفقهاء وأدب الصوفية ، وقد فسد هؤلاء الثلاثة بالجور والمداهنة والبدعة ، ففسد الدين بهم أولا والدنيا ثانيا » . ومع ذلك يرى اليوسى أن « انتقاص الزمان وانتقاص أهله لا يوجب انقطاع الدين ولا ارتفاع النصيحة ، فان هذا النقص سار في الدين وفي العقول وفي الاقوات وفي الامامة الكبرى والصغرى » . ولم يتأخر اليوسى في ميدان النصيحة والاصلاح ومحاربة البدع والفساد بالقلم واللسان والقذوة الصالحة ، وهو يقول : « ان العالم سيفه لسانه ، وما وراء ذلك انما هو لاهل الامر ومن له قدرة على الامر » وفي المحاضرات وغيره من مؤلفات اليوسى ورسائله أدلة على حسن قيامه بهذا الواجب ، فقد كان حربا على البدع والرياء والجور والثرهات ، يصارح بذلك أصحاب السلطان ولا يهاب أحدا .

ونعود الى مسألة الكشف ودعوى الاطلاع على الغيب لنلاحظ أن اليوسى لم يبد أي تساهل في حق الادعاء المخادعين فحمل عليهم وفضح بهتانهم وما يتخذونه من أساليب لخداع العامة لمجرد الطمع في حطام الدنيا ، فهو يخبرنا أن ادعاء الاطلاع على الغيب والتظاهر بالكشف والتصرف فسى

الوجود شاع في زمانه ، وهو يرمى هؤلاء الادعياء بالانقياد
للخيالات المنامية والظنون الكاذبة والوساويس الباطلة ،
وهم لذلك يشتغلون بما يطلبه العوام من معرفة ما سيحدث لهم
أو ما سيلقونه غدا هم أو ذووهم . ويفرق اليوسى بين هذه
التوافه الغيبية الكاذبة وما يتاح لاولياء الله تعالى الذين
« يكشف لهم عن الذات والصفات والاسماء كشفا لا تبلغه
العقول ، وعن ملكوت السماوات والارض . . » وشبان ما
بين هذا الكشف الربانى الذي تتيحه المعرفة والذوق والرياضة
الروحية والعلم بالشرعية وبين الهوس الذي يؤدي بأصحابه
الى التكهن الكاذب بأن مسافرا سوف يقدم غدا وأن فلانا يتولى
ولاية أو يعزل أو يتزوج .

ولا يغفل اليوسى عن فضح من يستخدمون الجن أو
يشتغلون بالتنجيم وضروب الاحتيال الاخرى .
وأخيرا يلخص اليوسى مذهبه في الاعتقاد بهذه العبارات
الجامعة : « ان أشرف ما يكشف به العبد ما يرجع الى
معبوده تعالى من معرفته وما له من الجلال والجمال
ومن أسماء عليّة وصفات سنية . . ثم ما يرجع الى حكمته
في مملكته ، ثم ما يرجع الى أحكامه من معرفة
ما تعبد به عباده أصلا وفرعا وكل علم يعين على ذلك »
وهذا كلام يغنينا عن كل تفسير وتعليق ، فهو يوضح
تمسك اليوسى بمذهب أهل السنة ، ووقوفه عند حد ما يأمر
به الله تعالى ورسوله ، واعتقاده أن العقل الراجع والطسم
الصحيح هما وحدهما الموصلان الى الحقيقة .

وقد اتضح من خلال العرض الذي قدمناه أن اليوسى يقول بالموهبة التى يخص الله بها بعضا من عباده ، والمعرفة الصوفية ، فى نظره ، لا تتأتى الا بالعلم والجهد والمعاناة ، ولا يدركها الا من خصه الله من عباده وقليل ما هم .

وقد يقول بعضهم أن آراء اليوسى هذه ربما تتعارض بعض الشيء مع ما رأيناه من تصديقه للرؤيا وتعبيرها ، وتقبيله يد معنوه لم يكن يعرف حقيقته ، وقد يستنتج من ذلك أن سلوك اليوسى لم يكن دائما مطابقا لرأيه واعتقاده ، والحقيقة أنه يشترط فى الرؤيا الصالحة أن تكون من الرجل الصالح استنادا الى الحديث الشريف ، وكان والده - حسب شهادته - رجلا صالحا متدينا محبا للخير . أما مسألة تقبيل اليد فيمكن تفسيرها بما كان يقول به اليوسى من وجوب حسن الظن بالناس والتغافل عن مساوئهم مع الحذر والحيلة .

وكيفما كان الحال فإن اليوسى ، وهو العالم المدرس ، كلن يؤدي رسالته التعليمية بأمانة وصدق فيما يلقنه من دروس لطلابه وفى كل ما كتبه ولا سيما (المحاضرات) التى هى فى الواقع دروس جمعها المؤلف فى وقت انقطع فيه عن التدريس والتصنيف حينما كلن مبعدا فى مراكش مفارقا لاهله وتلاميذه . الا أن هذه الدروس المجموعة فى كتاب (المحاضرات) ترخر بتأملات اليوسى فى بعض شؤون العصر الذى عاش فيه يعرض فيها الكثير من ذكرياته ومتنقلاته ويحلل ببعض آرائه فى مسائل الادب والفقه والعقيدة والتصوف والسياسة والحوال الدنيا .

واذا كان اليوسى قد أعرب ، بشيء من المראה ، عن
سخطه على العصر ورجاله ، حكاما وعلماء وعلمة ، فانه مع
ذلك كان يؤمن بأن « هذه الامة المطهرة المشرفة كالمطر لا يحري
أولها خير أم آخرها » وان « فى كل زمان سادة ، وفى كل
قطر قادة » ، فهو ، اذن لم يكن يائسا من أمته يتوسم فيها
الخير والصالح على يد قادة مصلحين على أن يسود العدل الذي
هو فى نظره روح العالم وأساس كل حكم صالح وأن تتغلب
المصلحة على الشهوة والهوى فى الرياسة والقيادة وأن تقوم
المساواة بين الناس مع تعليم المتعلمين ونشر العلم وكفاية
أهله والسعى فى جمع الكلمة وخدمة الصالح العالم من غير طمع
أو عتو أو استعلاء ، كل ذلك مع الكفلية ومحاسبة النفس
وصلاح النية .

وقد دعا اليوسى الى التدبر فى أسرار الكون واستخدام
العقل لاكتشاف الحقائق العلمية ، وهو فى ذلك يقول : « ان
الله جل اسمه . . . خلق العقل وجعل غذاءه العلوم والمعارف ،
ويسر له الاستمداد من الموجودات . . . فما من شيء يبرز
فى الوجود من السماء والارض وما بينهما الا ويمكن أن يكون
للعقل فيه غذاء بحصول علم أو علوم . . . يجري ذلك فى الجواهر
والاعراض وما لها من الكميات والكيفيات والاولى والاعراض
والهيات » فهذه دعوة صريحة منه الى الاهتمام بالعلوم
الطبيعية والرياضية واستخلاص الفوائد منها والسعى الدائم
الى تطويرها وتنميتها ، وكذلك الامر بالقياس الى « أنواع
الصنائع والحرف وأصناف الحيل » .

وكان اليوسى أديبا شاعرا ذواقة كثير الاستحضار لكلام
العرب نثرا وشعرا ، حسن الاختيار يجيد استخراج الفوائد
والعبر من الشعر والحكم التى يستشهد بها ويحسن الافادة منها
فيما يرومه من تعليم ونصح وإرشاد ، ومن أمثلة ذلك هذا
البيت لامرئ القيس :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيقة الرجل

فهو لم يتناوله من وجهة النقد الادبى الصرف ، بل وجد
« أنه قد احتوى على مقتضى الشريعة الظاهرة والباطنة ،
وتضمن كل ما تحصل من دواوين أئمة الدين وأقاويــل
الصوفية » فالشطر الاول « معناه أن ما طلبته بالله فأنت منجح
فيه ، وهو كما قال فى الحكم العطائية : ما تسر مطلب أنت
طالبه بربك ، وما تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك » والشطر
الثانى « قد تضمن الشريعة كلها وهى أن البر خير ما تحمله العبد
وأخبره » .

وفى (المحاضرات) ، كما قلنا ، فصل طريف فى تذوق
الصوفية معانى الابيات والاشارات وتاويلها حسب المقامات ،
وقد أبدع فيه اليوسى اختيارا ورواية وتقريراً وشرحاً . مثال
ذلك أن انساناً أنشد بحضرة الشيخ مكنى الدين الاسمر
قول القائل :

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى

لما انتظرت لشرب الراح افطارا

الراح شيء شريف أنت شاربـه

فما شرب ولو حملتك الراح أوزارا

فأنكر بعض الحاضرين على المنشد هذا القول إلا أن الشيخ
مكن الدين قال للمنشد : انشد فان هذا الرجل محبوب (يعنى
من أنكر عليه الانشاد) . فيعقب اليوسى أن المقصود بالراح
هنا « الخمرة الربانية القلبية وهى لطف من الله تعالى ونور
يرد على القلب فاستعاروا له اسم الخمرة للشبه الواقع فى
اللذة والانفعال ، وهو الصهباء أيضا ، وبعد البيتين :

يا من يلوم على صهباء صافية

خذ الجنان ودعنى اسكن النارا

أي خذ جنان الشهوة وراحة النفس ودعنى أسكن نار الشوق
وما يتحمله أصحاب ذلك . « فالعبرة اذن بالمعنى الذي يقع فى
نفس السامع اذا كان من الصوفية لا بالقصد الذي توخاه
القائل حتى وان كان يفرغ الالفاظ فى قالب معانيها الحقيقية
لا المجازية . وقد استشهد اليوسى ببيتين لأبى نواس فى
ممدوحه يقول فيهما :

تغطيت عن دهرى بظل جناحه

نعمين ترى دهرى وليس يرانى

نلو تسأل الايام عنى ما درت

وأين مكانى ما عرفن مكانى

يقول اليوسى : « فكان هذا مشربا عندهم في حق أهل
كهف الايواء . . . » مع أن أبا نواس لم يكن يقصد الى هذا
قطعا وكذلك الشأن في بعض خمرياته كقوله :

إذا المشرون من شعبان ولست

فواصل شرب ليلك بالنهار

فالصوفية يرون في هذا : « موعظة في الاكثار من العمل
الصالح والتشمير للتزود للمعاد » . وللفاس فيما يعشقون
مشارب .

ويورد اليوسى أمثلة أخرى من أشعار العرب يكون فيها
المعنى الذي قصده الشاعر قريبا مما يفهمه الصوفية منها ،
ومثال ذلك قول عنتره :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى

حتى يوارى جارتى ماواها

انى امرؤ سمح الخليفة ماجد

لا أتبع النفس اللجوج هواها

يقول اليوسى : « فلن هذا في باب العفة والتحلّى بمكارم
الاخلاق في الجملة صريح . ويعتبار الريضة والمطلوب من
التحلية والتخلية عند السالكين اشارة ، وهى كافية في المقصود
لان مخالفه الهوى هو ملاك الامر كله ، ومثل هذا لا ينحصر في

شعر العرب فقلما يخلو بيت أو أبيات من معنى أو معان ، فان
الحكمة قد أنزلت على السنة العرب .

ويأتى اليوسى بهذا البيت المشهور لابی الطيب المتنبى :
لك يا منازل فى القلوب منازل

أقفرت أنت وهن منك أو اهل

فيقول : « يفهم منه سوى مقصود الشاعر أمور منها :
ان المنازل هى مظاهر الكائنات كلها ، والقلوب قلوب أرباب
الاعتبار والاستبصار ، فيقول ان لهذه الحوادث فى قلوبهم منزلة
من الحدوث والافتقار الى الفاعل المختار يتعرفون بها وجود
الله تعالى وما له من الاسماء والصفات الطيبة ، فهى مقفورة
داثرة فائية ، والقلوب عامرة منها بالتوحيد . »

وفى (المحاضرات) أيضا فصلان ضمنهما اليوسى طائفة
من أبيات المعانى عند العرب مع شرحها .

ولن أتحدث عن اليوسى الشاعر فهذا موضوع سيلجه ولا
شك من هو أقدر منى على ذلك ، غير أنى رأيت من الفائدة أن
اختار فقرات من كلام اليوسى اما لجمال أسلوبها أو لما تتضمنه
من آراء وتأملات فى مسائل اجتماعية وإنسانية أو لما تنطوي
عليه من حكمة ونظر صائب :

الانسان والتمدن

« ان الانسان انما احتاج الى التمدن للقيام بالمتاجر

والحرف وسائر الاسباب التى ينتظم بها أمر المعاش والتعاون على المنافع الدينية والدنيوية ، ولا يتأتى ذلك عادة الا بكثرة الناس لتحصل عمارة الاسواق ، ويحصل من كل حرفة وصناعة وسبب وعمل عارف أو أكثر يقوم بها .

« ولما كانت المدينة تجمع أخلاط الناس صار ساكنها فى الغالب غريبا عن نسبه ، فقد لا يكون بينه وبين جار بيته نسب ولا معرفة ، فاذا نشأ نسله انتسبوا غالبا الى البلد لا الى قومهم . »

« أن نسب الانسان الاصلى هو الطين . . . ثم لكل فرد منه بعد آدم أصل آخر وهو النطفة . . . نعم ، يشرف الانسان بخصوصية تزداد على جسمه الطينى كالعقل والعلم والدين مثلا ، فيثبت له الفضل ويثبت لبعض على بعض . »

« وأما التراب فهو مهاد الانسان وفراشه حيا وكفنه ميتا ، ثم هو منبع الماء الذي به الحياة ، ومنبت الزرع وجميع الاقوات للانسان وغيره من الحيوانات ، ومنبت العقاقير التى بها الاستشفاء ، والمعادن التى بها قوام العيش والتى بها التعامل . فمنافعه لا تحصى ، وليس فيه من المفسد والمضار الا ما هو تافه يضمنحل فى جنب المصالح والمنافع . »

ميزة الانسان واصناف الناس

« والانسان لفظ واقع على آدم وعلى ذريته أبدا اسما

للقدر المشترك فيه ، وهو الحيوان الناطق أي المتفكر بالقوة ، والآدمي كله مشترك في هذه الفضيلة ، ولذا سخر له غيره ، وابتلى هو بالتكليف بمعرفة الخالق تعالى وعبادته ، وهذه مزية أخرى لجميعه . وقد خصه الله تعالى في أرزاقه وفي خلقه وفي خلقه وفي لباسه وركوبه .

« الناس ثلاثة : رجل كان أصيلاً ثم قام هو أيضاً يشيد بنيانه ويحوط بستانه كالذي قبله فهذا أكرم الناس وأولاهم بكل منخر . ورجل لا أصل له ينتمي إليه ، ولا حسب يعرج عليه ، ولكن انتفض في اقتفاء المآثر ، وانشاء المفاخر حتى اشتهر بمحاسن الخلال ، وصار في عداد أهل الكمال . . . فهذا أخرى من أن يشرف بوصفه وحاله ، وإن يشرف به من بعده . . . ورجل له أصل قديم وشرف ثم لم يبينه ولم يجدده ، وهو أما أن تخفى عوامله فلم يبين ولم يهدم . . . والمراد أن يرجع إلى غمار الناس . »

بقاع الارض ومظاهر التفاوت بينها

« ان بقاع الارض كأفراد الانسان ، وهي كلها مشتركة في كونها أرضاً وتربة ثم تتفاوت في المزايا الاختصاصية أما من ذاتها بأن يجعلها الله تعالى منبتاً للعشب ، وهي أفضل من السبخة ، أو مزرعة وهي أفضل من النكود ، أو سهلة وهي أفضل من الحزن ، وقد ينعكس الامر ، أو معدنا وتتفاوت بحسب الجواهر المودعة فيها ، أو منبعاً للماء ، وتتفاوت بحسب المياه ،

أى غير ذلك من مختلفات الفواكه والأشجار والأزهار وسائر
المنافع ، وأما من عارض كأن يختصها الله تعالى بكونها محلا
لخير : أما نبوة بيّنة ، ، وأما علم ، ، وأما زهد أو عبادة ، ،
أو ملك أو جود أو نجدة أو جمال أو خلق حسن أو غير ذلك ،
حتى رخاء العيش وصحة الهواء ، فكل ذلك ونحوه يكون به
الشرف والاشتهار ، كما يكون الاشتهار في النقصان والمذمة
بأضداد ذلك .

تعظيم العلم

« كنت في أعوام الستين وألف مرتحلا في طلب العلم
فدخلت قرية في أرض دكالة فرأيت فيها رجلا مسنا قد لازم
المسجد منقطعا عن الناس فجلست إليه مستحسنا لحاله ، وفي
التحديث : إذا رأيتم رجلا قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطق
فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة . فلما دنوت منه إذا هو يعظم
العلم وأهله تعظيما بالغا ، فازددت به عجبا ، فكنت أجلس بين
يديه ويحدثني ويصبرني على الغربة ويخفضني على العلم . . .
وأنشدني بشأن الغربة ملحونا :

أنا الغريب المتروح صابر على كل هانا
إلى تنجرح ما نقل أح في قلب من قطعت أنا »

قصور العقل

« لما كان العقل أيضا معرضا للخطأ وللقصور عن كثير من

المصالح ، وللجهل بكثير من المدارك ولا سيما المغيبات ، لان
النقصان شأن المخلوق ، افتقر هو أيضا الى مؤيد : اما الى
اليهام من الله تعالى ، واما عقل آخر أكمل كما في حلل التربية
وتلقين الحكمة ، واما وجى سماوي وهو أكمل ، فأنزلت الاحكام
وشرعت الشرائع ، وانتسبت الاحكام اليها عند أهل الحق لا
الى العقل ، فصار العقل مؤيدا للشرع ومتأيدا به .

النفس والنعمة

« النفس انما تجد النعمة ما دامت متناولة لها ، فاذا
انقطعت عنها تكدرت كالصبي الراضع متى صرف الثدي عن
فيه صاح » .

التدوين والاسناد عند المفاربة

« كان من دأب شيخ مشايخنا أبى عبد الله محمد العربى
بن أبى المحاسن يوسف الفاسى أنه متى لقي انسانا يسأله من
أى بلد هو ، فاذا أخبره قال : من عندكم من أهل العلم ؟ من
عندكم من أهل الصلاح ومن الاعيان ؟ فاذا أخبره بشيء من
ذلك كله سجله . وهذا الاعتناء بالاختيار والوقائع والمنانيد ضعيف
جدا فى المقاربة ، فطلب عليهم فى باب العلم الاعتناء بالدراية
دون الرواية ، وفيما سوى ذلك لاهمة لهم » .

النية والعمل

« قانون أنت أيضا ان لو كانت لك قوة على اظهار الشريعة واحياء السنة واخماد البدعة وحسم الباطل واغاثة المهضوف ونصر المظلوم واقامة ميزان العدل واصلاح العباد والبلاد ، نمسى أن تنال بهذه النية خيرا » .

كلام الحجة حجة

« قد جرت عادة من ألف بل من كذا برسالة أن يتسمى في كتابه ليعرف ، وفي معرفته فوائد منها : أن يعرف مذهبه أو مطلبه ليتمكن جوابه أو يشهد له أو عليه . ومن أهمها أن يعلم هل يوثق بنقله وعقله ويقتدى به في أصله ، فان كلام الحجة حجة ، وانما يعرف كونه حجة ومرتبطة من العلم بشهادة أهل العلم » .



وبعد ، فان أبا علي الحسن بن مسعود اليوسى علم من اعلام بلادنا ، وهب نفسه للعلم والتعليم وتلقى جل ما تلقاه من علم في بوادي المغرب لا في مراكز العلم التقليدية بالخواضر فدرس في زاوية الدلاء قريبا من تادلا ، كما تلقاه في درعة وسجلماسة ، وربما بدأ تعليمه الاولى في قبيله (آيت يوسى)

بملوية قبل أن يشد الرحال الى أقاصى البلاد ، وهذه ظاهرة تستحق من الباحثين كل العناية . وقد خلف اليوسى ذخيرة من المؤلفات والموسوعات فى شتى أصناف المعارف ، وما يزال معظم مؤلفاته مخطوطا ، وبعضها مفقود ، وأعتقد أن اليوسى لم ينل لحد الآن من الدارسين والباحثين العناية التى يستحقها بحكم المكانة العلمية التى احتلها فى حياته وبعد مماته .

وقد تعرفنا من خلال (المحاضرات) على ملامح من شخصية اليوسى وتفكيره وسلوكه على أننا كنا فى ذلك مقصرين بعيدين عن بلوغ الغاية التى توخيناها من هذا البحث .

ويمكننا أن نقول بإيجاز أن اليوسى كان اماما وكان كاتباً وشاعراً ومحاضراً ، وكان ميالا الى علم التصوف عارفا برجاله وكتبه .

وكان اليوسى جوالاً دقيق الملاحظة مطلعاً على أحوال عصره ، شجاعاً فى ابداء رأيه لا يميل الى المداهنة والرياء ، وكان شديد التمسك بالكتاب والسنة مطلعاً على علومهما معتدا بميزان العقل فخورا بثقافته العربية الاسلامية ، وهو بذلك مثال حى من أمثلة الاصاله المغربية التى تتجلى فى هذا التمازج الرائع بين أبناء مازينغ ويعرب فى ظل الاسلام الخالد ، هذا التمازج الذى صهر المغرب فى بوتقة الاتحاد ووحدة الانتماء : اتحاد الدم والوجدان والمشاعر والغايات ، والانتماء الفكرى

والروحي، والمعنوي، إلى الأمة العربية الإسلامية الكبرى .
وعسانا أن نحافظ على ذلك، ونقويه في إطار التجديد والانبعاث
والسير بثبات وثقة نحو المستقبل .

محمد العربي الفطاني

الرباط

الإمام الزبيري

(1040 - 1120 هـ)

في حلاله ومبأذله

عبد الرحمن الفاسي

طلب العلم في البادية والحاضرة ، بالصحراء وبالساحل ،
وبالنسوس وببلاد البربو ، فاجتمع له من عناصر ثقافة العصر
التي نفقت بعض فروعها في تلك الآفاق ، حتى امتلا منه الوطاب .
ومن حياض حضرة الدلاء في احضان الاطلس الصغير ،
عب ونهل ، وزاوية الدلاء يومئذ موئل رجال العلم عندما غاضت
في أرض المغرب حياضة ، وتعطلت بتوالي الفتن حلقاته ، وانهار
صرح الامان ، وصفرت ارجأؤه ، فانتهت الى تلك الحضرة
الدلائية رواغد علمية من كل صوب ، وتناثلت على ساحتها ارتال
الطلاب من كل جهة .

وبعد عشرين حجة كاملة بتلك الديار في الدرس والتحصيل ،
وفي الاقراء والاقادة والتلقين ، استوت بعدها مقوماته في العلم ،
وصقلت ادواته في البيان واللسن ، حتى اهرق بهما مشيخة .

أيضا في مضارب أهل « كيكو » ، وهم أهل وبر على قرب قريب من مدينة صفرو المستشرفة الى فاس :

وبحكم هذه العراقة في البداوة كانت تثيب من لسانه وتصرفاته في بعض المقامات بادرة غلاظة ، وتشمخر قناته على جفاوة ، فما الانتها فضلة علم تهيا له ، ولا طراوة مرع فيها ، ولا انسية روجيين اغترف من نبعهم شابا وشيخا ، ولقد استهلته حياته صارخة في العاصمتين باحدى تلك البدوات ، وكادت تلوي بمصير مستقبله عن مجراه ، لولا وجهته العلمية التي شغفت له ، ومروءة أهل الحاضرتين التي تجاوزت بالاغضاء عن تلك الفرطات وأغضت عن الوشلات .

وهكذا نلتقى به عند قدومه في اعوام الستين والفنداء لطلب العلم بالزاوية البكرية ، وهو يومئذ طري للعود بطري الثقافة ، ومن فتوته على غرارة ، فقد دخلها وهو ينتفج ضيالا بمسكة من العربية أخذها من بلاد القبلة ، وبما شذذ جفرا كثر من عتق في الاصول ، والمنطق ، والكلام وشذور من غنوز أخرى لا تسمن ولا تغنى في الدلاء دارة العلم الكبرى ، فقد اتفق لدى دخوله الزاوية ان وجد نفسه وجها لوجه امام الشيخ أبي عبد الله المرابط (1021-1089) المذكور ، وهو أحد ابناء القطب الشيخ أبي عبد الله محمد (فتحا) امام الزواية الدلائية في العلم والولاية وشمس انوارها ، وسادتها بعد ابيه أبي بكر ، مؤسسها ، ومؤئل أمجادها ، وقد امتاز أبو عبد الله المرابط بالامامة في المعقول والمنقول ، وبحظ وافر ، في العربية ، واللغة ، والآداب ، وبما

أقرأ وأفاد ، وبغزاة شعرية ، وببراعة نثرية ، قيما رصع من خطب تعالت بها المناير ، وبما رصف من رسائل ازدانت بها الدواوين . ثم هو بعد ، أحد القلائد الذين سارت شهرة آثارهم العلمية في المغرب والمشرق مسير الشمس ، وطار في الأشادة بامامته أشعار أهل الغرب والشرق (5) .

وتلك هي مكانة أبي عبد الله المرابط ، عالم الدلاء ، الذي كان للمطالب اليوسى معه أول لقاء ، وكادت تشوبه شائبة جفاء ، حسبما يفهم من القصة ، كما حكاها اليوسى نفسه في كتابه « المحاضرات » ، على سبيل المباهاة ، فقال : (6)

(فدخلت الزاوية البكرية فوجدت شيخنا أبا عبد الله محمد ابن محمد المرابط رحمه الله قد جمع خطبا وعظية ، وتقدم الى أهل الوقت في بلده ليكتبوا عليها تقریضا فكتب كل ما قدر له من نثر ونظم ، فلما رأيت ذلك ، كتبت أنا أيضا ، فوقع في مكتوبى لفظة القطائف ، فاعترض على ورام تبكيتى ، وقال انا لا نعرف القطائف الا هذه المفروشات ، فقلت له ان القطائف هنا جمع قطفة بمعنى مقطوفة ، فقال هو صحيح في اللغة ولكن الأدباء لهم الاختيار وعندهم ألفاظ يستعملونها مخصوصة فلا يرتكب عندهم كل ما يقع في اللغة ، فقلت له حينئذ هذا أبو محمد الحريري يقول في مقاماته :

5 — انظر ما يتعلق بشهوته في الشرق ، كتاب : « الدور الضاوية » ، لسيدى سليمان الجوات . وقد أورد في ترجمته مجموعة كبيرة من مختارات شعره ورسائله .

6 — ص : 141 — 142 .

فلا تعذلونى بعدما قد شرحته
على أن منعم في اقتطاف القطائف
على أن ما زودتم من فكاهة
للغ من الحلوى لدى كل عارف
فتلون وجهه رحمه الله ، وخجل ، ولم يراجعنى بكلمة ،
فلولا معرفة المقامات واستحضار هذا البيت ، لاخجلنى عوض
ما كنت أخجلته) .

وواضح ان الشيخ اليوسى ظل على وهمه في الانتصار ،
وعلى تتالعه بالمباهاة ، حتى عند تأليفه « المحاضرات » ، فلم
يتوفق مع مضي الزمان الى ما رمى اليه الشيخ من التفاتة
شعرية في ذلك المقام .

لقد حسب التلميذ أن الشيخ فاتته ان القطائف جمع القطيفة
بمعنى المخطوفة ، وهذا ينم على أن هذا منتهى ما كان ينظر اليه
الفتى لدى وصوله الى الزاوية ، ولما لفت الشيخ نظره بما
يفيد ان الامر يتجاوز هذا الى ملحظ اللغة الشعرية ، احتج عليه
من كلام الحريري بقافية ، ونسى ان المعانقة بين كلمتي القطائف
واللطائف طلبا للجناس هي نفسها الآفة بين الكلمتين حتى في صياغة
صاحب المقامات ، وان الجمع بينهما بما اجتمع فيهما من طائين ،
قد أطفأ وضائها الشعرية ، كما هو واضح في الابصار والاسماع
ولولا الجناس ، لظلت شعرية الكلمة قائمة الذات ، ومن ثم كان
قبول صناعة البديعيات اللفظية منوطا بأكثر من عيار وقيلاس ،
ثم ان الحريري — وهو طالب صناعة — ليس بحاجة على أي حال

في مثل هذا المقام ، وذلك ما خفى على الطالب الفتى ، وحمل الشيخ على أن يتغاضى ويفسح له في الانتعاش ، ليستقبل دراسته بتفتح ونشاط .

وفي ظلال هذه الرعاية ، قضى في زوايتهم عشرين حجة ، نهل فيها من حياض علومهم ، وانتفع بجمهرة الاعلام الذين كانوا يحجون الى رحابهم ، وتأهل وأنجب في ارضهم ، واقتدى في كل ما يأتى ويذر بهديهم ، وسير رجالهم ، واصبح الطلب الموصول بالاقراء ، والاخذ المقرون بالعطاء ، قربي علمية أفاءت عليه بجميع مقومات معرفة اهل الدلاء ، وبمسالكهم الى سبيل اولياء الله .

وعد عن مختلف فروع المعرفة بمعقولها ومنقولها ، التي كانت رائجة في تلك الحلقات ، وماثلة في حلتها الاسلامية نسيجة العلم والعمل والعقيدة ، فقد كان لها في علم الادب وعلم التصوف مجالس مشهورة ، وبرامج مقررة ، أصلت لثقافتهم سماتها الخاصة بها ، وهي نفس المقومات العلمية والتربوية التي تأثلت للزاوية الفاسية ، وأتاحت للزاويتين تقارض الاخذ والعطاء ، ولن يستطيع أي باحث أن ينكر تأثير البرامج الادبية لمدرسة الدلاء في مدرسة فاس ، فبه تكاملت لاعلام العصر من تلامذة المدرستين ، تلك المقومات ، وطبعت آثارهم بتلك السمات ، ومن اليسير أن نستجلي من القسمات الواضحة لمدرسة الدلاء عنصر أدبها الذي كان له حظه الاوفر في البرنامج الاصلى للتعليم ، منذ قيام الزاوية في أوائل القرن العاشر ، والمعروف أن « الكامل » للمبرد ، و « أمالي القالى » ، و

« مقامات الحريري » ، كانت من صميم مواد الدراسة في منهاج الدلائيين ، وان فهارس واجازات أعلام العصر ، لتعرض علينا أسانيد موصولة بأصحاب دواوين الأدب الكبرى وغيرها ، مما يدخل في علوم الادب المصطلح عليها ، كالقائى ، والمبرد ، والجوهري ، والحريري ، والخزرجي ، والبصيري ، وغيره من أصحاب الامداح والمقصورات في الادب العربي .

أما الوجهة الصوفية ، والعلوم الدنية ، فانوار معارفها هي التي أضاءت ذلك الصرح في بداية الامر ، فاهطم اليه المريدون من كل حذب وصوب .

ولقد كانت سماتها ماثلة في الاساس ، ومنذ نقطة الابتداء في وجهة التصوف ، الذي أخذوا به نحلة شاذلية ، ثم نظريات دراسية ، فكانت رسالة القشيري ، وحكم ابن عطاء الله ، مما يتدارس في تلك الحلقات ، وليس من شك في أن الركون الى الشاذلية ، قد حمى ذلك الحمى من مزالق وحدة الوجود ، ومن المتشابه في الحكم العطائية الساجعة بوحدة الشهود ، وكان ابن عطاء الله يلتقى في ساحتهم مع الامام ابن تيمية (7) وان فرقت بينهما النحلة ، واستشرت بينهما في الديار الشرقية

7 - لقد خلط ابن تيمية بين آراء الشاذلية وبين ابن عربي ومدرسته ، كما اختلطت عليه وحدة الشهود بوحدة الوجود عند ابن عطاء الله الذي ينفي كل صفات الحلول عند تحدته من وحدة الشهود والذي يقول : (الاكوان ثابتة باثباته متحدة باحدية ذاته) انظر الحكم ج ، 2 ص : 89 ، وانظر الرسائل الكبرى لابن تيمية ج 1 ، ص : 154 .

البغضاء والقطيعة ، وذلك أصل الجمع عند تلامذة المدرستين
الدلائية والافاسية بين التصوف السنّي ، وبين الحكم العطائية
التي تدارسوها واستظهروها ، واستجازوها ، وبالرواية
والاسناد أجازوا بها ، وذلك من مظاهر عنايتهم بفروع العلم
صغيرها وكبيرها .

والظاهرة التي تسجل في المقام ، هي أن محصول أبي
على اليوسى في طريق القوم ، أو محصوله من علم الباطن
— كما يقال — قد كانت له مسالكه وبواكيره في مهاد تربيته
الاولى منذ صباه ، وقبل أن يشرئب الى أفق الدلاء في مطلع
الشباب ، فهو يذكر في الفهرسة أنه ما كاد يستظهر القرآن حتى
توجه به والده لزيارة الولي الصالح أبي يعزى (8) ويذكر في
السياق نفسه أنه استفاد من مجموع لمعلم القرآن كان يحتوي
على حكايات الصالحين ، كأويس القرنى ، وإبراهيم بن أدهم ،
والخواص ، فانتشرت تلك المآثر في عقله ، ووقعت حلاوتها في
قلبه ، فكانت من ثم بداية انعام الله عليه بالطريقة ، والتسليم
لاهل تلك الشريعة .

كما أن بداية صحبته واتصاله بالشيخ الامام الحافظ ،
الجامع ، الزاهد الناسك ، أبي عبد الله محمد (فتحا) الدرعى ،
صاحب الزاوية « بقمكروت » (9) (ت. 1085) سبقت التحاقه

8 — دفين « تاغيا » من قبيلة زيان باقليم خنيفرة اليوم .

9 — باقليم ورزازات ، وولده وخليفته بالزاوية ، ومات سره هو الشيخ
الامام أبو العباس أحمد ، صاحب الرحلة الحجازية المعروفة بالرحلة
الناصرية .

بالزاوية البكرية ، بوقد كانت معارف شيخه الناصري ، لا تقف عند النهل من عين الحقيقة ، ولكنه ارتوى من علوم الظاهر ، فدرس وألف ، مع الضبط والاكباب ، ونفع طلبة الباطن والظاهر ، على السواء ، وكانت له إلى الحجاز رحلتان لقبيل الخلق فيهما على صحبتته بالمشرق ، مثلما تهافتوا عليها في المغرب ، وقد اعتمده أبو علي اليوسى في الميدانين ، وقال عنه في فهرسته : (وهذا الشيخ هو الذي أخذنا عنه العهد والورد ، وإليه ننتسب ، وكل من ذكره سواء ، فعلى طريق انتفاع ما) .

ومع ما هو معروف من أن شيخه ابن ناصر كان ملازماً لدراسة الحديث ، فإن اليوسى الطالب المريد ، اقتصر في الأخذ عنه بالنسبة لغلم الظاهر على علم العربية ، وللشيخ الناصري في هذا المجال تمكن ورسوخ ، تمكنه من متن اللغة ، فكان لا يتقطع عن نسخ القاموس ، حتى ليصح قول من قال ، أنه كان من أيسر محفوظاته ، مثلما كان يستظهر التسهيل لابن مالك ، ويصوغ القواعد النحوية صياغته للحقائق اللغوية ، كما حضر عليه في درس التفسير و « الصحيح » و « الشفا » و « المدهل » و « الاحياء » و (طبقات الشعراني) ، وأحسب أن طالبنا المريد ، قد أكب على مورد الباطن ، حتى ارتوى وشمك ، وأخذ يبدو له من واقعاته في الحضور والغياب مع شيخه ، أنه ورث عنه تلك الرسالة وانفرد بالخصوصية (10) ، وكان شأن اليوسى مع شيخه المرابط الدلائى ، على نحو من اختيار ظاهر

10- انظر « نشر المثنى » ، ج : 2 ، ص : 19 ، طبع بمطبعة .

أيضا ، فمع ان شيخه المرابط الدلائلي كان من أهل التصوف ومن أئمة تدريس الحديث ، فان طالبنا الفتى انما خف الى مجالسه في العربية والمعقول ، واقتصر من مجلس التفسير على بعض الدروس ، وهو ينظر في ذلك قطعا الى أن علم المعقول قد انتهى اليه من غير خلاف ، وقصب السبق في العلوم اللسانية ملك يديه ، وللشيخ اليوسى شهوات قاهرة ، ان في عهد الطلب أو الاستاذية.

واذا كان يبدو من طريقته الصوفية أن ليس فيها عن الدلائلية أخذ ، ولا ورد ولا عهد ، فان عهد الشاذلية يجمع بين الزاويتين ، والطريق الدلائلية اليها لاحبة من جهتين ، فمن المعروف أن الامام أبا عبد الله ابن ناصر عمدة اليوسى ، الذي أخذ عنه الورد والعهد ، واليه انتسب ، يسند عهده عن الشيخ عبد الله بن حسين الدرعى ، عن أبى العباس أحمد بن على الحاجى ، عن أبى القاسم الغازي عن أبى الحسن على بن عبد الله السجلماسى عن الشيخ أحمد بن يوسف الراشدى عن الشيخ زورق ، وسند هذا الى أبى الحسن الشاذلى معروف ، وكما أن للسادة الدلائلية اتصالا بأبى الحسن الشاذلى بواسطة الشيخ محمد بن سليمان الجزولى ، وذلك من طريق أبى بكر شيخ الزاوية الدلائلية ، ومن طريق الشيخ عبد الله بن حسون دفين سلا ، ومن طريق الشيخ محمد البكري الصديقى المصري ، ثم من طريق الشيخ أبى المحاسن يوسف الفهري الفاسى فان لهم أيضا اتصالا بواسطة الشيخ زورق عن طريق الشيخ أبى المحاسن الفاسى ، وذلك أن شيخه المجذوب ، كما روى عن أبى حفص الخطاب عن أبى فارس عبد العزيز القبايع عن الشيخ سليمان الجزولى

كذلك روى (عبد الرحمن الجذوب) عن أبي الحسن علي بن أحمد الصنهاجي الملقب بالدوار ، دفين خارج باب الفتوح ، وهذا عن الشيخ ابراهيم الحجام (صاحب المزاراة بجبل زرهون) عن الشيخ زروق ، وبهذا شارك الامام اليوسى شيوحة الدلائين في الانتساب الى الطريقة ، وفي المسلك الى دليلهم لعين الحقيقة ، واذا كان اليوسى قد سجل اعتداده بشيخه الناصري بعبارات يتجلى فيها القصد والعناية بذكر المبدأ، والمنتهى مع ذلك الشيخ، فان عشرين سنة في صحبة أولئك الدلائين ، المعروفين بالنسك والصلاح ، وتربية المريدين بالنصيحة والتلقين ، لمن شأنها أن تفتح البصائر ، وتبذر الكمال النفسى فى البارح والسانح بتلك المناهل ، فلا مناص من تسجيل دلائيمه الروحية الى جانب تلك المواهب الناصرية .

وهكذا ففى غمرة من جلال دلائية علم الظاهر والباطن، وجمالية فنون أدبها الباهر ، تلقت حاضرة فاس الامام اليوسى عالم الدلاء وفسح له السلطان الشريف المولى الرشيد، مثلما فسح للسادة اعلام الدلاء ، فى الرعاية والاعتبار (فأقبل عليه الناس اقبالا عظيما فكان حيثما قرأ أطبق الناس عليه) ، (وتراحمت الركب على بابه مثنى وثلاث) (11) .

وقد كان الامام اليوسى حقيقا بهذا الاقبال لحدقه الصناعة فى التدريس ، وانهمار عارضته فى المجلس بالانشاد ، وبالتحقيق

11 - « نشر المثنى » ، ج : 2 ، ص : 142 ، ط : الحجرية .
- « صنوة من انتشر » للامراتى ، ص : 207 ، ط : الحجرية .

ولكنه لاحظ أن أعيان فاس ، لم يقبلوا على حلقة بجمعهم ،
ولم يتهافتوا على ما جاءهم به بأكتهم وأبصعهم ، فاستهل
عهده في فاس ببادرة غلاظة ، أربت على بادرة الدلاء بالانشاد ،
وبافاضة اللسان ، فقال مشبها حاله وحال فاس وأعلامها ، من
غير احتراس :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها
علمى ولا عرفوا جلالة منصبى
لو أنصفوا لصبت الى كما صبا
راغى سنين الى الغمام الصيب

وهكذا ، فقد نظر في الشطر الثانى من بيته الى قول الشاعر :

وحديثها كالتقطير يسمره
والهوى سفسين تقابعت جديبا

فهو - كما ترى - قد جرح بعنجهيته علماء فلس يتتابع
الجذب ، والحاح المخل ، الى أن أنهمر عليها من علمه ذلك السيل ،
وكان من حق أهلها أن ينسجموا مع طبيعة الاشياء ، ويتتالعوا
بأعناقهم اغتباطا بهذا الصيب الهتان ، وكذلك انتفخ اليوسى بغير
قياس ، وانتفج بالاثانية والكبرياء ، وحسب أن الدلو هفا من تلك
الدلاء ، ولكن سرعان ما بدمه الجواب على نفس الروى والميزان :

بل أنصفت فاس ومن انصافها
أبدا سقوط المدعى والمعجب

تتفى الدجاجل عاجلا أو آجلا
منها ، فهى طريدة من يثرب

وكان الجواب صادرا عن أبى زيد عبد الرحمان الفاسى
(1040 - 1096) ، الملقب بسيوطى الزمان ، أصغر أنجال
الامام ، أبى البركات وأبى محمد عبد القادر الفاسى (1007 هـ
- 1091) ، وأبو زيد يومئذ فى ميعه صباه ، والشعر على لسانه
جاوة اندفاع ، فلسعت أبا على قولته الشائنة بالتدجيل ، فهب
كالعاصفة يترنح أمام الشيخ عبد القادر بالتشكى والتهويل ،
ولكن الامام الوالد عبد القادر ، وله رجاحة الشيوخ ، وغراسة
الاولياء ، وملكة الافتاء فى ما ينزل بالناس من أقضية ، وما يعن
من شؤون وأحداث ، أجابه من غير مقدمة أو اعتذار : ان البادى
أظلم ، وأنت أزلت عنك جلباب الوقار ، وبخست مقدارك بتصديق
لمعارضة الاحداث ، واصغائك لمقال من لا يساويك فى علم ولا
لسن بحال .

وأحسب أن صوت العالم الشاب أبى زيد الفاسى فى قصة
الامام اليوسى ، قد ألصقها فى أذهان الناس بصراع النفوذ
العلمى بين اليوسى وبين آل الفاسى ، واستمرا صاحب فهرسة
الفهارس (12) الجنوح الى هذا المعنى فقال : (ان اليوسى ألف
كتابه « المحاضرات ») بسبب ما كان وقع بينه وبين أبى زيد
عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى ، رحمهم الله ، لما افتتح
التفسير بالقرويين) ، فى حين يلاحظ أن صاحب نشر الثمانى قد

سجل في ترجمته أنه ألف المحاضرات (كالجواب عما أجاب به بعض أهل فاس عن بيتيه السابقين) ولم يركز ، على الامام أبي زيد الفاسي صنع صاحب الفهرسة والواقع أن درسا واحدا من املاءات أبي على اليوسى ، كان كافيا للتعريف به ، وتعبير علمه ، بالمقياس الدقيق السليم ، فما به من حاجة الى تأليف ، ليدل بفيضه على ما آتاه الله من علمه ، لاسيما وليس في كتاب « المحاضرات » أي تلميح لمعارضة ، أو لحسد ، أو غبطة ، فكيف بالتركيز على هذه القصة ، بل ان كتاب « المحاضرات » ، يمتاز بليوننة العطاء ، امتيازه بسجاجة البيان والاداء ، حتى انه لم يحجم فيه عن الاعتذار عن البيتين بقوله : (لكن للنفس فرطات ، ولا بد لها أحيانا من سقطات) .

وما كان في وسعه غير ذلك بعد أن طالع الشيخ عبد القادر بما فرط من أبي زيد ولده ، وحده أدبه وادراكه ، الى أن يعتبر القضية منتهية ، وبكلمة الشيخ عبد القادر مجلوبة ، فقد قطعت على الطرفين ما يوسوس به الجنان ، أو يجري على أسنة الاقلام ، ولو أنه بقي شيء في نفس اليوسى ، مما تراشق به مع أبي زيد ، لطما على لسانه في قافية ، أو وثب الى متن إحدى رسائله ، أو كتبه السائرة ، ولكنه كان صادرا فيما آتاه عن معرفة وتقدير لمقام الشيخ عبد القادر ، وأهله ، وهو الذي أهدى الى الاخذ عن الشيخ ، بعد الذي فاتته في حلقاته ، فاستفاد منه بالمحاضرة والمذاكرة في مجالسه ، وعقد معه عهد مودته واخائه ، ثم هفا الى طلب اجازته فأجازه ، كما عرفنا قبل مما حلاه به ، واعتد اليوسى اعتدادا بهذه المشيخة ، فسجلها في فهرسته ، وفي آخر

محاضراته ، وفي الكتاب الذي قدم به التعزية عند وفاة الشيخ
عبد القادر الى ولديه ، أبي زيد ، والامام أبي عبد الله محمد
(فتحا) شقيقه .

وفي خطابهما يقول : (13) : (الى البدرين النيرين ،
والبحرين الزاخرين ، والدرتين الفاخرتين ، والهضبتين الشامختين ،
والامامين المحترمين الفاضلين ، أبي زيد عبد الرحمن ، وأبي
عبد الله سيدي محمد (فتحا) ، ابني الامام الهمام ، نخبة
الليالي والايام ، شيخنا أبي محمد سيدي عبد القادر بن علي
الفاسي ، سقى الله ثراه ، سلام على ساداتنا ورحمة الله
وبركاته ، وعلى من احتوت عليه تلك الاندية العاطرة الرائقة ،
من فروع شجرتكم المباركة الفائقة ، وسائر من احتوت عليه
تلك الزاوية الكريمة من الاخوان الملازمين المحبين الزائرين) .
وبعد فقرات من هذا القبيل ، يقول :

مصاب لو أن الارض نال أديمها
لما أنعت نهرا ولا أنعت زهرا
ولو أن آفاق السماء أصابها
لما أطلعت شمسا ولا أنزلت قطرا

13 — انظر النص الكامل لكتاب تعزية اليوسى في ترجمة أبي البركات
وأبي السعود الشيخ عبد القادر الفاسي في الجزء الثاني من كتاب
« نشر المثنى » .

الى أن يقول في الاخير : (نسأل الله أن يجبر بوجودكم
ثلمه ، ويخلف بعلومكم علمه ، ويفتح أبواب الهداية بمستقيم
منهاجكم ، وينور أرجاء الديانة بمضى سراجكم ، فما ضل
بعون الله ، من كان له مثل ذلك الشيخ سلفا ، ولا هلك بحول الله
من كان له مثلكم خلفا) .

وبعد الكلام في رسم التعزية والاعتذار عن التقصير
— على حد قوله — في ما يجب للمقام ، ختم خطابه بهذا المقال :
(والمطلوب من كمال سيادتكم أن تتحفوا هذا العبد الظلوم لنفسه
بدعوة في ذلك المجمع سالحة ، من قلوب حاضرة) .

وهذه نغثات تدل على طوية حسنة ، وقلب سليم ، لم يكن
لينطوي على ما يكدر سريره تجاه أبي زيد الفاسي ، وقبيله ،
ومما يشهد لذلك ، أنه بادر الى نصره الامام الحافظ الضابط ، أبي
عبد الله محمد المهدي الفاسي ، مؤلف « النبذة اليسيرة واللمعة
الخطيرة في مسألة خلق الافعال الشهيرة » ، وهو أحد المؤلفات
التي رد بها على سقطات الشيخ أبي اسحاق ابراهيم الكوراني
الشهرزوري المدني (1025 - 1101) .

ومن الملاحظ أيضا أن الامام الفاسي ، صاحب التأليف
المذكور ، كان يعتد برأي الامام اليوسي ، ويرجع اليه ، مستقيا
من قلب عمله ، وفضلة اطلاعه ، حسبما يعلم من جواب اليوسي ،
الذي نقله من خطه ، القادري في « نشر المثنى » .

وفي « محاضرات » اليوسى ، ثناء جميل على شيخه (41) الامام ، أبى حامد الفاسى ، صاحب «مرآة المحاسن» ، وتنويه بهمته فى التبييض والتسويد وبما يشهد له بالرواية الى جانب الدراية ، وبالعناية بالتواريخ ، ثم نقل من كتابه « المرآة » كلمته الشهيرة عن اهمال المغاربة لتاريخهم ، وضياح الكثير ، بسبب ذلك من فضلائهم .

وأحسب بهذا أن العبارة الماكرة فى كتاب « فهرسة الفهارس » لا تحتاج فى ردها الى تسجيل كل ما هو متناثر فى مؤلفات الامام اليوسى ، من الثناء على أعلام البيت الفاسى ، والانحياش الى رعييلهم ، والسير على هديهم ، ومثله ما ورد فى مؤلفاتهم ورسائلهم من التنويه بامامته ، ومشاركته ، وبارع أدبياته .

على أن قصته مع طلبة فاس لم تقف عند التراشق مع أبى زيد الفاسى بتلك التقوافى العابرات التى أقصر بعدها أبو زيد ، وذلك عندما حسم الشيخ عبد القادر بكلمته فى ما جرى وكان ، ولكن المفهوم من فقرة وردت عند الاقرانى (15) (أنه وقعت بينه وبين طلبة فاس محاورات شتى) كما أن المتناثر من أخباره عند مترجميه ، وعلى لسانه فى بعض رسائله ومؤلفاته ، يشير — كما سمعنا — الى ظاهرة شذوذ جلبت عليه فضول مجتمع طلبة فاس وأشاعت بينهم على لسانه تقولات وتزيدات ، ودأبوا على مواجهته بكريه الاعراض ، حين غلب عليهم منا

14 — انظر « المحاضرات » ، ص : 59 ، ط : الحجرية .

15 — « صفوة من انتشر » ، ص : 208 ، ط : الحجرية .

في الطبع الآدمي من جحود لاقدار مثله من أولئك الرجسالي ،
الذين يشع ضياؤهم حتى من وراء حجاب ، وذلك ما أهاج
جفاوة أبي علي ، ونعبر عنها بعنجهيته العلمية في هذا المقام ،
فأطلق لها العنان ، ونفّس عن طبعه بما أخذ بيدي من ظاهرات
فضله وتبريزه على الناس ، وبما أفاء الله عليه من مواهب ليست
مما ينال بالاكْتساب ، ويدرك بالرواية أو السماع .

وقد كانت الأقوال السائرة عنه في هذا العراك ، مما لا
يصدر عادة عن الاعلام الذين جعلهم الله بالتواضع ، والظهور
بمظهر طلاب العلم بالأقوال والأفعال ، ومن مصاولاته السائرة
قوله في خطاب أهل فاس :

على رسلكم يا أهل فاس فائتني
فتى لست بالفدّم الغبى ولا الغمر

أنا الصّارم الماضى ، ويا زب نافث
يخلق في البحث الأديم ولا يفري

ولنذكر أن الاقدار ألقت به في مجتمع يختلف عن مجتمع
الدلاء ، فمجتمع فاس يضطرب بخلق من العلماء ، ومن أدعياء العلم ،
وبآخرين — وان اكتظت حواصلهم بمعارف أهل الزمان ، فقد
ظكوا خماسا من زاد التقوى ، ومعارف أهل الله ، فكان ممن
المنتظر أن يتخطف أولئك المنافسون أقواله تندرا ، ويحصون
عليه الانفاس سرا وجهرا .

وهكذا نراه أعلن في فهرسته (61) **يب وهو لا ريب** — مما كان **يبوح** بمثله في مجالسه .

(وكانت قرائتى كلها أوجلها فتحا ربانيا ، ورزقت والله الحمد ، قريحة وقادة ، وفطنة ذكية بأدنى سماع ، وأدنى أخذ ، ينفعنى الله ، فقد أسمع بعض الكتاب ويفتح الله على فى جميعه فتحا ظاهرا ، وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه ، ورب كتاب لم أسمعه أصلا ، غير أن سماع البعض فى كل فن سار بدوا للفتح ، وتنميما لحكمة الله فى سنة الاخذ عن المشايخ ، ولا تستوحش مما ذكرناه من قلة سماع الكتب والفنون ، ظنا منك أن الربح يكون أبدا على قدر رأس المال ، وكلا وقد يبلغ الدرهم ألف مثقال ، وما ذلك علم الله بعزير)

ومن هذا القبيل أن سائلا سأل يوما بدرسه عن مسألة فقال له : (أسمع ما لم تسمعه من انسان ، ولا تجده محررا فى ديوان ، ولا مسطرا ببنان ، وانما هو من مواهب الرحمان) .

ولا ريب أن الانتفاج بمثل هذا الفخار فى مجلس الاقراء مما يرفع جباه الطلبة عن الكراسات ، ويثير فى أعينهم الغمزات . ولم يتوان مرة أخرى أن يقول فى تقييده « القول الفصل فى الفرق بين الخاصة والفصل » : (انه بلغ درجة سعد الدين

16 — انظر أيضا فى صفوة من انتشر للانرانى ، ص : 206 ، ط حجرية .

التفتزاني (17) والسيد الجرجاني وأضرابهما بحيث يقبل من كلام العلماء ويرد .

وكان أيضا يرفع عقيرته قائلا : (لو شئت لا أتكلم الا بالشعر لفعلت) .

وهي قولة صدق ، فقد كان قرض الشعر بالنسبة له أسهل من التنفس كما قيل عنه ، وبراعته معروفة في ديوانه الذي جمعه بعض أصحابه ولاسيما في بدائع المطبوعات ، وتساجلة القدماء .

وقد طغت فيه صولته العلمية حتى على علماء المشرق الذين لم ينافسوه في كرسى علم ، أو قافية سائرة ، فقد ذكر الأديب الجليلي الاسحاقي في رحلته الحجازية ، عن بعض أصحابه أنه سمع أبا علي اليوسي بعدما رجع من حجته (18)

17 - سعد الدين التفتزاني صاحب الشرحين المطول والمختصر على التلخيص للقزويني ، وهما التاليفان اللذان أخذ بهما المغاربة في دراسة علوم البلاغة بعد أرجوزة الشيخ الطيب قديما وحديثا ، وعنوانا بذكر سندهما في الاجازات ، ويعني اليوسي بالسيد الجرجاني الشريف عليا ابن محمد المعروف بالسيد وبالشريف الجرجاني (740-816هـ) وهو صاحب الحواشي على شرحي السعد ، وكتاب التعريفات، وله شرح على عدة كتب في الاصول ، وشرح على الكشاف ، وكتب في الحياة والفلسفة ، وشرح على الجزء الثالث من كتاب المفتاح للسكاكي وهو نفس الجزء الذي لخصه القزويني ، وله شرح على كتاب المواقف للايحيى .

18 - كان خروج اليوسي من فاس بقصد الحج في 14 جمادى الثانية عام 1001 ، انظر رحلة ولده أبي عبد الله محمد ، الذي كان رفيقه في الحج ، ومثله في ترجمته من « نشر المثنى » .

يقول : (ما بقى بالبلاد المشرقية من تشد اليه الرحال في طلب العلم) وفي رحلة ولده أبى عبد الله محمد اليوسى هذر من هذا القبيل ، والواقع في هذه الافادة الواهمة أن أخذ العلم في الرحلات عادة ما يكون عن طريق الاجازة والرواية ، لأن ظروف الرحلة الحجازية لا تسمح بمداومة القراءة والاقراء ، ولم يكن لليوسى حظ من علم الرواية والاسناد الذي ينفق منه في هذه الاسواق ، ويظهره بالواعية الذي في وطابه ما يتزاحم عليه الناس ، وصدق فيه قول تلميذه الشيخ الامام المسناوي انه (لم يكن له كبير اعتناء بالرواية ، وانما كان الغالب عليه العلم دراية) ، ولذلك لم يستدع منه الاجازة أي مشرقى غير الخرشى شارح (19) المختصر ، الذي عنى كثير من المشاركة باستدعاء اجازته لانه كان واسع الرواية ومن همه أن يجيز ويستجيز ، وبالرجوع الى كتب التراجم نجد بالحجاز وغيره من مدائن الاسلام على عهد رحلته ، الجماء الغفير من اعلام الدراية والرواية كما نجد على عهد الخرشى في مصر أمثال عبد الحى الشرنبلالى ، وشاهين الارمناوي ، ومحمد ابن منصور الابطيحي ، والشمس البقري ، والعجمى ، وغيرهم كثير ممن استجازوا وأجازوا غير اليوسى من المغاربة ، كما هو الحال برحلتى الناصري والعياشى على سبيل المثال .

وهذا هو الاصل في أن صاحب فهرسة الفهارس لا يكاد يعثر على سند أدرج فيه اليوسى حتى يضع يده توا على محل

19 - انظر فهرسة الفهارس ، الجزء : 2 ، ص : 464 .

الوهم فيه باقحام اسم اليوسى فى سلسلة روايته ، فهو مثلا يستغرب ان الفقيه الصوفى أبا حفص عمر بن الطالب ابن سودة حدث فى مصر بحديث الاولية عن شيخه الازمى عن الشيخ القاودى ابن سودة عن ابن المبارك ، عن اليوسى ، عن الزرقانى شارح المختصر (20) مع أن اليوسى انما دخل مصر بعد موت الزرقانى المتوفى سنة 1099 ، فى حين أن خروج اليوسى من فاس بقصد الحج قد كان عام 1101 كما سمعنا ، فكيف يأخذ عنه ويسمع حديث الاولية ، وابن المبارك اللطى المذكور فى السند لم ير اليوسى وانما دخل من الصحراء الى المغرب سنة 1110 .

وعلى كل حال فيبدو أن مثل هذا التباهى من قمة كرسى التدريس ، وفى صلب المؤلفات والدواوين ، وبالنسبة الى أعلام المغرب والمشرق ، قد سار ولا ريب على هذه الوتيرة حتى فى ما يعلنه فى مجالسة ، فسارت الخفوة على مداها بينه وبين حسدته ، وأصبح لها دوى فى أعصابه ، فحميت الى حد توتره وشذوذ أحواله ، وخيل اليه معها أنه وصل الى درجة اليأس فى الاقناع بعلمه وقضله ، فركبته العقدة ، وهو ذلك الطارئ على قوم كابروا فى أهليته وتبريزه ، وأصبحت تلح عليه الغضاضة كلما اعتلى بجامعة القرويين كرسى تدريسه ، فاذا الدوار يلوي برأسه ، والصداع يلتهب التهابا فى صدغه ، وكأنما شيطان مريد يتخطف كلمات املائه من بين لهاته ولسانه ، وتلك حال يصورها

20 — ساق هذه السلسلة الابياري فى حاشيته على مقدمة القسطلانسى .

لتلقين الاوراد واعطاء العهود الصوفية لم يسلم من متابعة أولئك الحاسدين ، وهم في هذه قد تجاوزوا التندر الى مرير الانتقاد ، والى المساس بمستواه الصوفي الذي كان يعتد به ، وينوه باصله ومبدئه ، فالمعروف عنه أنه تصدى بعد شيخه الامام ابي عبد الله ابن ناصر ، الى تلقين الناس ما يحتاجون اليه من اوراد التواقل والاذكار ، التي يتزودون بها لمعادهم ، ويتقربون بها الى ربهم ، فيتخذ منها أحد القضاة فرصة للنيل من تطلعه لهذه الرتبة في المقامات التي تسلق اليها قبل الاوان ، ويفصح الامام ابو على نفسه عن جليلة الواقع فيقول في كتابه « المحاضرات » : (وأخبرني بعض اصحابي أنه جرى كلام بينه وبين بعض القضاة المتصدرين للتدريس ، فتكلم له القاضي في شأنى ، وقال له على وجه النصيحة فيما زعم : فما ألجأ فلانا الى تلقين الاوراد ؟ ثم يتساءل اليوسى مرة أخرى فيقول : (فهل رأيتم مريدا كذلك وكيف فراه الا ان يتداركنا الله برحمته).

وبعد ان يحكى ان الشيخ ابي العباس زورق كلا ما في هذا المعنى ، ويؤول الى ان النصيح والتذكير لا يرتفعان حين يعز وجود المرید بشرطه الاصيل ، يتوجه بالكلام الى القاضي الناصح قائلا : (ثم يلزمك أيها الناصح في مثل هذا ما يلزمنا وجوابك هو جوابنا : بأنك تصدرت للتعليم ، فهل رأيت بعينك متعلما على شروط التعليم المعتبرة ؟ أو رأيت نفسك على شروط المعلم وعلى من يجلس اليك شروط التعليم ؟...)

وسواء كان هذا الجواب مقنعا بالنسبة الى عصرنا

وعصره، او غير مقنع ، فهذه بقطع النظر عن صلاحه وتقواه، وجنوحه الى النسك ، تعد من الظواهر في جانب علمه الباطن التي تقدم لنا معارفه الروحية، في معرض تعليق التمايم ، وتلقيين الاوراد والاذكار على طريقة توزيع البركات في طقوس البابوات .

ثم ان هذه منه تساؤلات وأسئلة انكار ، لا تنفع في المقام سواء جلس أبو على اليوسى لتلقيين الاوراد ، وتوزيعها على سبيل التربية او لمجرد النصيح والتذكير والارشاد ، لان التصدر لهذه المهمة باسم الشاذلية الناصرية انما هو لمن اعطى الخصوصية بالاستخلاف ، وقد ظفر بها الشيخ الصالح أبو العباس ابن الامام الشيخ محمد ابن ناصر ، ولولده أبي العباس هذا اذن في تلقيين الاوراد ، ورفع الراية بالزاوية للزوار ، وما كانت حظوة أبي على اليوسى عند الامام الناصري شيخه او دعواته الصالحة له التي جاء مصداقها ماثلا كفلق الصبح في علمه وفضله لتتيح له الخصوصية ، وارث الكرامة التمكرونية ، لانها بالفرض وانتعصيب لسليل الشيخ الذي جلس لها بالمدينة المنورة ، وفي المكان الذي تخضع له رقاب العارفين ، ويحج له المريدون من كل فج عميق .

والذي يبدو هو ان ابا على انما كان يداري طماحه في هذا السبيل بعد ان حاول المنافسون أن ينكروا عليه صدارة التدريس بالقرويين ، واذا كان اولئك الحسدة قد خابوا في التهوين من امامته العلمية ، وزعامته الادبية ، فانهم عثروا على الخصاص الذي نفذوا منه الى القول في وجهته الصوفية ، فمن اخباره بما فيها التي حكى عن نفسه ما يوحى أنه

محمد المهدي بن احمد الفاسي صاحب الردود على الصوفي
ابى اسحاق الكوراني ، فقد كان لا يأكل الا من عمل يده
بالنسخ ، ومن ورعه (25) أن السلطان بعث له بخمسين دينارا
على عادة ملوك الشرفاء العلويين فاعتذر عن قبولها بما قبله منه
السلطان الرشيد .

ومن بآية هذا الذي صدر عن اليوسى ، وان لم يكن من
جنسه ، الا أنه فى حكم مجانسه ، لأنه بالنسبة لرجال العلم
والتصوف ، يعتبر انحرافا عن جادة الطريق ، وعن المبدأ
الانساني المستقيم ، وذلك ان السلطان المولى الرشيد نكأ جرحه
بملامته على ما يحس فى نفسه من علوق بعهد الدلائيين ، فلم
يكن من اليوسى الا أن أجاب بتقية خانة مستسلمة لا تعهد
من أمثاله ، ولا بالنسبة الى الدلائيين أهله فقال فى جواب غير
منتظر : (لا ناقة لى فيها ولا جمل) .

وما هذه - لعمرى - فى مثل هذا المقام بتقية ، ولكنها
بادرة جفاوة ، وكفران بداوة ، وهى بعد تستر مكشوف لا يسمن
ولا يغنى فى ساحة الملوك .

والمعتقد ان السلطان الشريف كان ينتظر من العالم
الاديب جوابا مقدودا على علمه وادبه وذكاء قبيله ، فيخرج من
مضيقه بجواب مستطاب ، كما جاء على لسان شيخه ابى عبد
الله المزابط الدلائى حين فاجأه السلطان بما فى نفسه عن
الداهية التى انزلها بمعاهد الدلائيين قوميه وانشد فى وجهه :

25 - انظر هذا فى ترجمته من كتاب صفوة من انتشر للامراتى .

ومن نكد الدنيا على المرء ان يرى
عدوا له ما من صداقته بد

فكان جواب عالم الدلاء من بديهته المملوغة المغطاء ، فقال
من غير تلكىء او اعتذار :

ان من سعادة المرء ان يكون خصمه عاقلا يا مولاي !
وبه جاء الحسم فى الموضوع بالبلمس الشافى لما فى النفوس

وعلى كل حال ، فان بداوة اليوسى ، لم يكن من شأنها أن
تتسجم مع حضارة فاس ، كما سجل عن نفسه ، متبرما من
كثرة الحاجيات والكماليات التى يتطبع بها النساء والصبيان ،
فتثقل الكاهل وتصد القلوب عن اوجب الواجبات ، لا سيما
اهل الحاضرة (انما اشتغلوا بالحظوظ الدنيوية) ، وقد
تعرض فيها (الى البلاء والفتق من كل ناحية) ، وكل هذا قد
ضخم فى ذهنه مناوءات العلماء ، واذا هو يتراءى خاسسات
المعاصرة حسدا اكتوت به القلوب منذ انفض عن حيلقات
العلماء بفاس طلابها ، لينقلبوا متهافتين على حلقة التى ضربت
على مجالس الخصوم بواراً وفراغاً منذ ايامه الاولى .

وعند هذا الحد اجد ان لا هناك للباحث من ان يتوقع قيام
حدث فى حياة هذا الرجل ، فينتقله من حال الى حال ، ويجعل
هذا لهذا الصراع ، ويرى له هذأة النفس والانسجام مع جيله
على أي وجه كلن .

وذلك ما حدث بشده العزم على الخروج من فاس
واستدبار مجتمع الحضارة الذي أعنته ، الى بساطة البداوة التي
تواتيه وتبسط له في مناءته وراحة عيشته ، وهكذا عاد الى مسقط
رأسه وانقلب الى معدنه تاركا جمهور تلاميذه ، معرضا عن
رعاية المولى اسماعيل وعن رغبته السلطانية في أن يظل هذا
العالم بفاس قواما على نشر العلم ونفع طالبيه .

ولم يكن له مناص من ابداء العذر فحضر جوابه في
رسالته السالفة الذكر ، وهي التي ابان فيها للمولى اسماعيل عن
وجه العذر في اختياره الذي لا رجعة فيه ، وهي رسالة نارية من
حيث انه يواجه فيها السلطان بذات نفسه التي ما زالت مقروحة
من اثر ذلك اللقاء الكريه ، الذي كادته به فاس حين رمته اليها
الاقدار على غير انتظار ، عقبى لما حاق على يد المولى الرشيد
بزاوية الدلاء ، ولان رسالته حسبما يستفاد من بعض نصوصها
كانت جوابا عن كتاب ضمنه المولى اسماعيل ما استشعر منه
اليوسى انه قصد قصدا الى اعناته بالمقام في فاس التي هدت
من كيانه .

ومن العجب ان الاطار الذي قدمه لنا في هذه الرسالة عن
جو حياته في البادية ، ماثلا في هدوء الدار التي شادها بقرب
المسجد ، وفي نافورة مائها ، وخضرتها المنبسطة عن يمينها
وشمالها ، في تقلص مطالب الحضر ، وتوفر المؤونات ... لم
يكن كل هذا من شأنه ان يهديء من أعصابه ويلوي به عن ذلك
الجو بتكاليفه وصراعه ، وانما تجلى فيها متبديا على حقيقته

فأخذ يدلى بالحجة اثر الحجة لتصحيح قراره على شاكلة من يلزم مخاطبه الحجر اثر الحجر ، حتى لكان مخاطبة المولى اسماعيل هي أصل ما به ، وكانت بذلك رسالة فريدية من حيث هذا النفس المحموم ، ومن حيث المضمون ، وقد جاءت من خير الامثلة على قوة عارضته لانه كما يلاحظ كان يمتح في آن واحد من قليب علمه الثر ، ومن نفسه التي لم يهدأ حميها بعد مفارقة موطن الفتنة بالحياة وحفظها

وهكذا أطلق نفسه الطويل ليبدى للمولى اسماعيل أن هجرته للبادية انما هي عين التدبير الذي يأمر به ربنا الحكيم : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » وان نفسه لا تقع على طبيعتها الا في احضان البادية ، ولا يصلح للحاضرة وهو كما يقول باستكبار في شبه تواضع غير مستطاب (محتاج (26) الى مزيد حذاقة وابانة ، وحسن تأت وتدريب ، وانا بعيد عن هذا كله انما أنا رجل بدوي) .

وأما بالنسبة الى واجب النفع بالعلم فيرى (أنه لا يجب علينا أن نرتحل الى المدائن ليتعلم أهلها علمنا ، ففي بيته يوتى الحكم ، ولم يوجب الشرع قط على بدوي أن يتخضر ، كما لم يوجب على حضري أن يبتدى ، نعم في صدر الاسلام أمر الهجرة حيث كانت العرب على كفرها ، فكان من أسلم يفر بدينه من الفتنة ، فلما فتحت مكة وأسلمت العرب انقطع ذلك الامر فقال صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح) .

وقد ذهب اليوسى فى هذا المعنى مستشهدا بقول
الرسول عليه الصلاة والسلام : (ليضرب الناس أكباد الابل فى
طلب العلم) وغيره من الاحاديث النبوية ، ومن أقوال الحكماء ،
والمروى عن عيسى عليه السلام ، الذى قال : لا تمنعوا العلم عن أهله
فتأثموا ، ولا تضعوه عند غيره فتجهلوا ، وكل هذا مخل بأوجه
أخرى من الاحتجاج ، ومطرز بالانشادات الشعرية التى لا يظهر
معها للقارئ تعيين انتقال من بادية الى حاضرة ، وهو فى
استعراضه لهذه الاحتجاجات لا ينسى عن تجريح أهل فاس
والتعريض بهم فى كل حال ، ومن جملة ما يغمز به ، وبأكثر من
وجه وفى غير ما سياق ، ان مجتمع فاس انما هو مجتمع تجار ،
لا مجتمع علماء ، ويعنى بذلك ان لا فائدة من المقام بفاس لنفع
من همه فى كسب الدائق من غير قريحة فى العلم ، وصاحب
القريحة على حد قوله : « لا تتركه قريحته ان ينتظر ما يأتيه ،
فمن كان فى « القيسارية » مكبا على غلوسه حتى اذا سمع
بعالم دخل المسجد ، ارخى غلق الحانوت ، وجاء يستمع وقلبه
فى الحانوت ، فمتى يحصل له العلم ؟ هيهات هيهات ! انما يرجو
العلم من انبعثت جمرة فى قلبه تذكره ضياع ايامه ، وتنسيه
جميع اولاده وامواله) ولا يتخرج من أن يروى فى هذا السياق
عن عيسى عليه السلام الذى قال : (لا تطرح اللؤلؤ الى الخنزير
فان الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئا ، ولا تعط الحكمة من لا يريد لها ،
فان الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريد لها شر من الخنزير) ؟

ومن انشاداته فى هذا المعنى قول بعضهم :

أنثر درا بين سائمة الغنم
أم أنظمه نظما لمهمله النعم
فان يشفنى الرحمن من طول ما لدى
وصادفت أهلا للعلوم ونلحكم
بثتت مفيدا واستفدت مودة
والا فمخزون لدي ومكتثم
فمن منح الجمال علما اضاعه
ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وانه ليتأكد من هذه الاقوال أننا لسنا بازاء صراحة
بدوية خالصة ، وانما نحن ازاء شذوذ واضح لكل ذي عينين .
واذا كان الامام اليوسى قد هدانا فى هذه الرسالة الى عامل
البداءة فى تمسكه بفضائل مجتمعها ومواءمتها لنجو الطلب
والحياة الفاضلة فيها ، فان من المعتقد الى جانب هذا ان تؤثر
أعصابه المصارخ فى هذه النقمة الملازمة قد ينظر فيه ايضا الى
عامل تأثير الاطاحة بحكم الدلائيين وبمعاهدتهم ، وباجلائهم عن ،
آفاقهم ، وما تبع ذلك من دخوله قسرا الى فلس فى جملة رعيهم
فذلك - فيما يظهر - قد خلف فى نفسه اثرا لا يمضى ، وصغر
فى عينيه كل واسع فى الدنيا بعد دنيا الدلاء ، وان كل قافية من
رائتيه المطولة التى رثى بها تلك الزاوية لتتضح بما خلف ذلك
الحادث فى نفسه من جراح ما كانت لتندمل على مر المنهور
والاعصار ، فليس بالظاهرة الغريبة أن يصبح بعدها مقوتتر

الاعصاب ، هائج النعمة على مجتمع ليس هو منه ولا اليه ، مزمجرا بكل ما يقال وما لا يقال ، وما وصلته بهذا المجتمع غير الاقدار ، وما زجته فيه غير ارادة ملكية ظل يداريها ويحترس بفضل ذكائه - من اي بادرة حركة او سكون تنم على ما يضطرم في نفسه تجاهها ، واعتقد ان روح الغضب التي تسيطر على تلك الرسالة التي اجاب بها المولى اسماعيل لتترجم عن هذا كله وتبين ، وما كانت نصيحته للمولى اسماعيل بتعميم العلم في المدر والوبر الا لغاية التورية بمكارم السادة الدلائيين ولهذا ، أكاد امول ان مبادرات هذا العالم لانفهم على حقيقتها بغير الدخول عليه مزخلفياته ، وما كانت حصافة المولى اسماعيل لتغيب عنها المغامر ولا تلك الحمم التي كان يقذف بها مجتمع فاس من قريب ومن بعيد ، فاننا نستطيع ان نتفكر هذه الحصافة العلوية فيما لمح به المولى الرشيد للامام المرباط الدلائى حين انشد في وجهه :

ومن نكد الدنيا على المرء ان يرى

عدوا له ما من صداقته بد

واذا تصاممنا عن هذه الشقاشق الهادرة ، واستشرفنا الى صداها عند الآخرين ، فاننا لا نستروح من قبلهم غير صوت الاشادة وروح الانصاف ، والتنويه بما آتاه الله من علم الظاهر والباطن على السواء ، فقد رفعوه مقاما عليا في كتب الطبقات : واضفوا عليه من الحلى والالقاب ما لا يظفر به غير القلة من الشيوخ الاعلام ، وحتى هنات أبياته في فاس التي اعتبرها هو بلسانه من (السقطات والفرطات) أدرجها

القادري، 27) في سياق الاكبار مصحوبة بالاعتذار ، وحلاه بالامام الكبير والمحقق الشهير ، ونص على انه آية في الادراك ، وعندما تطرق الى ذكر بعض تأليفه وطأ لها بقوله : (ولصاحب الترجمة مؤلفات في تحريرات وتدقيقات) وقال عن ديوانه (انه من اعاجيب الزمان) ، كما أنه نوه بعارضته (الكبيرة في النقل والتحقيق) وروى ما حكى من أنه بقي في تدريس الفاتحة بفاس نحو ستة اشهر ، وانه ممن يستحق أن يوضع في ترجمته مجلدات .

وقد سمعنا قبل صفحات ما حلاه به حجة الاسلام أبو السعود عبد القادر الفاسي (1007 - 1091 هـ) في اجازته التي وصفه فيها بالمحقق الفهامة و اضاف اليها الخبر المشهور ، فكانت من مفرداته وشهادة على كماله .

وقال فيه الافرانسي (28) صدر ترجمته انه : الشيخ الامام علم الاعلام ، وشيخ الاسلام وآخر علماء المغرب على الإطلاق ، ومن وقع على علمه وصلاحه الاجماع ، ثم أشار الى عارضته فذكر (انه لما دخل مراكش تصدر فيها لأقراء علم التفسير بجامع الاشراف ، فمكث في تفسير الفاتحة قريباً من ثلاثة اشهر ، وهو يبدي كل يوم من التحقيق أسلوباً ، ويلقى من التحريرات صنوفاً ، فعجب الناس لحسن القائه ، وغزارة مادته ، مع انه ربما يبيت في ضريح بعض الاولياء والناس معه فلا يطالع كتاباً ، ولا يراجع مؤلفاً ، فاذا أصبح قعد على كرسيه ،

27 - نشر. المثنى الجزء 2 ، ترجمة اليوسى .

28 - صفوة من انقشر ، ص : 205 ، وما بعدها ، ط الجبرية بفاس .

وأطلق لسانه بما يبهر العقول ويحير الأذهان (وزاد بعدها :
وبالجملة فهو آخر العلماء ، بل خاتمة الفحول من الرجال حتى
كان بعض أشيخنا يقول : هو المجدد على رأس هذه المائة ، لما
اجتمع فيه من العلم والعمل ، بحيث صار امام وقته وعابد
زمنه ، ولذلك قال الامام ابو سالم العيلشي فيه :

من فاته الحسن البصري يصحبه

فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

ونجد صدى لهذا الاجماع في كتب المتأخرين كصاحب
شجرة النور الزكية (29) من اهل تونس الذي قال عنه : (شيخ
مشايخ المغرب على الاطلاق ، الامام الذي وقع على علمه وصلاحه
الاتفاق ، المتضلع في العلم الحامل لواء المنثور والمنظوم)

وقال عنه محمد البشير ظفر الازهري (30) ، العالم
الحامل للمشارك المتفنن ، المحقق الصدر للاوحد .

وحلاه صاحب فهرسة القهارس (31) بعالم المغرب ،
ونادرتة ، وصاعقته في سعة الملكة ، وفصاحة العلم واللسان ،
ثم زاد صاحب الفهرسة : (مع الزعامة والاقدام والصدع بما
يتراءى له).

29 — الجزء : I ، تحت رقم : 1284 وانفرد بتلقيبه بنور الدين .
30 — انظر ترجمة طليوسى (في كتابه اليواقيت الثمينة في اعيان مذهب
عالم المدينة) ، ص : 133 ، مطبعة الملاجىء العبلسية ، وقد نقل
ترجمته عن تلميذه الامام سيدي المهدي النهري من كتابه المنع للبنادية .
31 — الجزء : 2 ، ص : 464 .

ولا ريب ان التعبير « باقدلمه وصدعه بما يتراءى له » هو الذي لطفه وهذبه شيخه ابو عبد الله محمد الم رابط الدلائى حين وصفه فى اجازته بصاحب الهمة التى نيطت بالثريا ، وكل من الدلائى والكتانى انما يعنيان فى الولقم جرأته وعناده على ذلك الوجه الذى عرفنا ، واحسب ان جلالة مترجمنا هى التى حدث الشيخ الم رابط الى أن يرى حسنا ما ليس بالحسن ، فعبر ببعد الهمة عما جاء فى هذه الصفحات على صورة العناد والانانية وأما الشيخ صاحب الفهرسة ، فقد سمي هذه الانانية اليوسية بخير اسمائها فى نظر مصلحته ، وذلك للافصاح عن جرأته فى مخاطبة المولى اسماعيل بذاته وصفته .

والذى يعنى على كل حال هنا هو الاشارة الى ان امامة اليوسى فى التحقيق والتدقيق والتحرير ، تبدو غالبية على كل ما قيل فى حقه ، وذلك أيضا ما تشهد به مؤلفاته وتقاييده ، الى جانب عارضته القوية وفيض انشاداته المتوالية ، وكلها سمات تنبىء عنه ، وتنشئ بهويته ، ولو لم يسجل اسمه على ظهر تأليفه وتقاييده ، وذلك لوضوح الرؤية الادبية فى كل ما يأتى به ، مما يميزه عن غيره ، أما ان التحقيق والتدقيق والتحرير ميزته الخاصة به ، او انه آخر شيوخ العلماء او آخر المحققين او الآية وحده فى الادراك والتحرير ، فهذه شأنها شأن الاوليات التى يكيلها كيلا ومن غير حساب من يقصر نظره واطلاعه على شخصية بعينها ، من غير أن يلم بمن فى مستواها وظيفتها ، او يعرف شيئا عن اربى عليها ، ولا حاجة بنا الى ذكر الاسماء كشيخه الم رابط او ابنى حامد الفاسى صاحب المراجعة ، ولو قريبه

الشيخ الفهامة ، ابي عبد الله محمد المهدي ، الضابط ، صاحب الردود على الامام الكوراني ، او الامام ابي عبد الله محمد (فتحا) ابن الشيخ عبد القادر الفاسي ، او الامام ابن زكري ، او الامام المسناوي تلميذ اليوسى الى غير هؤلاء من اهل طبقتهم او من شيوخهم وهم كثير ؟

والواقع الذي يشهد به التاريخ وتعرضه علينا كتب الطبقات من الحل واللقاب التي درج كتاب التراجم على اضافتها على الاعلام ، اننا قلما نظفر بين جيل طبقة اليوسى من شيوخه او تلامذته او من اعلام مدرسة الدلاء او فاس من لم يقل في حقه خاتمة العلماء ، او خاتمة المحققين ، او خاتمة مشايخ المغرب ، لو خاتمة علماء المغرب ، او الحامل لواء المنظوم والمنثور ، او أشعر أهل زمانه ، كما قيل في حق الافرانسي وهو من اهل ابانه ويكفى ان يرجع القاريء الى تراجم رجال هذه الطبقة من اعلام فاس والدلاء في كتاب شجرة النور الزكية ، والى طبقات المغاربة من غير استثناء ، وليقف الباحث أيضا عند تحليات المعاصرين التي اوردها الشيخ ميارة في الشيخ الكبير على المرشد المعين ، وذلك في صلب ما جلبه في نص انتقاد البوسعيدى عليه من المجازفة بالتحليات الروحية من غير تمييز .

وبالصدور عن جملة آثار اليوسى المعروفة يمكن ان نقول أنه امتاز .

أولا : بصناعة التدريس ، وقد انفرد بطريقته القائمة على نظرية خاصة في التلقين ، وعلى اتجاه خاص في الاملاء ، وذلك ما

جعل الطلاب يتهافتون على مجالسه بالقرويين حتى صفرت حلقات غيره من المدرسين ، ولم ينفذ جمع الطلبة عنه الا عندما تولى القضاة توزيع العطايا على الطلاب ، فعند ذلك أخذ الطلبة كما يقول : (بيتسليون ويذهبون الى حيث كانت العطايا ، حتى لم يبق في مجلسي بحمد الله الا من همته العلم ، لا الدنيا ، أكثرهم من أهل البادية وقليل من أهل البلد) .

وواضح ان الشيخ يعنى أن القضاة الذين تتوزع على يدهم الصلات كانوا يخذلون الطلبة عن مجالسه العلمية ، ولا نستطيع تصديق هذا او نفيه باعتبار انه ، قد يكون ناشئا عما كان يشوش باله من الشكوك ، وعن الهوس الذي ألح عليه في تلك الظروف .

وعلى كل حال فان منهاجه في التدريس يرتكز على أساس تربوي كان له ولا ريب اثره في اقبال الطلاب عليه ، وذلك على نحو ما نرى في تأليفه من ترتيب ونظام عقلي وسلسلة وتيسير . ومن فوائده الجليلة في هذا الباب قوله : (الاقراء تصحيح المتن ، وحل المشكل والزيادة على هذا ضررها أكثر من نفعها ، ولا بد أن يدرج فيما ذكر من تصحيح المتن ، او حل المشكل التنبيه على النقص او الحشو ، وتوجيه ما يحتاج الى التوجيه ونحو ذلك ، فهذه وظيفة الاقراء ، وهذا كله للمبتديء ، وأما غيره فيعامل بما يليق به وان لم يكن ماهرا طبيا فضرره أكثر من نفعه) .

وأما ما يليق بغير المبتديء ، فقد تركه كما سمعت

للمقتضيات ، والمعروف مما روي سابقا عن املاءاته في تفسير
للفاتحة بمجلس القرويين بفلس ، او بمسجد الاشراف في مراكش
أنه كان يجنح الى استمالة سامعه يعارضته المتدفقة بفنون
التحرير ، وضروب الاحتجاج والتدليل ، مع تطريز العبارة
بالفقرات الأدبية البطرعة ، والاتفاقات البيانية ، والانشادات
الشعرية ، وهذه تظالعا في مختلف مؤلفاته ورسائله وفي أي علم
وفن ، أطلق فيه نفسه الطويل او القصير ، وقد كان يساعده
على هذا محفوظاته الشعرية التي ذكروا منها دواوين المتنبي
وأبى تمام والمعري ، وتلك طريقة في الامالى من شأنها أن
تستهوي الطالب المنتهى ، الذي يقع فيها على غداء العقول
والاذواق معروضا على بساط زاه من الكلام الرقراق .

ويمكن ان نرد هذا الاتجاه الى طابع ثقافة المدرسة
الدلائية ، فهذه المقومات التي كانت تتيح اطالة الاملاء في تلك
المجالس والمقامات ، قد عرفت حلقه الشيخ الامام ابى الامام
ابى عبد الله محمد بن ابى بكر الدلائى (967 هـ 1046) الذي
عرف بالانطلاق المستهوى ، وبفصاحة العبارة فيما يكتب
ويحدث ويملى ، وقد روى ان درسه كان يستغرق نصف يوم
دون أن يشعر المتربع له بسأم ، وعلى هذا النحو عرفت فاس
مجالس شيخ اليوسى ابى عبد الله محمد الم رابط الدلائى بما املاه
بزاويتهم وبالقرويين عند نزوحه الى فاس باثر النازلة بالدلاء . كما
عرفت بعده وعلى غرار الامام أبا عبد الله محمد بن أحمد
المسناوي تلميذ اليوسى ، وقد كان طبقة في الفقه وكعبة القصاد
في الاختاء ، وبرز على مثال استاذه اليوسى في المعقول والمنقول ،

وفي الادبيات وتجويد المنثور والبراعة في المنظوم ، وانتهت اليه طريفة شيخه في التدريس ، فتهاقت عليه طلبة فاس تهاقتهم على شيخه ، والامام المساوي من الدلائيين الذين درسوا بفاس حيث نزع ايها صبيا صحبة أسرته باثر انهيار دولة الدلاء ، فهو خريج مدرسة فاس ، ومثل كامل لثقافة العصر التي اجتمعت فيها مقومات مدرسة فاس ومدرسة الدلاء .

ثانيا : امتاز اليوسى على معاصريه بمجموعة تآليف بعد العهد بمثلها . كما قيل ، فقد أخرج ما يربو على اربعين مؤلفا وتقييدا ، ويغلب عليها جميعها طابع التحقيق والتدقيق والعارضة القوية ، وتتألق بين صفحاتها مقوماته الادبية ، وكلها عناصر ثقافية متألقة تتبرج فيها شخصيته بجلاء ، وقد عنى المستعرب الفرنسى المعاصر الاستاذ جاك بيرك في مؤلفه عن اليوسى باستقراء تآليفه فوصل بها الى ثلاثة وثلاثين ، واستدرك عليه الاستاذ محمد حجي في رسالته عن الزاوية الدلائية اربعة عشر مؤلفا ، ونضيف الى قائمة الاستاذ حجي شرحا لليوسى على أم المنطق ، وهي منظومة للشيخ عبد العزيز (32) بن علي ابن الشيخ أبى المحاسن يوسف الفاسى المترجم في النشر ، وقد اورد هذا الشرح الشيخ محمد البشير ظافر الازهري بين ما اورده من اسماء مؤلفات اليوسى .

ولن يجد القاريء في مؤلفاته المطبوعة قديما وحديثا كالمحاضرات والقانون والديوان ، او في مخطوطاته المعروفة ما يدعو الى القول

32 - اسمه « عزيز » عند الشيخ . ظافر ، ونسبه الى جده ابى المحاسن دون ذكر ابيه .

والاقتناع بادراجه بين المجددين على رأس المائة، فليس ما أتى به من معقول ومنقول، ومنظوم ومنثور، أو منهاج في املاءاته العلمية ونحلته الصوفية ما يتجاوز التبريز الى التجديد، فالقول بذلك انما خرج عند قائله مخرج الاعجاب والتقدير.

وحتى بالنسبة الى عدد تآليفه فقد شاركه في غزارة التأليف الذي بعد العهد بمثله، عصريه وخصيمه صاحب «الاقنوم» الامام ابو زيد ابن شيخ الشيوخ عبد القادر الفاسي، حيث اربست تآليفه على الاربعين بالاضافة الى ان مجموعته تمتاز بتنوع العلوم والفنون.

وقد قيل أيضا في المسناوي تلميذ اليوسى المذكور انه مجتهد العصر او ان ادوات الاجتهاد قد اجتمعت له، مع أنه لم يخرج في فتاويه الفقهية - وهي مطبوعة - عن المشهور او الراجح، او ما به العمل من مذهب الامام مالك، وغاية ما في الامر أنه أجاز الخروج من مذهب الى مذهب وقال بنصرة القبض، وألف في ذلك رسالته المعروفة (بنصرة القبض والرد على من أنكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض) وأبان فيها عن شجاعة علمية، وقوة استدلالية في تضعيف ما رجحه ابن القاسم والآية في ذلك عندهم انه صدع برأيه على عهده الذي كان في المغرب من أشد عهود التاريخ الاسلامي تعصبا لمذهب بعينه، والييس على فروع فقهه، وما كان هذا وحده ليقيمه في أي طبقة من طبقات المجتهدين.

وأحسب ان التجديد بالنسبة الى الامام الـيوسى ،
والاجتهاد او الظفر بأدواته بالنسبة الى المسناوي ، مما لا يؤخذ
على حقيقة اطلاقه فى عصر حفل بالائمة الاعلام من معاصريهم
الذين لا يشق لهم غبار .

على أن الـيوسى صاحب ذلك التبريز وتلك المقومات ،
لا يكاد يلم بذهن قارئه حتى يتشبح مقبرجا فى قوة شخصيته
وكبريائه وجلالته ، ويمثل متألقا فى هالة من طلاب علمه ومريديه
وصدق المؤرخ الحوات صاحب « البدور الضاوية »
حين لقبه بسلطان العلماء ، فهذه اشكل به على كل معيار وقياس

عبد الرحمن الفاسى

الرباط

مَلاحِ الفكرِ السِّياسِيِّ عِندَ الحَسَنِ اليَوسَفيِّ

مَحررُ الكِتابِ

يمثل المثقف في أي عصر من العصور الحضارية التي تعرفها أمة من الأمم ذات الثقافة العريقة نقطة انتهاء وابتداء معا ، في سير الثقافة التي يمثلها . ذلك أن المثقف هو بمثابة تجميع مكثف لعناصر الثقافة المختلفة ، ومناهج العلوم المتباينة ، تتلاحم في شخصيته تلاحم النسيج ، ولا تلبث تلك العناصر المتلاحمة أن تكون بذاتها من خلال شخصية المثقف امتدادا جديدا تغاير معطياته المعطيات السابقة ، أسهاما في تشكيل جديد وصياغة جديدة لتلك الثقافة . فالمثقف الحقيقي هو الذي يمتص معطيات حضارة أمته وثقافتها وتاريخها ، ثم يحولها الى امتداد في الفكر والحياة الاجتماعية . وبهذا الاعتبار تتغذى الحضارة والتاريخ من الثقافة ، حتى اذا كفت هذه الأخيرة عن ذلك الامداد كفت

الحضارة عن الامتداد ونفدت طالقتها وخبا شعاعها وتحولت الى رماد ودخلت في حكم التاريخ .

والتاريخ الاسلامي نفسه شاهد على هذه الظاهرة بثقافته وحضارته ، فمنذ جاء القرآن بتلك الفعالية الاخلاقية والمنهج العلمي في استقراء الظواهر والاستدلال بها على اطراد السنن الكونية ، نشأت ثقافة انسانية جديدة ، اضطلمت بتصحيح الفكر اليوناني وتسديد خطا العقل الانساني نحو الحقائق الكونية . فكان من نتائجها ظهور حضارة اسلامية متكاملة ، لم تنلق عن المعطيات الحضارية قبلها ، ولكنها انتقت منها ووجهتها الوجهة الاسلامية المطلوبة ، وقد تم ذلك عن طريق الابداع الفكري والفني الذي عرفته الثقافة الاسلامية في عصور ازدهارها . وعندما كفت تلك الثقافة عن الابداع والتجديد وجمدت القرائح وأغلق باب الاجتهاد ، تحول التاريخ الاسلامي الى مسيرة متبلدة . وبدأ ما سماه مالك بن نبي مجتمع ما بعد الموحدين (1) وهو المجتمع الذي فقد فيه المسلم التوازن بين الثقافة والحياة الاجتماعية ، والتوازن بين العقل والوحي ، والتوازن بين التبات والتطور . ولا يصعب ايراد الامثلة على حركة الأفول التي عرفها العالم الاسلامي في الشرق والغرب ، كسقوط الاندلس وانحطاط المغرب (المريني) في الغرب ، وسقوط بغداد وأفول حضارتها في الشرق . ولذلك لا ينبغي أن ننخدع بالنهضة

(1) انظر : نداء الاسلام لمالك بن نبي عريه عن الفرنسية رمضان لاوند
ص 43/ ..

التيمورية المزدهرة خلال القرن الرابع عشر في أضرحة سمرقند ولا بمظاهر الفخامة في الامبراطورية العثمانية التي كانت تفتقر الى تلك الروح الوهاجة والدوافع الثقافية المبدعة ، ولا بالانتصارات العابرة لبعض السلاطين المغاربة في عصر المرينيين أو عصر السعديين . فلقد كان العالم الاسلامي يتم تطويقه باحكام من طرف عالم آخر ناهض ، تدفعه حركة ثقافية جديدة .

ويهمنا من الاشارة الى حركة الأفول هاته أن نؤكد أنها كانت شاهدا على خمود الابداع الثقافي أيضا ، ذلك الابداع الذي وضع ابن خلدون آخر لبناته في نهاية القرن الثامن الهجري . فهل يجوز لنا أن نتوقع توهج الثقافة الاسلامية مرة أخرى في عصور غارقة في الفتن المحلية والمنافسات حوم الحكم وفي غيبوبة التصوف الذي جعل شعاره يومئذ : (موتوا قبل ان تموتوا (2) .

سقنا هذه المقدمة لتحديد السياق العام التاريخي والحضاري الذي ظهر فيه اليوسى أحد اعلام الثقافة المغربية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري ، ولنكون أقدر على تصور الممكن وغير الممكن بالنسبة للانجاز الثقافي المطلوب من عالم مغربي يعيش فترة صراع ، هي في الواقع نهاية عصر وبداية عصر في تاريخ المغرب .

(2) اعتبر بعض الصوفية ذلك حديثا ولكنه غير ثابت ، انظر : موضوعات على التاري ، والمقاصد الحسنة ص 202 .

(2)

عاش الحسن اليوسى (ابو على الحسن بن مسعود 1040 / 1102 هـ) (3) فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الهجرى ، وهى الفترة التى كان المغرب فيها قد أخذ يتطلع لوحدة وطنية ، يستعيد معها هويته التاريخية والسياسية .

أما التمزق فكان يعنى تجزئة البلاد حسب مطامع قيادات قبلية سلالية او دينية . وقد وجدت هذه المطامع فى الفوضى والفتن الداخلية عقب انحلال الدولة السعدية مبرر المغامرة . ولكن القوى المتحركة الطامحة للحكم استقطبها فى النهاية وبعد التصفيات المحلية حركتان كبيرتان :

اولاهما : الحركة الدلالية وهى كتلة بربرية صنهاجية التفت حول زاوية أسسها أبو بكر بن محمد الدلائى ، وسرعان

(3) ينتمى ابو على اليوسى الى قبيلة آيت يوسى ، التى هى فرع من آيت يدراسن من قبيلة صنهاجة الكبرى ، وكانت قبيلته تقيم ما بين ملوية العليا وأطراف جيل المياشى (ناحية الأطلس الشرقى) وقد نشأ فى أسرة بسيطة متدينة ، وتنقل كثيرا فى طلب العلم ، وتلقى مبادئ التصوف منذ يفاعته ، فتمكن من نفسه ، حتى اننا نراه عبر أسفاره لا يتخلى عن زيارة أضرحة الصالحين ومشاهير الصوفية . وتعتبر الزاوية الدلالية كمؤسسة ثقافية هى التى كونته التكوين العلمى الذى شكل حياته كلها ، لانه استقر بها نحو العشرين عاما . وبعض سقوط الزاوية بدأت مرحلة ثالثة من حياة طبعها عدم الاستقرار ، ولا حقيقته فيها السلطة مخافة تكثير الناس حوله ، وقد كان محط تقدير وثقة عندهم ، وذلك ما اكده محمد بن الطيب القادرى فى كتابه (التقاط الدرر ومستفاد العبر) مخطوطة الرباط ص 123 / ..

ما وجدت فيها القبائل المتوسيطية (الاطلس المتوسط) أسباب التكتل الذي يفضى الى قيام سلطة تحقق مآرب الملتفين حولها

وثانيهما : حركة العلويين بجنوبى المغرب ، وهم اسرة تنتسب الى السلالة النبوية ، التفت حولها بعد معارك طويلة كل القوى المتحركة فى الجنوب .

وقد دخلت الحركتان فى صراع طويل امتد زهاء ربع قرن، أو على الاقل من معركة (القاعة) سنة 1056 هـ الى معركة (بطن الرمان) سنة 1079 . ورغم انهزام الدلائيين وانتصار العلويين فقد ظلت الفتن والانقسامات الجهوية متعاقبة الى نهاية القرن الحادى عشر ، فى ارجاء المغرب ، وهكذا كان عصر اليوسى عصر قلق واضطراب ، وتحول سياسى لم يسفر بعد عن اتجاهه الفكرى ، والاجتماعى حتى وفاة هذا العالم الكبير .

ومن الناحية الفكرية يكاد يكون الطابع الصوفى هو الطابع الاساسى للفكر المغربى فى هذه الحقبة . فقد قامت الزوايا الصوفية فى كل النواحي النائية والقريبة ، بعيدا عن المدن والحوضر لتستقطب قلوب الناس ونشاطهم الروحى ، ولعلها كانت تعبر فى معظمها عن طموح سياسى طالما ان الامر كان يبدأ على هذا النحو ، من استقطاب الناس حول طريقة صوفية أو رباط أو زاوية ثم ينتهى الى مذهب فى (الامر بالمعروف والنهى عن المنكر) ، فالى طموح للحكم وتشغيب على الحاكم فالى ثورة يكتب لها النصر أو الهزيمة .

ويمكن القول بأن الحسن اليوسى كان قد امتص كل المؤثرات السائدة في بيئته ، وأبرزها التصوف ، غانتمى الى الزاوية الدلائية ، فى أهم فترة من فترات حياته ، وهى فترة التنشئة الثقافية ، أى فترة تشكيل الفكر والشخصية ، مع الانفتاح على الاتجاهات ومواجهة الاختيارات . ولا شك فى أنه انفل بالقضاء على هذه الزاوية وتخليها من طرف المولى الرشيد ، حين كان يعمل على توحيد البلاد تحت سلطة مركزية واحدة . فقد تعرض اليوسى خلال ذلك للنفسى والمطاردة ولو بشكل غير سافر ، فليستقر فى وعيه احساس بشذوذ فى سير الزمن ، واملى عليه ذلك بعض التأملات ، والمشاعر السوداء التى تحولت الى شبه فلسفة او موقف فكري يظهر جليا لقاريء كتابه (المحاضرات) .

لن القضاء على الزاوية الدلائية كقوة سياسية طامحة للحكم ، من طرف القوى الجديدة الآتية من الجنوب المغربى ، والمستندة الى شرف المحتد والمبررات السياسية الاخرى ، بالاضافة الى الانتصارات المتلاحقة لهذه القوى فى كل مجابهة مناوئة او منفصلة كان يعنى على الاقل مواجهة اليوسى لاختيار سياسى عميق . ولا شك فى انه كان منحازا للقوى التى نشأ فى احضانها ، والتى كانت تملك مبرراتها هى الاخرى فى نظره ، ولكن طابع المغامرة والفوضى اللذين طبعا فترة كبيرة من الحقبة التى عاش فيها جعلاه يلمس معنى حركة تقلب الزمان . ومعنى مداولة الايام بين الناس . وهكذا ندرك مغزى ايراده تلك الآية (لله الأمر من قبل ومن بعد) وكأنها فاصل

بين كل فصل وفصل من كتابه (المحاضرات) وقد تأرجحت اهتمامات اليوسى بوصفه مثقفا مسلما وهاتان صفتان متلازمتان متكاملتان - بين علوم الوسائل وعلوم الغايات . أما علوم الوسائل فهي اللغة وآدابها والمنطق ، وهذه تعكسها تأليفه التالية :

- ديوان شعره والقانون في أحكام العلم وشرح علم المنطق ومنها (نفائس الدرر) والمحاضرات (4) .

وأما علوم الغايات فهي علوم الفقه والتفسير والتصوف والتوحيد ويعكسها من تأليفه :

(الفتوحات السوسية) في التفسير و (شرب العام والخاص من كلمة الاخلاص) ، وارجوزة في الفقه وشرح (عقد جواهر المعاني في مناقب الغوث عبد القادر الجيلانى) .

والملاحظ أنه لم يكن له اهتمام بالعلوم العقلية الاخرى ، الا بقدر محدود ، فهو يستخدم المنطق لاثبات العقائد الدينية،

(4) كان القدماء يعتبرون فن (المحاضرة) علما يعتمد على تحصيل ملكة خاصة قوامها ايراد كلام للغير مناسب للمقام من جهة مضمونه او من جهة شكله وفنه ، والغاية منه تحقيق ملكة الرواية الادبية الشاملة للادب بكل معانيه المعروفة قديما . واشهر ما ألف في هذا الباب (محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء) لابي القاسم حسين ابن محمد المعروف (بالراغب الاصفهاني) (والمحاضرات والمحاورات) للسيوطي و (محاضرة الابرار وسامرة الاخيار) للشيخ محيي الدين ابن عربى .

ولهذه الـ غاية اهتم بالمنطق وشروحه ، كما انه لم يكن رجل الادب بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ، وان كان له من الآثار ومن النظم ما يستوجب اعتباره مثقفا مشاركا وأديبا ، فالصفة البارزة الغالبة على ما عداها في شخصه انه عالم فقيه ، بالمفهوم المعروف عن الفقيه المشارك في الثقافة المغربية . وهذه الثقافة المشاركة تعكسها في رأينا آثار بعينها ، وهي كتابه (القانون)، وكتابه (المحاضرات) و «رسائله» .

(3)

لقد عرض اليوسى لتقلبات الدهر فرأى أنها من طبيعة الحياة ، وان الحياة قائمة على الابتلاء وعلى الفتنة (5) ، واستخلص من ذلك ما يجب ان يستفيده المسلم المؤمن من عظة ، وما يجب أن يتحلى به من خلق ثابت وإيمان عميق . ولكنه لم يفته أن يستنتج من تداول الامر بين الدول أن دوام الملك وازمحلالة رهين بالعدل أو الجور (6) . فبارود شواهد المنقول والمعقول على اثبات ذلك فقال : وقد قال الحكماء ان الملك يستقر ويستقيم مع الكفر ولا يستقيم مع الجور ، وهو صحيح . والعلة فيه أن الملوك هم خلفاء الله في عباده ، مؤمنهم وكافرهم . غير أن المؤمن خليفة في الطريقين والكافر في الدنيا فقط . والملك هو نظام العالم ، والعدل هو روحه . فمتى ذهب

(5) انظر المحاضرات للحسن اليوسى طبعة محمد حجي . 1976 من 41/ ..

(6) المرجع السابق ص 103

العدل اختل النظام ووقع الفساد في العالم ولذلك قال ارسطو طاليس في ضوابطه : « العالم بستان سيلجه أي حائطه الدولة، والدولة سلطان تحيى به السنة ، والسنة سياسة يسوسها الملك ، والملك راع يعضده الجيش ، والجيش أعوان يكفلهم المال والمال رزق تجمعه الرعية والرعية عبيد تعبدهم العدل ، والعدل مألوف وهو حياة العالم » (8) بل نرى اليوسى يعقب على ما يورده من أقوال ماثورة بهذا التعقيب الذي ينم عن نظرة فاحصة وتوجيه نقدي لحكام عصره. وذلك حين قال : « وكل من تعرض لها من السلف (وهو يقصد السلطة او الحكم) فاما انتهاضا لنصح المسلمين من نفسه باقامة الحق لئلا يضيع، واما نزعاً بشرية حركها سبب من الاسباب . اما الثانى فلا يقتدى به (يقصد المغامر الطامح للحكم من أجل الحكم) واما الاول فيقتدى به من بلغ مقامه في التمكين والقوة والنزاهة . وفي مثل زمانه الصالح الذي لم يزل فيه الدين طريا والحق جلياً، والاعوان عليه قائمين . وهيئات ذلك في آخر الزمان ، الذي غلب عليه فيه حب الدنيا واستولى سلطان الهوى على الناس (9) »

وهناك ملاحظة أخرى لم تفته بصدد استعراض التاريخ الوطنى في اطار الاعتبار بتقلبات الزمان وتعاقب الدول ، وهى فصح او تحليل ظاهرة الاحتياى بالصلاخ ووسواس المهدوية ظالما ان هاتين الظاهرتين كانتا اسلوبا تقليديا لطلب الرياسة والشهرة .

(8) المرجع السابق ص 103

(9) المرجع السابق ص 104

فقد ذكر بعض شواهد الاحتيال باظهار الصلاح لخداع الناس ، كالذي ذكره عن رجل بسجل ماسة اعتقد الناس فيه الخير ثم ظهر انه كان مصابا مشغلا باستخدام الجان ، وكالذي ذكره عن رجل من جبال هسكورة ، ومثل هؤلاء كثير . ثم يقول : « فالحذر مطلوب ، ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان ، الذي استولى فيه الفساد على الصلاح والهوى على الحق والبدعة على السنة الا من خصه الله ، وقليل ما هم (10) » .

وأما عن وساوس المهدوية فقد لاحظ أن معظم القائمين بها انما تخدمهم أنفسهم أو تغريهم دسياسة دنيوية أو نزعة شيطانية ، يقع ذلك حتى لبعض السالكين الذين يفتنهم الشيطان فلا يزال بهم حتى يغويهم ، وذلك بان يجد أحدهم قوة من الإيمان في قلبه أو يستشعر حالة جمالية غامرة ترد عليه ، فيوهمه ذلك أنه قوي على أن يصدع بالحق ، وربما توهم أنه الحقيق بذلك دون سواه ، أو يخيل إليه أنه المهدي المنتظر ، فيتحرك على طمع أن ينقاد له الأمر ، وينقاد له أبناء الزمان ، « ويحفر فيكدي ، ولا يعيد ولا يبدي ، ثم يصير أشقر ، ان نقدم تنحر ، وان تأخر تعقر ، فلا يسعه على زعمه الا فتح ابواب التأويلات والترخيصات واسعاف الناس بعد ان قام ليتبعوه ، ومن هنالك يهدم الدين عوض ما قام ليبنيه .. وقد رأينا في وقتنا هذا من استولت عليه هذه الوسوس حتى وقع في شبه صاحب المانلوخيا ، بحيث لو اطلع الناس على ما هو فيه

(10) المرجع السابق ص 45 / . .

رموه في المارستان » (11) . ومما يتصل بهذا الموضوع تعليقه على ظاهرة كانت طابع الفترة التي عاش فيها ، وهي ظاهرة حب الرياسة والطموح الى الحكم . وقد اعتبر اليوسى طلب الرياسة ظاهرة طبيعية في الانسان ولكنها انماط ، فهي اما ان تدفع اليها رغبة في صاحبها نحو الاصلاح والقيام باظهار الشريعة واحقاق الحق ، واما ان تدفع اليها رغبة في حب التسلط والشهرة . فان كانت الاولى ، وسلم صاحبها من كل مفسدة وشهوة ، وتهيأت له امكانات التوفيق والنجاح ، فقد حصل على الشرف في الدارين ، وان كانت الثانية ، فاما ان يتفقه رعى المصلحة او حفظ الامن وحماية المجتمع ، فذلك كالسراج الذي يضيء وهو يحترق ، وفيه يقال : « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » واما الا يتفق له شيء من ذلك سوى اتباع الشهوة فذلك هو الفساد في الارض .

واذن فاليوسى يقسم انواع الحكم السياسى ، بحسب الدوافع اليه والمسلك الاخلاقى الذي يلتزم به صاحبه ، الى انماط ثلاثة تطابق مضمون الحديث المأثور : « ان هذا الامر يكون نبوءة ثم خلافة ، ثم ملكا ثم عتوا وفسادا في الارض » (12)

ويعود اليوسى لتحليل الدوافع نحو الرياسة فيرى ان شهوة الناس في الرياسة واضحة ، يقصد أنها طبيعية لتعشق النفس صفات الالهية ، وتعشق ما تتوهمه من ثمرات ذلك

(11) المرجع السابق ص 105

(12) المرجع السابق ص 109

كالتمتع والترفيه ، والاحتواء على الدنيا واهلها ، وقد ينضاف الى ذلك علو الهمة وقوة الحرص وشهامة النفس .. وهذه الرغبة من الدوافع الايجابية في حياة الانسان أو حياة المجتمع ، لما يترتب عليها في حال توفيقها وتحقيقها من مصالح الاجتماع كإطفاء الفتن وإخماد الأحن وقمع البغاة ، وإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم . وفي هذا المعنى يورد قول الشاعر :

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل وكان أضغاثا نهبا لا قوانا

وهو يحث البصير الحازم الطامع في الرئاسة أو في السياسة أن يزن دوافعه ويقدر مصاعب الطريق وأعباءه ، لئلا يزن الأمور بميزان العدل ، وينزه نفسه عن الغواية والهوى ، فإذا دعت نفسه الى طلب الرئاسة مثلا ، متوهمة أنها تريد جمع الكلمة وإقامة الشريعة وكف الظلم ، فلا يثق بها في هذه الدعوى حتى يمتحنها . ولهذا الامتحان طريقة يذكرها (13) . فان ألفاها صادقة – وما أغرب ذلك – فليُنظر حينئذ في الامكان اى في الظروف والوسائل .

وهكذا يبدو تأثير العصر في فكر اليوسى السياسى والاجتماعى واضح البصمات ، فهو ينظر في كل ما ساقه من افكار الى طائفة من المغامرين ، الذين طمحوا الى الحكم من أجل القسطنطينية ، والى طائفة اخرى تدفعها دوافع دينية وإصلاحية لجمع الكلمة وتوحيد الأمة ودفع الشرور وحماية الثغور . ولكن الأمر اختلط بين هؤلاء وأولئك ، فهو يدعو الى امتحان تلك الدوافع ،

(13) المرجع السابق ص 110 / ..

والى اعمال النقد الذاتى فى تحليلها حتى يتميز طيب من خبيث ،
ومصلح من مفسد .

— 4 —

لا نستطيع ان ندرك ملامح الفكر السياسى عند اليوسى الا
اذا ربطنا بين هذا الفكر وبين عاملين : عامل الثقافة الاسلاميه
وعامل البيئه الوطنيه او بعبارة اخرى ، الدين كعقيدة وشريعه
ملزمين بموقف سياسى معين من ناحيه والتاريخ الوطنى والواقع
السياسى للعصر الذى عاش فيه اليوسى من ناحيه ثانيه .
فالعامل الاول : املى على اليوسى ما املى عليه من مبادئ
فى مقدمتها الاسهام فى توجيه السلطة السياسيه بالقدر الذى
يتحمله العالم المسلم فى البيئه الاسلاميه . وفى هذا الصدد نرى
الحسن اليوسى قد التزم بالتعبير عما رآه من آراء تجاه
السلطة السياسيه والاتجاهات السائدة فى عصره . وهذا ما كان
يعتبره دخلا فى اطار مسؤوليه العالم فى المجتمع الاسلامى .

والعامل الثانى : حدد له طبيعة الاسهام الفكرى فى
توجيه السلطة وفى تنوير الفكر العام فى بلده ، وبين مريديه ،
وجماعاته

ويأتى انتاج اليوسى ، فيما يخص (الرسائل) موجها
للى هذين الطرفين (14) .

(14) قامت بدراسة هذه الرسائل فى رسالة جامعية السيدة فاطمة خليل
القبلى بعنوان : رسائل ابي علي اليوسى . (رسالة مرقونة بمكتبة
كلية الآداب بغاس) .

— السلطة الحاكمة ، وهي الدولة ، ويمثلها السلطان المولى اسماعيل يومئذ .

— الرأي العام ، او الجماعات التي تستفتيه في مسألة من المسائل الشرعية .

والملاحظ أنه في الوقت الذي كان يخاطب الدولة او السلطان بمنتهى الشجاعة الادبية والصراحة في النقد والتوجيه والنصيحة ، نراه يؤكد ضرورة الطاعة لولى الامر في البلاد ، وهو السلطان ، شعورا منه بضرورة تثبيت المشروع وحياطتها بما يلزم من القناعة والتسليم ضمانا للاستقرار الاجتماعى الذي كان مطلبا أساسيا من مطالب ذلك العصر ، لكثرة ما عرفه من تمزق سياسى وانقسام فكري بين القوى الاجتماعية والدينية والاقليمية ، وما تخلل ذلك من مغامرات وطموحات الى الحكم . وشاهد ذلك خاتمة رسالته (في ندب الملوك للعدل (15) . حيث اعتبر من مهام الملوك حسم الفتن وتأمين السبل وحماية البيضة ، واعزاز الملة واطهار أئمة الاسلام ، مستشهدا بالاثار المروى (السلطان ظل الله في الارض) .

وسفرى ان العاملين معا يتكاملان في توجيه الفكر السياسى عند اليوسى في اطار الاهتمام الاجتماعى بأمرته ،

(15) توجد هذه الرسالة ضمن مجموعة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 364 د

وبالسياسة السائدة يومئذ ، مقدما آراءه في حدود الوعي الذي
اتيح له بالنسبة للحقبة التاريخية ، وتأتى (الرسالة الكبرى
لاسماعيل في مقدمة الرسائل الاجتماعية ، وان لم ينشئها
الا جوابا عن كتاب اليه تلقاه من السلطان المولى اسماعيل ،
يحملة بعض التبعات ، ويلاحظ عليه بعض الملاحظات تؤول
في نظر السلطان الى معنى العصيان والعصبية ، فيضطر
اليوسى الى الاجابة بتفصيل عن رسالة السلطان نقطة نقطة
وفقرة فقرة .

ونستطيع أن نجمل أهم النقاط التي طرقتها الرسالة في
مجال النكر السياسى ، في المسائل الآتية :

(1) تحديد نصاب الطاعة الواجبة لاولياء الامر على الرعية.
وفي هذا الصدد يرى اليوسى ان القدر المطلوب من الطاعة
لاولى الامر على الناس هو الا ينازعوه ولا يخالفوه ولا يحاربوه
وهنا يبدو لنا ان اليوسى لم يكن يدرك الجانب الايجابى في
الطاعة المطلوبة حتى في ضوء الالتزام بالاحكام الاسلامية
نفسها ، ولهذا اقتصر على الجانب السلبى ، فحصر الطاعة
في الامتناع عن الشغب والفتنة والمخالفة ، اما ما عدا ذلك من
الممارسات التي تدخل في الحقوق التي للأفراد مما هو مباح شرعا
كالتصرف فى الاحوال الشخصية والاهتمام بالشؤون
الاجتماعية وحرية التنقل ، وحرية الالتزام بالتوجيه العام او

عدم الالتزام به . فذلك كله لا دخل له في طاعة السلطان أو خروج منها . و المبدأ العام في هذا هو ان ما لم يكلفه الشرع فلا حق أن يكلفه ولي الامر ، وهو القائم بشؤون الشرع .
وقد كان اليوسى يقرر هذا المبدأ بصدد الدفاع عن نفسه تجاه المآخذ التى وردت في رسالة السلطان المولى اسماعيل عليه ، نراه يقرر ذلك في عبارات حاسمة صريحة ، معززة بالدليل الشرعى ، وكأنها تريد أن تستخلص الاساس الشرعى لحرية الفرد داخل المجتمع تجاه السلطة او تجاه الآخرين في مجتمع لم يكن يدرك بعد معنى حقوق الفرد خارج الاطار الشرعى .

(2) ضرورة قيام الحكم على أساس تطبيق الشريعة وتنفيذ أحكامها والانتهاى بنواهيها . ويستقى اليوسى الأمثلة والشواهد لتقرير هذه الحقيقة من حكم الخلفاء الراشدين ، ولمن تبعهم واقتدى بهديهم من الخلفاء اللاحقين ، واقفا عند الأمثلة المتعددة لاولئك الخلفاء ، الذين حكموا الشريعة من غير تردد واستمعوا الى النصيحة حين قدمها العلماء ، وآثروا تحكيم العقل على الهوى والشرع على الشهوة . وفي هذا الاتجاه تأتى رسالته الاخرى (رسالة ندب الملوك للعدل) (17) ، وتأتى في نفس الاتجاه السياسى الاجتماعى ايضا (رسالته الصغرى) (18) المعروفة

(17) سبقت الاشارة اليها في حاشية (15) .

(18) توجد مستقلة في عدة مخطوطات ، منها مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 7754 .

ببراءة اليوسى ، وهى التى ناقش فيها مسألة جباية الأموال ،
ومسألة الجهاد ، ومسألة القيام بحقوق العدل ، وما يتصل بذلك
عند اختلال الاحوال فى هذه الامور ، والنصح باصلاحها .
ويستوقفنا فى هذه الرسائل خلق العالم المسلم عند اليوسى ،
فقد تحلى بالصراحة والشجاعة فى توجيه الملاحظة واسداء
النصيحة . ولا أدل على ذلك من قوله وهو يخاطب المولى
اسماعيل : « وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل فى نفسه ،
فلا يأخذ لنفسه من المال الا بحق ، ويسأل العلماء عما يأخذ
ويعطى وما يأتى وما يذر . »

(3) منح حرية الفكر ، وجعل العلماء - وهم الممثلون للفكر - فى
سعة من الالزام السياسى . وهو ما عبر عنه اليوسى بعلاقة
العلماء بالملوك . وهو فى هذه النقطة يرجع الى تاريخ تلك
العلاقة التى عرفت لها صلة الملوك بالعلماء المتقدمين
ويرى كاستنتاج من مجموع تلك العلاقة عبر العصور أنهم
كانوا بين اثنتين :

— فاما الاتصال بالملوك والسلطين خدمة للمآرب ، وطلبا
للتوسع فى المكاسب ، أو للتمكن من الظفر بالمنافسين والخصوم .

— واما الانعزال عنهم تفرغا للعلم وقيامهم بحقوق تلقيه
ويذله ، تساميا بأنفسهم عن مغريات الدنيا التى لا تجد متسعا
فى صدور العلماء ، عملا بالحديث (من ازداد علما ولم يزد زهدا
لم يزد من الله الا بعدا) . وهو لذلك ينصح السلطان ألا يلزم
العلماء بملازمته للاعتبارات التى يحللها ، كما ينصحه ألا يصنع

صنيع الملوك المغاربة قبله من الموحدين والمرينيين ، الذين ألزموا العلماء بصحبتهم ، وأن عليه أن يقتدى بدلا منهم بالخلفاء الراشدين .

هذا جانب هام من رسائل اليوسى وبعض آثاره ، يكشف لنا عن ملامح الفكر للسياسى عند هذا العالم المغربى ، يمكن أن يقف بفضلها الى جانب أعلام الفكر السياسى الاسلامى الذين رصدوا مؤلفات بذاتها لهذا الموضوع او نشروا أفكارهم فى ثنايا رسائل ومؤلفات عامة أمثال ابن مسكويه والطرطوشى والماوردى وابن جماعة وابن تيمية وابن القيم وابن خلدون .

لقد كان اليوسى مثال المثقف المسلم أو الفقيه المسلم ، حين قام بالتزامه الفكرى تجاه مجتمعه وعصره ، وتجاه السلطة الشرعية فيه . وفى ضوء الثقافة الاسلامية لا يمكن الفصل بين العلم والعمل ، أو الحكم الشرعى والممارسة .

وتلك هى الثقافة المسؤولة كما يحددها الاسلام نفسه . ولا سيما حين يكون الظرف التاريخى داعيا الى هذا الالتزام الدينى والفكرى ، مثل الظرف الذى عاش فيه اليوسى ، فعمل جهده على تثبيت المسائل الآتية :

— تثبيت السلطة الشرعية فى البلاد ، لاستعادة المشروعية .
— بعث الوعى الدينى والاجتماعى ، ونقد الشعوذة وفضح أصحابها .

— توجيه السلطة نحو مسؤولياتها .
— تقديم النصيح والتوجيه والتعليم لكل من يتطلع الى ذلك .

ولا نستطيع أن نقدر هذه المسائل حق قدرها الا اذا نظرنا الى الفترة التاريخية التي عاش فيها اليوسى ، تلك الفترة التي سادها الخوف ، وتحكمت فيها الدسائس ، وأخذ فيها الناس بمجرد البرية والظن . فقد كان العصر عصر بناء وهدم ، وكانت مهمة العالم المثقف هو اختيار المسالك وتمييز المواقع بين هذه المتناقضات كلها ، والحفاظ على التوازن بين جواذب النفس ومغرياتها ، وبين داعى الواجب وهوائف الضمير . ولا نعتقد أن اليوسى اضاع توازنه بين هذه المطالب ، أو ضل سبيله بين تلك المتناقضات ، أو تخلص عن التزامه بوصفه عالما مسلما اتجاء أمته وتاريخ بلاده . لقد كان عطاء اليوسى الفكري والسياسى صورة من التحام العناصر الثقافية والاجتماعية في فكر هذا العالم وبهذا المعنى كان مثقفا حقيقيا . حاضر الوعى ، شاعرا بالمسؤولية . وذلك مبلغ ما يمكن أن يرجى من مثقف يلتحم بمجتمعه ، ويجعل نفسه شاهدا عليه ووجدانا نابضا بحبه والنصح له .

محمد الكتانى

فاس

الحسين اليوسى اللغوي

في كتابه "زهر الأكم في الأمثال والحكم"

د. محمد مجي

غلب التصوف والصلاح على شخصية الحسن اليوسى ،
وطغت مشاركته وتآليفه المتنوعة في المواضيع الدينية والعقلية
والأدبية على تخصصه كعالم لغوي بالدرجة الأولى . وقديماً
اشتهرت قولة اليوسى : « لو شئتُ ألا أتكلم إلا شعراً لفعلت ! »
فأنكرها المكابرون الجاهلون وعدوها ضرباً من الفخر التزق
والحذلقه الجامحة ، وعرف صدقها وأحقيتها المنصفون
الموقنون بمدى ضلالة الرجل في اللغة العربية وآدابها .
والعرب بالباب - كما يقول المثل - فهذا ديوان اليوسى
الضخم يدل - على نقصه - دلالة قاطعة على مكانة الشاعر
وامتلاكه ناصية اللغة يتصرف فيها على نحو ما تتصرف
العرب العرباء . بل هذه داليتة في تهنية ومدح الشيخ محمّد

ابن ناصر الدرعي نافست المعلقات المذهبات بل فاقتها
طولاً حيث تُعدّ أبياتها بالمئات ، وجارتها في متانة التركيب
وجزالة اللفظ والصدق في تمثيل الطبيعة وتصوير العاطفة .
وهذه رائيته البديعة في رثاء الزاوية الدلائية تأخذك منذ
المطلع ، وأنت ترى عين الشاعر تفيض من الدم الأحمر
كالعقيق ، وتشدّد شدّاً لقراءة أبياتها البالغة نحو المائتين ،
فيخيل اليك حيناً أنك مع امرئ القيس ، وحيناً مع زهير بن أبي
سلمى ، وأحياناً أخرى مع غيرهم من فحول الشعراء الجاهليين
والاسلاميين .

ليست تلك القدرة البالغة في قرض الشعر إلا مظهراً ثانوياً
لعربية اليوسى وتخصّصه ، وإنما تتجلى مكانته اللغوية وأصالته
أكثر فيما كتب من نثر ، سواء منه النثر الفني المنق الذي
يستهوئك ولا تكاد تفهمه إلا إذا أحطت نفسك بمعاجم اللغة
وكتب البلغاء ، أو النثر المرسل الذي يستخفك ويفيدك دون كبير
عناء . وذلك ما تجده في مؤلفات اليوسى المختلفة ورسائله
المطولة والمختصرة . وإنك لو أجدّ في كتاب زهر الأكم في
الأمثال والحكم بصفة خاصة ضرورياً من النثر والشعر
تدلك - متى قرأت وأمعنت النظر - على مصادر تلك الثروة
اللغوية الطائلة ، ألا وهي فهم القرآن والحديث ، ثم حذق آثار
اللغويين والبلاغيين القدامى أمثال الصومعي وسيبويه وثلث
والزمخشري وأضرابهم ، والاحاطة بأشعار الجاهليين
والاسلاميين ، ومن أتى بعدهم من المشاركة والمغاربة والاندلسيين .

ويرجع عهد اشتغال المسلمين بالأمثال الى العصر العباسي الأول في نطاق تلك الحركة الرائدة لجمع اللغة وتدوينها ، فرويت الأمثال ضمن أيام العرب وأشعارها ، وأخبار فرسانها وأجوادها وأقيالها وصعاليكها . ثم أخذ اللغويون يفردون الأمثال بالتأليف في القرون التالية ، واشتهر من بين ذلك كتاب **مجمع الأمثال** لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني المتوفى عام 1124/518 . وقد أشار الميداني في مقدمة كتابه الى صعوبة التأليف في هذا الموضوع ، ورجوعه الى نحو خمسين كتاباً مما كتبه من تقدمه من اللغويين .

ثم يجيء اليوسي في القرن الهجري الحادي عشر الذي خمدت فيه جذوة الدراسات اللغوية وطال العهد بها لا سيما في أقصى الغرب الاسلامي ، فيضع تصميماً لكتاب في الأمثال يغوق - لو تم - كتاب الميداني وغيره من المتقدمين . ويشتمل تصميم **زهر الأكم** على ستة وستين باباً مقسمة قسمين أو سمطين ، في السمط الاول الأمثال وما يلتحق بها ، في مقدمة وخاتمة وأربعة وثلاثين باباً ، تسعة وعشرون باباً في الأمثال المرتبة على حروف المعجم ، والأبواب الخمسة التالية ففى الامثال التركيبية ، والاعيان ، والامثال القرآنية ، والحديثية ، والتشبيهات الشعرية . ويحتوي السمط الثانى على الحكم وما يلتحق بها فى اثنين وثلاثين باباً ، تسعة وعشرون فى الحكم المرتبة على حروف المعجم ، وفى الابواب الثلاثة الاخيرة طائفة من الحكم المجموعة ، والنوادر ، والأوليات .

ويشاء القدر ألا يمهى عالمنا ليحقق غرضه كاملاً من الكتاب،
فيموت وهو لم يكتب منه غير المقدمة والخاتمة وأربعة عشر
باباً من السمط الأول ، غير أن المقدمة وحدها كافية للدلالة على
المكانة اللغوية للحسن اليوسي وقوة عارضته وسعة تفكيره ،
وفيها يعجب القارئ عندما يعرف أن اليوسي ألف زهر الأكم
دون أن يطلع على أي كتاب من كتب المتقدمين في الأمثال ،
وانما رجع الى قريحته وحصيلته اللغوية الخاصة . ويؤكد هذه
الدعوى ، فضلاً عن مروءة اليوسي وعدالته ، مقارنة ما كتبه في
زهر الأكم بما كتبه الميداني في مجمع الأمثال ،
فستان بين مُشْرِقٍ ومُغْرَبٍ ! ولا يظهر التباين بينهما في اختيار
الأمثال وترتيبها فحسب ، وإنما يظهر أيضاً في طريقة معالجة
الأمثال التي توارداً عليها ، اذ لكل منهما طريقته في الشرح
والتعليق .

وهناك الطابع المغربي في زهر الأكم يتمثل فيما
اختاره اليوسي من أشعار المغاربة والأندلسيين ، كقول مالك
ابن المرحل :

لا تُخَالِفْ مالِكاً في رأيهِ فبه يأخذُ أهلُ المغربِ

وفي الأمثال المغربية المتداولة في عصره والتي أورد عدداً
غير قليل منها عند المناسبات في ثنايا الأبواب ، لكنه « فصّحها »
ولم يذكرها بلسان العامة ، واضطراً بسبب ذلك الى تغيير بعض
ألفاظ هذه الأمثال ليستقيم تركيبها الفصيح ، ولم يحتفظ
باللفظ العامي إلا نادراً كالسَّبَّاط مثلاً في قولهم « إَمْشِ بالنَّعْلينِ

حتى تجد السَّبَاط « ، أورده في باب الباء مع المثل العربي :
« يُبْلَغُ الْخَضْمُ بِالْقَضْمِ » .

وربما كان من المستحسن هنا أن نورد نموذجاً من نشر
اليوسي في مقدمة زهر الأكم ، ومثلاً منه لمقارنة شرح
اليوسي بشرح الميداني . يقول الحسن اليوسي في فضل اللغة
العربية وشرف أمثال العرب وشكوى الزمن :

« . . . وان الذِّصِيصَى التي بها شرف الإنسان ، إنما هي
العلم واللسان ، فإنَّ المرءَ لو بلغ في كمال الجسم والجمال
أطوَرِيه ، لا يكون إنساناً إلا بِأَصْغَرِيه . . . وما امتاز اللين الذكي
عن العبي الغبي إلا برجاحة الجنان ، وفصاحة اللسان ،
فان الخَلِيقَ للأفكار ، عند اغتراعها المعاني الأكار ، والجدير
للأسنة عند اقتطافها أزهير البيان ، واهتصارها أفانيـن
التيبان ، أن يَتَمَيَّزَ فيها الفائق من المائق ، والسابق من السائق ؛
وعند مزاوله الغرض المعضل ، أن يُعَرَفَ المقرطس من المَخْضِل ،

وعند انتياش مضارب الأفهام ، أن يمتاز الصارم عن الكهام ،
وعند اقتباس حكمة تُسْتَشْعَر ، أن يشرف الموري عن الأدْعَر ،
وعند اقتسام مزايا الفضل الفسيح ، أن يفوز المعلى دون
السَّفيح ، وعند استفتاح المغالق ، وتغشي المضائق ، أن يُعْلَمَ
المُجْهِم من المُجْهِم ، والهصور من الحصور . فلا جرّم كان من
أجل العلوم وأفخرها ، وأحقها بالاعتناء به وأجديها ، علم
الأدب ، والتضلع من كلام العرب ، إذ به تنحل عُقْلَةُ اللسان ،

وَتُرَاحَ رَوْعَةُ الْجَنَانِ . وَهُوَ لِسَانُ نَبِينَا نُخْبَةُ الْعَالَمِ ، وَصَفْوَةُ وَلَدِ
 آدَمَ ، وَكِتَابُهُ الَّذِي أَخْرَسَ بِهِ مَصَاقِعَ الْبَيَانِ ، مِنْ بُلْغَاءِ عَدْنَانَ
 وَقَحْطَانَ ، حَتَّى عَدَلُوا عَنِ الْمَجَادِلَةِ إِلَى الطِّعْمَانِ ، وَعَنِ الْمَعَارِضَةِ
 إِلَى الْإِذْعَانِ . صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ مَا لَمَعَ بِسَارِقِ ،
 وَطَلَعَ شَارِقِ . فَهُوَ لِعَمْرِي أَجَلُ الْكَلَامِ ، وَأَشْرَفُ مَا اعْتَوَرَتْهُ
 الْأَلْسِنَةُ وَالْأَفْهَامُ ، وَأَبْهَى بَدْرِ يُسْتَجْلَى وَعُرُوسِ ، وَأَسْنَى أَثَرِ
 يُسْتَبْقَى فِي مِيَادِينِ الطُّرُوسِ . لَا سَيِّمَا عِلْمُ أَمْثَالِهَا الَّتِي هِيَ زِمَامُ
 كُلِّ مَعْنَى ، وَمَنَاطُ كُلِّ مَبْنَى ، وَمَنَارُ كُلِّ مَرْمَى ، وَمَصْبَاحُ كُلِّ
 ظَلَمًا ، وَبِهَا يَرْتَاضُ كُلُّ جَمُوحِ ، وَيُصْبِحُ الْمُنْبَهُمُ ذَا وَضُوحِ ،
 وَبِهَا يَعُودُ الْغَائِبُ مَشْهُودًا ، بَلِ الْمَعْدُومُ مُوجُودًا .

وَكَانَ الْأَقْدَمُونَ بِهَذَا الْفَنِّ مَعْتَنِينَ ، وَلِنَوَادِرِهِ مُلَقِّنِينَ
 وَمَدَّوْنِينَ ، يَرِدُّونَ مَوَارِدَهَا ، وَيَقْتَنَصُونَ شَوَارِدَهَا ، وَيَقْتَنِفُونَ
 أَزْهَارَهَا النَّخِيرَةَ ، وَيَتَنَسَّمُونَ نَسَمَاتِهَا الْعَطِيرَةَ ، وَيَرْتَشِفُونَ
 ثَغُورَهَا ، وَيَقْتَبِسُونَ نُورَهَا ، وَيَشِيمُونَ لَحَاتِ تِلْكَ الْبَوَارِقِ ،
 وَيَشِيمُونَ بِذَرَرِهَا صَفَحَاتِ الْمَهَارِقِ . فَلَوْ طَالَ الْعَهْدُ بِأَزْمَانِ الْعَرَبِ ،
 وَقُضِيَ مِنْ تَنَاسِيِ أَيَّامِهَا كُلُّ أَرْبَ ، تَغَلَّبَتِ الْعَجْمَةُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ
 وَالطَّبَاعِ ، فَخَلَّتْ مِنْ قَطِينِهَا هَاتِيكَ الرِّبَاعِ ، وَأَصْبَحَتْ حَدِيثًا
 مَهْجُورًا ، كَانَ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ، وَكَانَتْ أَيَّامُهَا مُحْضًى
 أَوْهَامِ ، فَكَانَهَا وَكَانَهُمْ أَحْلَامِ ، وَتَقَلَّصَ ضَافِي بُرْدِهَا ، وَتَكَدَّرَ
 ضَافِي وَرْدِهَا ، وَذَهَبَتِ الْمَعَارِفُ وَالْعَوَارِفُ ، وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا
 الْوَارِفُ ، وَأَمْسَتْ رِبَاعُ الْأَدِيبِ قَفْرًا ، وَرَاحَتِ الْخَوَاطِرُ مِنْهُ
 صِفْرًا .

وكانت لي نفسٌ تشوّقني إلى هذا الفنِّ وما أثره ، وتنازعني إلى تتبع دائرته ، فكنتُ أشتاقُ أن أرى في هذا موضوعاً ، وأصايفَ كتاباً مجموعاً ، ممّا غنيّ به الأقدمون ، واقتفى أثرهم فيهِ المتأخرون ، فلم يسمَحْ بذلك الدهرُ العقيم ، ولم يُظفِرْ بشيءٍ منه الجدُّ السقيم ، ولما لم أذُقْ من ذلك لَمَاقاً ، ولم يزدِدِ القلبُ إلا اشتياقاً ، طِفِقتُ أجولُ في عَرَصاتِ كتب الأدب ، وكلّ ما له مائةٌ بكلام العرب . ولم أزل أتتبعُ ظلالها ، وأشتفُ بِلالها ، وأرعاهما قنناً ووقاداً ، وأنتجعها فتوحاً وعهاداً ، وأحتلبها شصائصَ وشكاري ، وأعتنقها غوناً وأبكاراً ، حتى التقطتُ من ثمينِ جواهرها ، واقتطفتُ من ينبعِ زهرها ، ما يشفي القلبَ ، وينقحُ القلبَ ، ويميشُ ميثسَ الغصنِ المروح ، ويسري في الجسومِ مسرى الروح . فلما امتلأ بحمد الله من ذلك الوطاب ، وعاد البلحُ إلى الإزطاب ، هممتُ أن أجمع ما عليّ في هذا الوقتِ بخاطري ، ممّا ترقّى إليه نظري وناظري ، في كنّ يؤويه ، ومجموعِ يخويه ، حذاراً من النسيان ، عند تطاولِ الزمان ، فألفتُ هذا المجموعَ في الأمثال ، وأودعته كلَّ دُميعةٍ وتمثال . ثم رأيت أن أضُمَّ إليها من الحكَمِ جملةً ممّا انتهيتُ إليه ، ووقفتُ عند تطوّافي عليه ، تنميماً للفائدة ، وتكميلاً للعائدة ، مع قُرْبِ ما بين النوعين جدّاً ، كما ستقفُ عليه عند التعرّضِ لهما فضلاً وحداً . ف جاء بحمد الله كتاباً مُمتِعاً ، لِلأَذَانِ الصِّمِّ مُسمِعاً :

جمعتُ به والجفنُ مغضٍ على القَذَى
وبالخلدِ التلبّالِ أصبح ذا خُلْدِ

محاسن تَزْرِي بالنَّسِيم إذا سَتَرِي
فحَيْثُ مَحْيَا الشَّوْسَن الغَض وَالْوَرْد

وتَزْرِي بهَاءَ بِالْمَطِير من الرُّبَي
وبالعَذْب للَصَّادِي وبالكَاغِب الرَّاد

لَاكِنِّي ما غَوَّاصُهَا بِمُصَادِفٍ
لَهَا صَدَفًا فِي مُلْتَقَى أَبْحُر الهِنْد

ولا حُلِيْتُ يوماً بِهَا جِيْدُ غَاذَةٍ
ولا فَصَّلْتُ بالعُسْجَد الصَّرْد فِي عَقْد

فرائد ما مِنْهُنَّ إِلَّا خَرِيْدَةٌ
أَعَزُّ عَلَى المُرْتَادِ فِي الأَبْلَقِ الفَرْد

ومع هذا فَإِنِّي أعتذر لذوي النفوس الوقَّادة ، والصَّيَّارِفَةِ
النَّقَّادة ، مِنْ تقصيرٍ فِيهِ ، وَخَلَلٍ لَمْ يَتَّفِقْ تَلَاْفِيهِ . وكيف لا
يُعَذَّرُ ذُو بَالٍ مُتَقَسِّمٌ ، وَوَبَالٍ مُتَكَيِّمٌ ، وشَخِصٌ لَا يَبِينُ لِمَتَوَسِّمٍ ،
مَكْلُومٌ بِغَاغِرٍ مِنَ الخُطُوبِ مُتَبَسِّمٌ ، يَرْمُقُ العَيْشَ بَرِّضًا ، وَيَقْطَعُ
بَسِيطَ الحَيْرَةِ طُولًا وَعَرَضًا ، لَا يَتَرَجَّى مَدَدًا ، إِلَّا كَانَ كَمَدًا ،
وَلَا يَغْتَبِقُ إِلَّا عَبْرَةً ، وَلَا يَغْتَبِقُ إِلَّا زَفْرَةً ، وَلَا يَعْدُّ إِلَّا ذُنُوبَ الدهرِ ،
وَلَا يَعْدُّ إِلَّا ذُنُوبَ نَهْرٍ ، فِي فِتْنٍ تحُولُ بَيْنَ المرءِ وَقَلْبِهِ ، وتُذْهِلُ
غَيْلَانَ عَنْ حَيْثِهِ ، وَدهْرٍ حَالَ دُونَ القَرِيضِ ، بِالشَّجَى والجَرِيضِ ،
وَرَدَّ الأَوْجِ إِلَى الحَضِيضِ ، وَلَمْ يجعلْ بُدًّا مِنْ مُصَادَقَةِ التَّبْغِيضِ ؛
وَأَعَادَ الصُّدُورَ أَغْقَابًا ، والنَّوَاصِي أَدْنَابًا ، وَكَدَّرَ كُلَّ صَفْوٍ ،
وَأَوْرَثَ كُلَّ شَجْوٍ ، وَخَلَفَ مِنْ بَنِيهِ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ ، وَزُبَانَسِي

العقرب ، لا يتجرّعون إِلَّا عَلاَئِمَ ، ولا يَلْتَمِسُونَ إِلَّا أَرَاقِمَ .
أَمَّا أَذْنَابُهَا فَرَعَاعٌ ، وَشَرٌّ شَعَاعٌ ، وَفَتَنَةٌ وَرُدُّهَا قَعَاعٌ ،
وِظْلَمَةٌ لَيْسَ بِهَا شُعَاعٌ ؛ وَأَمَّا ذُرَاهَا فَلَا تَعْدُو رَضِيْعًا تَبْكِي
الْمَخَاضَ الْجَرْبَ لِمَصَابِهِ ، وَتَشْكُو الصُّفْرَ وَالْبَيْضَ يَدَ الضِّيَاعِ
لِصِفْرِ وَطَابِهِ ، وَخَلِيْعًا يَذْهَبُ دَهْرُهُ مَا بَيْنَ الرَّيْحِ وَالرُّخْسَةِ ،
وَالْفَخِّ وَالْفَخَّةِ ، وَكِلَا النُّوعَيْنِ قَدْ أَنْزَلَهُمَا أَسْوَدُ الْعَيْنِ طَرَفَهُ ،
وَتَضَمَّنَهُمَا الْقَمَرَانِ الْمُشْتَبِهَانِ فِي بَيْتِ طَرَفَةٍ .

وَكَانَ الْأَدَبُ وَسَائِرُ الْعُلُومِ قَدِيمًا إِنَّمَا يُحْيِي غِرَاسَتَهَا ،
وَيُسْنِي مَرَاسَتَهَا ، وَيُطَيِّبُ أَنْفَاسَهَا ، وَيُحَيِّبُ نَفَاسَتَهَا ، الْفَضْلُ
الْهَامُ ، وَالْعَدْلُ الْجَامُ . فَأَمَّا الْيَوْمَ فَلَا نَدَى يَسْتَقِيمُ الْإِبْدَاعُ ،
وَلَا انْتِصَافٌ يَتَلَاقَى الْإِنْصَادُ ؛ فَأَيُّ عِلْمٍ يَرْتَجِي مِمَّنْ زَوَالُ
الرَّوْعِ عِنْدَهُ مُنْتَهَى الرَّجَا ؟ قَنُوعٌ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَمَنْ
الْإِيْرَابِ ، بِنُقَاصَةِ الْجِرَابِ ، وَمَنْ الشَّرَابِ ، بِلَمَحَةِ السَّرَابِ !
وَكَيْفَ يُمْكِنُ لِمِثْلِي أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ كِلِمَتَيْنِ ، فَضْلًا عَنْ فَضْلَيْنِ ؟ لَكِنْ
لَمَّا لَمْ يَكُنِ التَّجَزُّعُ عِنْدَ حُلُولِ الْأَقْدَارِ ، مِنْ شِيَمِ الْأَحْرَارِ ،
قَبِضْتُ عَلَى أَحَرٍّ مِنْ جَمْرٍ ، وَتَجَلَّدْتُ عَلَى مَا بِي مِنْ ضَمَرٍ ،
وَتَنَيْتُ الصُّلُوعَ عَلَى أَذَاهَا ، وَأَغْضَيْتُ الْجَفُونَ عَلَى قَذَاهَا ،
فَجَمَعْتُ هَذِهِ الْأَحْرَفَ عَلَى حِينٍ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا رَسْمُهُ ،
وَمِنَ التَّحْقِيقِ إِلَّا اسْمُهُ ، مِنْ غَيْرِ كَبِيرٍ عُدَّةٍ اعْتَمَدُ عَلَيْهَا ، وَأَرْجَعُ
عِنْدَ الْمُعْوَصَاتِ إِلَيْهَا ، وَلَا وَجُودِ مُصَنِّفٍ فِي هَذَا الْفَنِّ أَهْتَدِي
بِمَنَارِهِ ، وَأَسْتَضِيءُ بِضَوْءِ نَهَارِهِ ، وَأِنَّمَا اقْتَدَحْتُ الْفِكْرَ
السَّادِرَ ، فَاقْتَرَحْتُ نَوَادِرَ ، جَمَعْتُهَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَحَدَرْتُهَا
مِنْ كُلِّ صَوْبٍ ، وَلَا أَكَادُ مَعَ ذَلِكَ أَجْدُ مَثَلًا مِنْهَا مُتَكَلِّمًا عَلَيْهِ ،

وَمُنَبَّهًا فِيهِ عَلَى مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا يُذَكَّرُ جُلُّهَا مُجَرَّدًا ،
فَالْتَقِطْهُ مُفْرَدًا ، ثُمَّ أَتَحَمَّلُ أَعْبَاءَ شَرْحِ الْفَاضِلِ وَمَعَانِيهِ ، وَأَتَكَلَّفُ
مِنْ دَوَاوِينِ الْعَرَبِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِحْضَارَ شَوَاهِدِهِ وَمَبَانِيهِ .
فَكُنْتُ فِي ذَلِكَ ثِيْبَةً الْوَاضِعِ وَإِنْ سُبِقْتُ ، وَالْمُخْتَرِعِ وَإِنْ نَقَلْتُ .
وَأَضَفْتُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ نَفَائِيسِ النَّوَادِرِ ذُرًّا ، وَمِنْ نُكَّتِ الْفَوَائِدِ
غَرًّا . وَجَمَعْتُ فِيهِ مِنْ شِعْرِ الْأَقْدَمِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ عِيُونًا ،
وَقَضَيْتُ مِنْ غَرِيبِهِ ذِيُونًا . وَمَا ذَكَرْتُ شِعْرًا إِلَّا أَخْتَرْتُهُ ، وَلَا
أَلَمْتُ بِمَنْزَعٍ إِلَّا حَرَّرْتُهُ ، وَلَا دَفَعْتُ إِلَى مُبْتِهِمْ إِلَّا أَوْضَحْتُهِ ،
وَلَا افْتَتَحْتُ بَابًا إِلَّا أَتَمَمْتُهُ ، مَعَ جَمَلَةٍ وَافِرَةٍ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ ،
تَكُونُ لِلْمُقْتَصِرِ عَلَيْهِ كَفَايَةً وَبُلْغَةً ، لَوْلَا أَنِّي رُمْتُ بِذَلَا عَلَى
تَقْتِيرٍ ، وَإِنْتِبَاضًا بِلَا تَوْتِيرٍ . فَإِنْ جَاءَ وَفَّقَ الْغَرَضُ ، وَقَضَى
الْحَقُّ الْمُفْتَرَضُ ، فَلِلَّهِ تَعَالَى الْمِنَّةُ ، وَمِنِ الْخَوْلِ وَالْمِنَّةُ ... »



وَهَذَا مَثَلٌ مِنَ الْأَمْثَالِ الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِي الْمِيدَانِيِّ وَالْيُوسِي ،
نَقِذِّمُ أَوَّلًا نَصَّ مَا كَتَبَهُ الْمِيدَانِيُّ — وَهُوَ قَلِيلٌ — قَبْلَ أَنْ نَأْتِيَ
بِكَلَامِ الْيُوسِي لِنَرَى الْفَرْقَ بَيْنَ الشَّرْحَيْنِ وَالتَّعْلِيلَيْنِ لِلْمَثَلِ :

أَنَا جَذَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ وَعَذِيْقُهَا الْمُرْجَبُ

يَقُولُ الْمِيدَانِيُّ (1) :

(1) مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ تَحْقِيقُ مُحَمَّدٍ مَحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ ، طَبْعَةٌ
دَارُ الْفِكْرِ الثَّلَاثَةِ ، 1393 هـ / 1972 م ، الْجُزْءُ الْأَوَّلُ ، ص. 31-32

« الجَذِيل : تصغير الجَذْل ، وهو أصل الشجرة . والمُحَكَّك : الذي تتحكَّكُ به الإبلُ الجَرَبِي ، وهو عودٌ يُنصَب في مبارك الإبلِ تتمرَّسُ به الإبلُ الجَرَبِي . والعَذِيق : تصغير العَذْق — بفتح العين — وهو النخلة . والمرَجَّب : الذي جعل له رُجْبَة وهي دعامة تُبنى حولها من الحجارة ، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوَّفوا عليها أن تنقير من الرياح العواصف . وهذا تصغير يراد به التكبير ، نحو قول لبيد :

وكلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بينهم دَوِيهَةٌ تصَفَرُ منها الأناملُ

يعنى الموت . قال أبو عبيد : هذا قول الحُبَاب بن المنذر بن الجَمُوح الأنصاري ، قاله يوم السقيفة عند بيعة أبي بكر ، يريد أنه رجلٌ يُستشْفى برأيه وعقله .



ويقول الحسن اليوسي في شرح المثل السابق :

« لما قبض النبيُّ صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ، فأتاهم أبو بكر وعمر وغيرهما من المهاجرين — رضي الله تعالى عن الجميع — فتكلم أبو بكر ، والقصة مشهورة ، وتكلم رجلٌ من الأنصار ، وفي رواية : وهو الحُبَاب بن المنذر ، فقال : أنا جَذِيلُهَا المُحَكَّك ، وعَذِيقُهَا المُرَجَّب ، مِنَّا أميرٌ ومنكم أمير !

● والجَذِيل : تصغير جَذَل - بكسر الجيم ، وتَفْتَح ، وبالدَّال المعجمة الساكنة - . والجَذَلُ : ما عَظُمَ مِنْ أَصُولِ الشَّجَرِ ، أو أَصْلُ الشَّجَرِ وَغَيْرِهَا بَعْدَ ذَهَابِ الْفَرْعِ . والجمع أَجْدَالٌ وَجُذُولٌ وَجِذَالٌ وَجُذُولَةٌ . قال امرؤ القيس :

كَانَ عَلَى لَبَاتِيهَا جَمْرٌ مُصْطَلِي
أَصَابَ غَضًّا جَزَلًا وَكُفَّ بِأَجْذَالِ

● والجَذَلُ أَيْضًا : عودٌ يُنْصَبُ لِلْجَرْبَى لَتَحْتَكَّ بِهِ ، وهو المقصود هنا . ويقال : هو عودٌ يُنْصَبُ فِي مَبْرَكِ الْإِبِلِ تَحْتَكُّ بِهِ لِتُرِيلَ مَا عَلَيْهَا مِنْ قُرَادٍ وَكَلٍّ مَا لَزِقَ بِهَا فَتُسْتَشْفَى بِذَلِكَ ، ويكون كالتَّمْرِغِ لِلدَّابَّةِ . قال الراجز :

لَا قَتَّ عَلَى الْمَاءِ جُذَيْلًا وَاتِدَا

وَيُضْرَبُ مَثَلًا لِلرَّجُلِ فَيُقَالُ : هُوَ جَذَلٌ مُحَاكَّةٌ وَجِذَلٌ حِكَاكٌ . قال الأصمعي : قلت لأعرابي : أَلَاكَ بَنُونَ ؟ قال : نعم ، وَخَالِقِيهِمْ لَمْ تَقُمْ عَلَى مِثْلِهِمْ مُنْجِبَةً . قلت : صِفْهُمْ لِي . قال : جَهْمٌ وَمَا جَهْمٌ ! يُنْضِي الْوَهْمُ ، وَيَصُدُّ الدَّهْمُ ، وَيَفْرِي الصُّفُوفُ ، وَيُعِلُّ السُّيُوفُ ! قلت ثُمَّ مَنْ ؟ قال : غَشْمَشْمٌ وَمَا غَشْمَشْمٌ ! مَا لَهُ مُقَسَمٌ ، وَقِرْنُهُ مُجَزَّجَمٌ ، جَذَلٌ حِكَاكٌ ، وَمِدْرَهُ لِكَاكَ ! قلت ثُمَّ مَنْ ؟ قال : عَشْرَبٌّ وَمَا عَشْرَبٌّ ! لَيْثٌ مُحَرَّبٌ ، وَسِمَامٌ مُقَشَّبٌ ، ذِكْرُهُ بَاهِرٌ ، وَخَصْمُهُ غَاثِرٌ ، وَفَنَاؤُهُ رَحَابٌ ، وَدَاعِيهِ مُجَابٌ ! قلت : فَصِفْ لِي نَفْسَكَ ! قال : لَيْثٌ أَبُو رِيَابِنَلٍ ، رَكَابٌ مَعَاظِلٌ ، عَسَافٌ مَجَاهِلٌ ، حَمَالٌ أَعْبَاءٌ ، نَهَاضٌ يَبْزَلَاءُ !

قوله يُنْضِي الْوَهْمَ أي يُهْزِلُ الْوَهْمَ ، وهو الجمل الضخم
من قوته .

وَيَصُدُّ الدَّهْمَ أي يَكْفُ الدَّهْمَ ، وهو العدد الكثير من العدو .
وَيَفْرِى الصُّفوف : أي يَشْقُهَا في القتال مُقَدِّمًا .
وَيُعِلُّ السُّيُوفَ : أي يُورِدُهَا دماءَ الأقران مرةً ثانية ،
مِنَ الْعَالِ فِي الشَّرْبِ .

وقوله قَرْنُهُ مُجَرَّجَمٌ : أي مُبَارِزُهُ مُجَرَّجَمٌ أي مَضْرُوعٌ .
وَجِذْلُ حِكَاكَ : أي يُسْتَشْفَى بِهِ في الأمور ، كَالْجِذْلِ
المنصوب الذي تستشفي به الإبلُ الجَرَبَى .

وَالْمِذْرَه : نَسَانُ الْقَوْمِ . وَاللِّكَاك : الزَّحَامُ .
وَاللَّيْثُ الْمُحَرَّبُ : الْمُغْضَبُ ، وهو أَشَدُّ مَا يَكُونُ .
وَالْمُقَشَّبُ : الْمَخْلُوطُ . وَالْبَاهِرُ : الْغَالِبُ .
وَالرَّيَابِلُ : جَمْعُ رِيَالٍ - يُهْمَزُ وَلَا يُهْمَزُ - وهو الْأُسْدُ .
وَالْمُعَاضِلُ : الدَّوَاهِي . وَالْعَسَافُ : الرِّكَابُ الطَّرِيقُ عَلَى
غَيْرِ هَذَايَةِ .

وَالْمَجَاهِلُ : الْفَلَوَاتُ . وَالْأَعْبَاءُ : الْأَثْقَالُ . وَالْبَزْلَاءُ : الرَّأْيُ
الْجَيِّدُ ، وهو مِثْلُ سِيَاتِي .

● وأما العَذِيقُ فهو تصغير عَذَقَ . وهو بالفتح : النخلة بِحَمْلِهَا ، وبالكسر : القِنُوءُ منها . والمقصود هنا الأول .

● والمرْجَبُ : المعظم . يقال رَجَبْتُهُ تَرْجِيئًا : عَظَّمْتُهُ . ومنه رَجَبٌ لتعظيمهم إياه . ويقال إن فلانًا لمرْجَبٌ أي عظيم . وحدث الأصمعي قال : مررت في بلاد بني عامر بحِلَّةٍ في غائِطٍ يَطْوُهُم الطريق ، فسمعت رجلاً يُنْشِدُ في ظِلِّ خِيمةٍ له ويقول :

أَحَقُّ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ نَاضِرًا إِلَى قَرَقَرَى يَوْمًا وَأَعْلَامِهَا الْغُبْرُ
كَانَ فَوَادِي كُلَّمَا مَرَّ رَاكِبٌ جَنَاحُ غَرَابٍ رَامَ نَهْضًا إِلَى وَكْرٍ
إِذَا رَحَلَتْ نَحْوَ الْيَمَامَةِ رَفْقَةً دَعَاكَ الْهَوَى وَاهْتَاَجَ قَلْبُكَ لِلذِّكْرِ
فِيَا رَاكِبَ الْوَجْدَاءِ أَبْتَ مُسَلِّمًا وَلَا زِلْتَمِينَ رَبِيبِ الْحَوَادِثِ فِي سِتْرِ
إِذَا مَا أَتَيْتَ الْعَرَضَ فَاهْتَفِ بِجَوِّهِ شَقِيتَ عَلَى شَحِطِ النَّوَى سَلِ الْقَطْرِ
فَإِنَّكَ مِنْ وَادٍ إِلَيَّ مُرْجَبٍ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَرْدَادُ إِلَّا عَلَى عُفْرِ

قال : فلما رَأَيْتُ مُصَفِيًا إِلَيْهِ أَشَارَ إِلَيَّ فَاسْتَأْنَسَنِي
وَأَنْزَلَنِي وَصَنَعَ طَعَامًا ، فَقُلْتُ : أَنَا إِلَى غَيْرِ هَذَا أَحْوَجُ ؛ قَالَ :
مَاذَا ؟ قُلْتُ : تَنْشِدُنِي ؛ قَالَ : أَفْعَلُ . فَلَمَّا أَصَبْتُ مِنَ الطَّعَامِ
قُلْتُ : الْوَعْدُ ؛ فَأَنْشِدْنِي :

لَقَدْ طَرَقْتُ أُمَّ الْخَشِيفِ وَإِنَّهَا إِذَا صَرَغَ الْقَوْمَ الْكَرَى لَطَرُورُ
فِيَا كِيدًا يَحْمَى عَلَيْهِمَا وَإِنَّهَا مَخَافَةٌ هَيْضَاتِ النَّوَى لَخَفُورُ
أَقَامَ فَرِيقٌ مِنْ أَنْاسٍ يَوَدُّهُمْ بِذَاتِ الْغَضَى قَلْبِي وَبَانَ فَرِيقُ

لحاجة محزونٍ يظلُّ وقلْبُه رهنٌ بتيّضاتِ الجبالِ صديقُ
تَحْمَلَنَ إِنْ هَبَّتْ لهنَّ عَشِيَّةٌ جنوبٌ وإنْ لاحتْ لهنَّ بُروقُ
كَانَ فُضُولَ الرَّقْمِ حِينَ جَعَلَتْهَا غديّاً على أديمِ الجمالِ عُذوقُ
وفيهنَّ من بُخْتِ النِّسَاءِ رِيْحَلَةٌ تكادُ بها غُرَّ السَّحَابِ تَرُوقُ
هَجَانٌ فَأَمَّا الدِّعْصُ مِنْ أَخْرَيْلَتِهَا فَوَعَتْ وَأَمَّا خَصْرُهَا فَتَقِيصُ

بقوله « فإنك من وادٍ إلى مرجب » : أي مُعْظَم .
وقوله في القطعة الثانية :

كَانَ فُضُولَ الرَّقْمِ حِينَ جَعَلَتْهَا غديّاً على أديمِ الجمالِ عُذوقُ
أي تَخَلَّات ، جمع عَذَق ، وهو النخلة كما ذكرنا قبل ،
أو قَنَوَانُهَا ، وهو تشبيه مشهور عند القدماء ، يُشَبِّهُونَ الخُمُولَ
والبُرودَ المرقومة فيها بالنخيل إذا أነع ثمرها فاحمرَّ واصفرَّ ؛
قال امرؤ القيس :

أو المَكْرَعَاتُ مِنْ نَخِيلِ ابْنِ يَامِينَ
دَوَيْنَ الصَّفا اللَّائِي يَلِينُ الْمُشَقَّرَا
سَوَامِقَ جَبَّارٍ أَثِيثٍ فُرُوعُهُ
وَعَالَيْنَ قَنَوَاناً مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَا

وقال أيضاً :

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فَسُوقَ عِقْمَةٍ كَجِرْمَةِ نَخْلٍ أَوْ كَحِجَّةٍ يَشْرِيبُ

وقد عُلم اشتمالُ الكلام على مَثَلَيْن ، وليس مثلاً واحداً ،
 إلا أنهما يقرن بينهما كثير . وفي مقامات البديع قوله : « حتى
 إذا مال الكلام بنا مَيْلَهُ ، وجَرَ الجِدالَ بيننا ذَيْلَهُ ، قال أصبتم
 عَذِيقَهُ ، ووافيتم جَذِيلَهُ الخ » .
 وقيل معنى أنا جَذِيلُها المَحْك : أنا صاحب رَهان .
 والمَحْك : المعاوذة لها ، كما قال الراجز :

جِذْلُ رَهانٍ في ذِراعِهِ حَذَب

أي الشير . ويقال أيضاً رجل مَحْك أي مجرَّبٌ للأُمُور
 بَصِيرٌ بخيرها وشِرِّها . وهو مدحٌ في الرجال ذَمٌّ في النساء . قال
 الحماسي :

لَا تَنْكِحَنَّ الدَّهْرَ ما عِشْتَ أَيِّماً مُجَرَّبَةً قَدْ مَلَّ مِنْهَا وَمَلَّتْ
 ويقال أيضاً : أنا جَحْيَرُها المؤرَّب ، وعَذِيقُها المَجَرَّب .
 والجَحْيَر تصغير جُحْر وهو الغار . والمؤرَّب المؤفَّر المَلَمَم .
 ومعناه واضح من الذي قبله .

♦♦

هكذا يكون اليوسى كتب في شرح هذا المثل عشرة أضعاف
 ما كتبه الميدانى فيه . والمؤلفان وإن اتفقا في بعض الجزئيات
 من شرح المفردات وغير ذلك فإن اليوسى قد امتاز عن صاحبه
 بأشياء نجل الإشارة إليها — دون أن ندخل في تفاصيل
 المقارنة — فيما يلي :

● والتَّرجيبُ في النخل : أن يُجْعَلَ للنخلة دُكَّانٌ تعتمد عليه أو تُدَعَّم بشيء إذا كثر حملها ليلاً تنكسر . ويسمَّى ذلك الدكان الرَّجْبِيَّةَ - بضم الراء - . وقيل : أن يغرز الشوك حولها حتى لا يوصل إليها . وقيل أن تُضَمَّ قَنَوَانُهَا إلى سَعَفَاتِهَا وتُشَدُّ بالخوص حتى لا ينفُضَها الريح ، فيقال : نخلة مُرَجَّبَةٌ ، وعِذْقُ مُرَجَّب . ويقال أيضاً نَخْلَةٌ رَجَبِيَّةٌ - بتخفيف الجيم وتشديد هاء - ويُنشد بهما قول الشاعر :

لَيْسَتْ يَسْنَاهُ وَلَا رَجَبِيَّةٌ وَلَكِنْ عَرَايَا فِي السِّنِينَ الْجَوَائِحِ
وَلَا يُرَجَّبُ مِنَ النَّخْلِ إِلَّا الْكَرِيمَةُ .

● واعلم أن التصغير في كلِّ من الجُذَيْلِ والعَذِيقِ للتعظيم على ما أثبت الكوفيون من ورود التصغير للتعظيم ، كقول ليبيد :
فَوَيْقَ جُبَيْلٍ شَامِخٍ لَنْ تَنَالَهُ بِهَيْمَتِهِ حَتَّى تَكِيلَ وَتَعْمَلَا
وقيل للتقريب كما في بُنَيٍّ وَأُخَيٍّ .

• وقد تحصل في معنى الكلام بجملة أنه يقول : أنا الذي يُرْجَع إليه في النَّائِبَاتِ ، وَيُتَمَسَّكُ بِذِيْلِهِ فِي الْمَلَمَّاتِ ، وَيُسْتَنْدُ إلى عقله في الحوادث المُلْهِمَاتِ ، وَيُسْتَشْفَى بِفَضْلِ رَأْيِهِ فِي الْمَعْصِيَّاتِ الْمُعْصِيَّاتِ ، كَالْجُذَيْلِ الَّذِي تَسْتَشْفِي بِالِاحْتِكَاكِ بِهِ الْإِبِلُ . وَأَنَا لِي أَيْضاً أَهْلٌ يَحْفَظُونِي وَيَأْوُونِي ، وَغُصْبَةٌ يَنْصُرُونِي وَيَمْنَعُونِي ، كَالنَّخْلَةِ الْمُتَمَتِّعَةِ بِرَجَبَتِهَا ، الْكَرِيمَةِ عَلَى أَهْلِهَا ، إِذْ لَا يَرْجَبُ مِنَ النَّخْلِ إِلَّا الْكَرَامُ كَمَا مَرَّ .

— نسب المؤلفان معاً المثل الى الخُباب بن المنذر خطيب الأنصار يوم السقيفة ، إلا أن اليوسى بيّن الإطار التاريخي للمثل بتلخيص حادث السقيفة واختلاف المهاجرين والأنصار . ثم لم يقتصر على لفظ المثل — كما فعل الميداني — بل أتى بكلام الخُباب كاملاً : « أنا جَذِيلُهَا المحْكُكُ ، وَغَذِيْقُهَا المرجَّبُ ، منا أمير ومنكم أمير ! » ليظهر وجه الاختلاف والدعوى .

— أورد اليوسى معاني متعددة للجِذْل — بدل المعنى الوحيد عند الميداني — وذكر جموعه مستشهداً ببيت امرئ القيس ، وقول الراجز ، وقصة الأصمعي مع الاعرابي أبى الريابل ، وشارحاً ما غمض فيها .

— أتى اليوسى بمادة (رجب) مبيناً معانيها الأصلية والفرعية ، مستشهداً بالقطعتين اللتين رواهما الأصمعي عن العامري ، وقد ورد في أولاهما : « وادِ مرجَّب » وفي الثانية : « كأن فضول الرقم . . . عذوق » مبيناً كذلك اختلاف معاني العذوق باختلاف فتح أوله أو كسره ، في حين اقتصر الميداني على معنى إجمالى للكلمتين معاً .

ولم يفت اليوسى هنا أن يُنَيِّه الى ما اشتهر عند القدماء من تشبيه البرود الملونة بالنخيل المونع ، مستشهداً بأبيات امرئ القيس ، قبل أن ينتقل للكلام عن ترجيب النخل وطرقه المختلفة عند العرب .

— افترض اليوسى لتصغير كلمتي المثل أحد احتمالين : التعظيم على مذهب الكوفيين ، أو التقريب على مذهب غيرهم ،

في حين جزم الميداني أن التصغير للتكبير .
- بين الميداني مضرب المثل في الأخير بجملة واحدة :
« يريد أنه رجلٌ يُستشفى برأيه وعقله » وهو بيان مبتور لا
ينطبق إلا على الشطر الأول من المثل . في حين أتى اليوسي
بفقرة كاملة - كتبت بالاسود - تتساق فيها العبارات
المسجعات المتكاملات ، لتستوعب الشروح الضافية السابقة
وتلخصها .



اننا لم نقصد الى التنقيص من قدر أبى الفضل الميداني
أو غيره ، وانما قصدنا الى بيان أصالة الحسن اليوسي في فن
سبقه الميداني الى التأليف فيه بستة قرون ، وسبقه غير
الميداني فيه بسعة أو ثمانية أو تسعة قرون ، ومع ذلك كتب
اليوسي ما كتب في الأمثال ، أواخر القرن الهجري الحادي
عشر ، ابتكاراً على غير مثال سابق ، بل ودون أن يطلع على أي
كتاب في الأمثال ، وكان زهر الأكم ألف في عصر ازدهار
العلوم العربيّة أيام العباسيين ، إذ المصادرمصادر ذلك العصر ،
والأسلوب متين سليم ، والتفكير حر مبدع لا يعرف قيود
التقليد والترديد .

د . محمد حجي

الرباط

ملاحظة :

تم تحقيق الجزئين الاول والثاني من كتاب زهر الأكم في الأمثال والحكم
من طرف الاستاذين محمد حجي ومحمد الأخضر ، وهما الآن قيد الطبع
بمعهد الدراسات والبحاث للتعريب بالرباط .

شعر الحسين اليوسى

محمدا بن تاووت

أثر عن أبى على اليوسى ، أنه قال « لو شئت أن لا أتكم
إلا نظما لفعلت » وهى قوله قالها أبو العتاهية فيما قبل بنحو
تسعة قرون ، وحق لهما أن يقولاهما ، وإن كان البون شاسعا
بينهما :

فأبو العتاهية شاعر قبل أن يكون ناظما ، أما أبو على فهو
ناظم قبل أن يكون شاعرا ، إذ غالب شعره يتسم بالفاظ وأساليب
تجتنبها نوااميس الشعر وطقوسه ، ولا يعزب عنا هذا حتى فى عيون
قصائده ، ان صح أن نسميها عيوننا ، وهذه « العيون » تتسم
بالكم ، أكثر مما تتسم بالكيف ، وعلى هذا الاساس ، نلتمسها
فى الطوال من قصائده ، كداليتة التى هنا بها الشيخ سىدى امحمد
الناصرى ، ورائيته التى رثى بها الزاوية الدلائية ورائية أخرى

في عزة النفس وعلو الهمم ، ونونيته التي أجاب بها الشيخ أحمد
المباركي عن أبياته التي خاطبه بها .

واذ قلنا ما قلناه في شعره على العموم ، فالمنتظر أن يخلو
من الصنعة والتصنع ، وهذا واقع في الغالب ، أما في غير ذلك ،
فقد حام أبو على حول الحمى لتلك الصنعة وهذا التصنع ،
وخصوصا فيما يتصل بالالفاظ في جناساتها ولزوم ما لا يلزم منها
وفي الالغاز بها .

هذا ما يتصل بالشكل ، أما ما يتصل بالموضوع ، فان
الاخوانيات طاغية فيه على غيرها ، يليها التوسل بالاولياء والتبرك
بأضرحتها ومدح الرسول وصحابته ، والحنين الى الديار المقدسة،
ومناجاة الذات القدسية ، ثم الحكم والنصائح ، فالعزوف عن
المقامات التي تذل فيها رقاب الاحرار ، ومجابهة الخصوم ،
خصوصا منهم علماء فاس الذين لم يعترفوا له بباعه الطويل ،
حينما حل بأظهرهم بأمر السلطان مولاي رشيد ، الذي كان يقدره
حق قدره ، ويشير عليه بالنظم في بعض آثاره الخالدة .

وباب الاخوانيات التي أسلفنا ، باب واسع ، يلجه ما له من
أمداح لأحيائهم ومراثيه لأمواتهم ، وتهانيه لكبارهم ، ونصائحه
لصغارهم ، وقد يتحول الموقف فيهم ، فينال بعضهم بهجو يشبه
العتاب ، أو ينال بذلك بلدهم ، بعد ما يكون قد مدحه ، أو قبل
ما يكون قد مدح ، كما حدث منه تجاه تطوان ، التي أشاد بها
أشادة لا تقل عنها أشادته بمدينة شفشاون وأهلها ، أو مراکش
التي أقام بها طويلا ، ثم صار يحن الى وطنه الاول وأقاربه به ،

فهذه المدينة بالذات نالت منه حظوة ، لم تتلها سلا ولا القصر
الكبير ، اللذان رثى لحالهما ولحال رجالهما ، ولم يذكر فاسا
الا بالنعى على علمائها خاصة ، وسكت عنها نفسها ، كما سكت
عن رجال مكناس أو فازاز اللتين ورد ذكرهما عرضا فقط .

والصفة الغالبة على شعره هي الجدية ، ولكنه لم يشأ أن
ينأى بجانبه عن الغزل والنسيب ، فقال فيهما على الاستقلال ،
زيادة على ما قاله فيهما في افتتاحيات قصائده العديدة .

ولاشك أنه كان يتفرغ لنظمه ، كما أنه قد قال على الارتجال ،
بعض قطعه ، وأعجب ما قاله على الارتجال غينية فاه بها ، وقد
زار أقاربه فبكت للقياء أخته ، عند السلام ، ولما سالها ، قائلا ،
أليس هذا وقت سرور ؟ فما يبكيك ؟ أجابت ، ذكرت يوم فراقك ،
فأنشأ أبياته :

ومحزونة بالبين طال بها الجوى
علينا وشوق في الجوانح لداغ
تبدت وجفناها يعاريهما الحيا
وما تحت جنبيها من الفرش لداغ
الى أن تسخي الدهر بالوصل بيننا
ولاح ضياء للمسرات بـزاع
فلما انقضى التسليم ما بيننا بكت
وفاض لها دمع من العين نساغ

فقلت ألم يان السرور ولم يدر
شراب للقيان الاحبة سواغ
فقلت تذكرت الفراق غدا فذا
لقلبي عن تلك المسرات صداغ
فيالك من حزن ييارى مسرة
بسهمين كل في المفاصل بلاغ
وياك من نعمى ببؤسى مشوبة
كما شاب محضا بالدم الدر نساغ
بل الشر في الدنيا على المرء صائل
يموج عليه الدهر والخير رواغ
على أن لطف الله للعسر دامنغ
كما الحق منه للباطل دماغ

فهذه الابيات ، على لوعتها الحارة ، ولهجتها الصادقة ، قد تسلط عليها التصنع والتكلف في قافيتها الغريبة بين القسوافى الفاركة لحرف الغين وأسلوب القطعة لا بأس به عموما وان لم يخل من القلق بنحو « غدا فذا » و « الدم الدر » ، وممن الفتور في البيت الاخير ، بدامنغ مع دماغ .

بعد هذا نتوجه الى تلك العيون لنقتبس منها أوننهل منها
— ان جعلناها جارية — بعض الابيات ، فمن ذاليتها :

وطن عهدت به الشبيبة والصبا
 ورفلت في أثواب عيش باسق
 وقطفت من زهر السرور نواضرا
 أيام كنت رخی بال في ذرى
 ألهو بأحداث الزمان مرغما
 مرخی العنان بروض كل لبانة
 لا أختشى ظفرا ولا نابا ولا
 والدهر سلم والخطوب غوافل
 ما دوحة فيانة أو روضة
 سحبت عليه ذيولها مزن الحيا
 يسقى من الوسمى مترع كأسه
 من كل سابعة الذبول كأنها
 نثر الجنوب جمانها فتقلدت
 فتدفقت أنهارها وتفتقت
 وتساجلت أطيارها وتمايلت
 وجرى لطيف نسيمها برياضها
 ما شئت من ثمر يلذ ومنظر
 وحباب جريال يخلخل ساق أملاود بها فحم الذوائب مهاد
 الفين ليس أخوهما بمنكد
 عذباته أنق المحيا أرغد
 وهصرت منه بالغصون الميـد
 حذب على موسن وموسد
 لأنوفها عبث الوليد المستدى
 سرحا بها سرح الفاو المخضد
 أشجى لبين مغور أو منجد
 والعيش غض والاماني حقدى
 بخميلة أو في يفاع أنجد
 وسخت عليه بكف واكفها الندى
 ويصان من نسج الولى ببرجد
 عكر تسام على الربى بالمرعد
 لبب الرياض بحليها المتبدد
 أزهارها في روضها المستأسد
 أشجارها كالمثمل المتميد
 جرى الزلال بغصنها المتأود
 أنق وصوت في الغصون مجسد
 وحباب جريال يخلخل ساق أملاود بها فحم الذوائب مهاد

أو أمن ذي فرق خليع لبسه أو غفوة الاصبح للمتهدجـ
أو عذب شارة الفرات على ظما أو وصل حب بعد هجر مبعـ
بأذ من تلك الليالى لو محـ ما خطه الدبران سعد الاسعد

وهى أبيات كما نرى جميلة ، لا ينال من جمالها الا
كلمات نادرة غير معهودة ، مثل « موسن » من الوسن أو
غريبة اضطرت القافية الى استعمالها ، كما حصل فى الغينية
قبلها . والبيت الاخير من هذه يشير الى طبيعة نجم الدبران
فى القطيعة ، وطبيعة سعد السعود فى الوصيلة .

والقصيدة فى طولها نحو خمسين وخمس مائة بيت ، تناول
فيها جل الاغراض ، فبدأها بالنسيب ، وأطال حتى اتصل بهذه
الابيات ، وبعدها صار يذكر ما جادت به الايام عليه من
ابتسام بعد عبوس واربداد ، ثم صار يدعو لايامه الغابرة
بالسقى ولاخوانه الذين مضوا وخلفوه ، بعدما كانت تجمعهم
بهم المنازل والمحاضر ، وهم فى أهنا حال وأهدأ بال ، ويأسف لان
الزمان لن يعود بهم ، وقد طوتهم اللحاد ، عليهم شآبيب
الرحمة والرضوان . فما المنون الا سبيل يسلكه البشر
جميعا ، ثم صار يمثل للدهر وصروفه بعدة صور ، لقد أخنى
على بنى ساسان والاقتيال وبنى مروان والعباس ، واستؤصلوا
جميعهم ، فالمرء ما هو الا ابن الثرى ، فالجسم نزوع الى أصله ،
والروح نشأتها من العالم العلوي ، فهى بذلك تحن دائما الى
الملأ الأعلى . والمرء بينهما فى المقيم المقعد من الهموم

والمخاوف ، ثم صار ينعت مختلف البشر بعدد من الاخلاق
ومختلف اسوك ، ونعى على الغافلين منهم اللاهين عن دينهم ،
فكم خائفة أقيم فيها ليسير سر المستخلفين ، فكانت له
الجنود المجندة والكائنات له رعية تجبى اليه جباياتها ،
ولكن البغاة تكنفوا ملكه ، فخيضت الحروب ثم كتب التوفيق
لمن استنصر بالله فنصره ، فها هو يمرح بالمراح ثم يصير
ترايا بعد برهة وجيزة من الزمان ، فلم ينفعه الا ما قدمت
يداه من خير . وهنا يمعن اليوسى فى وحشة القبر وظلمة
الصحار ويستفزع هذا الفراق الأبدى ، فنحن ان كنا نراع
لفرقة أيام فكيف بهذه الفرقة السرمدية . ثم يأتى بحوار يجريه
بينه وبين صاحبتة « هند » وهى تراعى من الفراق وتوصى
بتجنبه ولزوم العطن ، وتبالغ فى عذله ، وتلومه على استمرار
ترحاله ، غينهرها فى رفق بعد الاصغاء اليها مليا . . . وتظاهر
بالاصرار على صنيعة المعهود منه فى ركوب الفياقى
والقفار وامتطاء المطايا ، مودعا الاصدقاء والخلان ، حتى صار
بذلك معروفا للركائب والقيعان . ومع هذا فهو لا يضيع
حق الصداقة ويحافظ على العهود والمواثيق ، شنشنة
عرفت منه ، وقد خان الصديق صديقه والخل خليه ، وقد
حلب الشاعر أشطر الزمان وعرك الايام وعركته ، فوجدته
صليبا لا ترحزحه النوائب . انه قد أدرك العز فى النقل
من مكان لكان ، والاغتراب عن الاوطان ، وضرب لذلك
أمثلة حسية ، حققت الغرض من دعواه . وبعد ذلك تعرض
للناقة التى تحملها وأتى على وصفها وشدة سيرها ،

شأن الأعراب في جاهليتهم واسلامهم ، كطرفة وذي الرمة .
ثم عاد الى ذكر فوائد السفر وضرب لها أمثلة أخرى من العيان .
ومن هنا انتقل فاتصل بالنبي عليه الصلاة والسلام ، لمناسبة
زيارة الشخص المعنى لروضته وتربته المطهرة ، ثم يحض على
حث المطى وعلى السير السريع ، في أبيات عديدة ، وبعدها
عاد الى التحدث عن نفسه ، بأنه لبس من الدهر ملاءة
قأبلاها ، وأنه قطع الفلوات يرعى النجوم والكواكب في سيره ،
ويتوسد ذراعه في الفياض والقفار مشرد النوم لا تغمض
عيناه الا في حذر ، يحسب الظلام فتخاء تهم أن تصطلمه
بمخالبها ، وقد أعوزه من يؤنسه واستأسدت عليه
الهموم . ثم توجه الى وصف النجوم التي كان يراها ، كما
فعل امرؤ القيس وبعده ابن هانى الاندلسي ، ولكنه اقتصر
على الثريا والجوزاء ، بعد ذكره لكوكب القمر . وانتهى الى
الصباح ، غشبه ثغره بوخط المشيب أو ثغر زنجى تبسم
عن أسنان ناصعة ، واستمر يصف رفاقه وركائبهم والصحاري
التي يقطعونها أو الرياح التي تهب عليهم ، ولكنها ريح
الصبابة لا الصبا . وينتقل من هذا الى ذكر الحمام الذي
يسجيه بتغريده فيبيكه بتذكيره أفراخه الصغار ، وقد علا عويلهم
عند فراقه لهم ، ويتخلص من هذا الى أبى عبد الله بالذكر
الطيب والثناء العاطر وهو محمد ابن ناصر المعنى بالقصيدة
ويفيض في أو صافه ، وأخصها العلم بالشرعية والحقيقة
وهدى الناس بهما في الاقطار ، ثم توجه بنصائحه وحكمه لمن
ينصت اليه ، واهتم في هذا أيضا بالعلم أكثر من غيره ،

وسبل تحصيله العديدة ، وعاد الى تهنئة ابن ناصر بالقدوم من
الحج ، وأطال في هذا كذلك ، اطالة انتهت بها القصيدة تخاطبه
بأن الليالى سعدت بغرته . . .

أما المراثية الرامية ، فهي في طولها أحد وستون ومائة بيت،
افتتحها بالدموع والنحيب ، والتحسر على ما مضى في ربوع
الزاوية التى تلاقى بها العلم مع زملاء كانوا له نعم
الصديق والرفيق ، يفتنّادمون على احتساء كؤس العلم :

وكانت مواتاة الوصال مدامة
على القوم صرفا لا مزيجا ولا نذرا
تجاذب اخوان الصفاء كؤوسها
فلا تختشى منها خمارا ولا سكرا
فبيننا لىالى الوصل بيض وروضه
بفيض الندى كانت مرابعه خضرا
عدت غدوة أيدي الحوادث فاختلفت
خلاها فعادت بعد نضرتها غبرا
وأبدلن مانوس الديار وأهلها
بوحش وحولن الأهيل به قفرا
وبيننا جموع الحى كالراح شبتها
بماء فما تخشى جفاء ولا نعرا

وكالفرقدين الطالعين تألفا
وصاحبى الملك الذي نادم الشعرى
أصابتهم عين الكمال فغادرت
أكفهم من كل ما جمعت صفرا

فيلاحظ على هذه الأبيات فقر بسبب التشبيه المكرر في
احتساء الخمر التى جعلها صرفا أولا ومزيجا ثانيا ، وكلتاها
لا صداع بهما ولا عريضة ، وهذا وصف قرأنى لخمور الجنة ،
والمشبه لىالى الوصل أولا ، وجموع الحى ثانيا ، والمقصود
واحد ، فهذا تكرار كذلك ، كما أن المال واحد كذلك ، فتلك
عادت بعد نضرتها غبرا ، وهذه صارت أكفهم صفرا ، وكذلك
التعبير « فما تختشى » و « فما تخشى » حكمه التكرار ،
وفى البيت قبل الاخير اشارة الى اسطورة عربية معروفة ، وهى
لصاحبى جذيمة الأبرش الذى كان ينادم الشعرى وقد افتقد
عمرا ابن أخته التى قتل زوجها وكان له منادما ، فامتنع بعد
ذلك من منادمة غيره ، الى أن أتى رجلان اليه بذلك الولد ،
فكانت المكافأة اتخاذهما نديمين له ، فلم يفترقا ، وضرب
المثل بهما فى الاجتماع الدائم .

وبعد ذلك البيت جاء آخر فيه تورية بالثريا وسهيل
فى القطيعة كما أن فيه تورية بواصل والراء . وفى الاولى قيل :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان
هى شامية اذا ما استلقت وسهيل اذا استقل يمان

وقضية لشغ « واصل » المعتزلى وعجزه عن نطق
الراء ، ثم هجره للكلمات التى تحتويها ، حتى لا يظهر عجزه
عنها ، معروفة للناس وذكرها تلميذه الجاحظ . وبعد بيت
جاء تضمين من بيت قديم معروف قائله فى الاساطير ، وأشار
اليه قبلا ، والتضمين هو « كان لم يكن بين الحجون الى
الصفاء أنيس . . . » وفى تلك الربوع التى خلت من
أهلها ، قال :

بلاد اذا ذقنا رصاب معينها
فما لرضاب العين نلتمس الثغرا
وان نحن رحنا بالشذا من رياضها
ربحنا فما نرجو على العنبر التجرا
رياض اذا أبصرتها ونشقتها
فلا تفكرن نجدا ولا تذكرن شحرا
وأزر على من كان حن صبابه
اليها قديما اذ على مثله يزرا
فمن لى بواديهها اذا فاح رنده
ومن لى بمرعاها اذا طلع المشرا
ومن لى بروضات يفوق ضياؤها
على الشمس حسنا كلما ابتهجت زهرا
وهيهات روض ينبت الرند أيكه
وهيهات روض يطلع الشمس والبدر

وهى أبيات جميلة لا تؤخذ بعيب ولو ضئيلا ، استمرت
هكذا ، وجاء بعد فى أولئك الرفاق الذين خلا منهم الحى :

فمننا اليهم صبوة ابن ملوح
ومنهم شجا الخنساء اذ فقدت صخرا

وهى تورية أخرى وإشارة ، من إشاراتة العديدة فى
القصيدة ، فابن الملوح هو قيس المجنون ، وقصته معروفة ،
وكذلك قصة الخنساء مع أخيها صخر . وبعد ذلك تعرض للخمير
الالهية فقال :

ومشمولة صهباء ما قط شابها
براووقه الحانى ولا حلت العذرا

بها هامت الارواح من قبل خلقنا
ومن بعد ما كنا واذ نبلغ الحشرا

فكم ولهت فكر ابن عيسى ومالك
وكم أطربت سهلا وكم أشغلت بشرا

إذا ما تحساها الفتى لم يخف بها
جناحا ولكن يرتجى عندها أجرا

تحمله الاوزار غير مذمم
بأعبائها العظمى ولم يكسب الوزرا

وتبرد غلات الحشى وتشبهها
أوارا وتعطى الرشد والسفه الحجرا

فلولا رجاء الفوز منها بشربة
تداوى عقابيل الهوى والجوى المضرى
لكانت أكف البين تصدع بالجوى
زجاجة أحشائي فلا أملك الجبرا

وهى أبيات مشرقة حقا ، انبثقت عن تلك الصوفية التى
كان عليها اليوسى ، وجعلته ينساب فى غمارها ويصـدح
بألحانها ، وقد أخذته نشوة الحضرة ، فغاب عن حضور الوعى
المتكلف ، والحس المتبلد ، فتبددت غياهبه بأشعة النورانية ،
وتبدت عرائس الشفوف فى جلواتها ، وهى ترفل فى حلك البهاء
والسناء ، ساحرة للالباب آسرة لنهى الاصحاب ، وقد
ولها بها وحسرت أبصارهم بجمالها فهاموا فى ذهول على
وجوههم ساهمين سامرين تعصف بهم رياح الروعة والالتياح
وتتلقفهم متاهات العجز عن الإدراك ، والعجز عن الإدراك
ادراك . . . ثم صحا الشاعر من سكرته هذه فعاد الى الدهر ،
يعدد عليه كوارثه ، ويجعله مرة سيفا فاتكا ، وريحا سموما
آونة ، وسيلا جارفا ، وليثا مفترسا ، وطاغية غشوما ، ياتى
على كل شيء فيقتله ، ويلوي بكل انسان فيصرعه ، وهنا
يتعرض لعظماء وملوك أبادهم ، كان له عليهم ترة يأخذهم
بها ، ويفرط فى التتكيل بهم ، فبنو ساسان بادوا وخربت
مدائنهم ، وأولاد جفنة من ملوك الشام كأنهم ما كانوا ، وبنو
لخم عفى على ربوعهم ، كما عفى على بنى بدر ، ثم بنو
مروان وبنو العباس ، كلهم دخل فى خبر كان ، ورام ابن عباد

بخسفه ، فصيره بأغمات أسيرا ، وهكذا لا يحزن الانسان مما
يجره الدهر ، من ابدال الوصل بالقطيعة والانس بالوحشة :

فلا تبتهل للحادثات ولا تثق
بما وهبت يوما فموهوبها معرى

مقربها مقصى ومرفوعها لقى
ومنهلها مطمى ومكسوها معرى

ولا تركنن للدهر ان نعيمه
ظلال سحب يمسح السهل والوعرا

فبينما تراه قد كستك بروده
تجافى فالبسك بأميل الحرا

ملول فما يبقى على عقد خلة
ولا مستديم فيك عسرا ولا يسرا

فان سر فلتظفر وان ساء فاصطبر
لعودته فالدهر ما يالف الصبرا

وبعد الدهر انتقل الى أبنائه فقال :

ولا تأمنن أبناءه ان تحببوا
الينك فمن يشبه آباء فقد برا

وكل بنى دهر فأشبهاه دهرهم
على ما قضى الله الحكيم وما أجرى

متى ما ارتجسوا رغباء منك تقربوا
إليك وأبدوا خالص الود والبر
وأخفوا ذمما كان منك وأظهروا
جميلا وقالوا ذو محاسن لا تمرى

وأخيرا نصح باللجوء الى الله والعياذ به ، وعدم
الاعتماد على الخلق ، مع مدارتهم فيما يخوضون ، كما
نصح بأخلاق شريفة كالكرم وغيره ، وصار يأتى بالحكم
على طريقة زهير ، ومن لم يكن كذا يكن كذا ، وذلك فى
اثنين وعشرين بيتا ، ختم بها القصيدة .

وأما الرؤية الأخرى فصح أن تعد ضمن تلك العيون
لطولها فهي تناهز المائة بيت فى إباء الضيم والتحلى بمكارم
الأخلاق ، يقول فيها :

واذا رأيت المرء محتسيا	كأس الهوان فليس بالحر
والحر ليس حياته بسوى	عز الجنب ورفعته القدر
لا بالطعام ولا الشراب ولا	سقاءه بأرائك وشر
واذا ترايلك الحياة فما	من عيشة تبقى ولا عمر
وسؤال ذي لؤم وذو بخل	ورجاؤه لنوائب تجري
أنكى لقلب أخى المرأة من	نفل الجبال ومحمل الصخر
وأضر من كل المصائب ان	عظمت عليك وكل ما شر

وتقلد للمن من يده بل وخزة في القلب ناكثة
وغناك عنه بالقناعة فلي أجدى من الملك الذى جمعت
ولباس صونك عن تملقه وصباية من ماء وجهك أن
واذا تحاول نيل مكرمه وتسمن ذرى الامور ولا
والناس كالغوغاء هائمة والمرء كل المرء بينهم
لا ينظرون الى الوفاء ولا فتوخ في الناس الوفى اذا
واسبرهم قبل الاخاء ولا كم من أخ مذق الوداد على
ان تلقه فالشهد مقوله واذا تصادق ذا الصفاء فكـن
فصداقة النبهاء معجزة وصداقة اللؤماء معقبة
غل على هاديك فى الاسر بل طعنة فى لبة النحر
حاليك فى عسر وفى يسر أبناء هرمز غابر الدهر
أبهى من الاستبراق والخضر ففس من رحيق سلسل غمر
ثانهض اليها نهضة الشمر تخلد الى سفاسفها الخضر
لو كان يبلو الناس ذو خيـر ذو اللبس الزاهى وذ الوفر
فضل الذكاء وثاقب الفكر عاشرتهم وحذار ذا الغدر
تغتر فى الاخوان بالصبر منافية من أمن ومن سبر
واذا تغيب يكون كالصبر منه ولو صافاك ذا حذر
وكذا نواؤهم من الفخر ولوما كمثل حكاك ذي العر

فأعد لليوم الذي خضعت فيه الطلا لرواجف الذعر
وتحولت فيه الذين هم قنن الذرى شمما الى الذر
وتدوسهم أقدام طائفة كانت لديهم موقع السخر

فهذه نصيحة تلتها صيحة كان مبعثها العصر الذي عاشه
أبو على ، وشد ما كان له في نفسه أعمق الاثر وأوجع
الجراح ، ينم عنها شعره أحيانا ، وقد جعلنا القصيدة ملحقة
بتلك العيون طولها ، كما قلنا ، والا فانها في مستواها الفنى لا
تصل الى تلك غالبا ، كما نجد مثلا في البيت :

وصباية من ماء وجهك أن — غس من رحيق سلسل غمر

فان هذا البيت تتبرأ كلماته بعضها من بعض ، فالرحيق
كان مناسبا له « أذ » ولكن هذا لا يناسب « صباية من ماء
الوجه » فان تركنا التعبير على حده ، فان الفتور يتسرب الى
« أنفس » من هذا الرحيق السلسل الغمر .

وهكذا دواليك بعض تعبيرات هذه القصيدة في قلقها وعدم
انسيابها في مضمونها وأجراسها وألوان بيانها خصوصا
المتكررة منها .

أما النونية النى أشرنا اليها فهي في طولها نحو خمسين
ومائة بيت ، مجييا بها أدبيا ، يدعى أحمد المباركى ، عن غيرها
فاتحه بها وصفها اليوسى فقال :

ند أتتنى أبياتك الغر تسري سريان الزلال فى القضبان
وتحاكى أزهار روض أريض جاده كل مسبل هتان
أو برودا ململمات من الخال ودرا مفصلا بالجمان
أو نسيم الاسحار أو نغمات الـ ورق فى الأيك أو هدير المثنى
أو مغيب الرقيب أو طلعة الحـ ب وروض الصبا ورجع القيان
أو منال المرغوب بعد انتظار أو زوال المرهوب بعد اکتبان
فتعاطيتها كأنى تعاطيـ ست كؤوس الصهباء عند الحان
من سلاف مشمولة تتراءى فى النواجيد كالنجيع القانى
واذا شبتها تناثر منها درر فى صحائف المرجان
ظلت من نشوتى بها وسروري مستطير الفؤاد ذا ميلان
وتصفحتها كأنى تصفحـ ست لعمرى سبيكة العقيان
ووردت منها زلالا نмира وخليجا من بحرك الطفحان
وتفهمت ما تبث من الوجـ د وتشكو من الزمان المعانى

وبهذا البيت انتقل الى موضوع الرسالة الشعرية التى
أجاب عنها ، وقد حاول الشاعر فى قصيدته النونية أن يكون
رقيق الحاشية فى أسلوبه ، فوفق فى الابيات الستة الاولى ، ولكنه
سرعان ما تهمل فيها ، فصار يرقع بنحو « عند الحان » و
« ذا ميلان » و « خليجا من بحرك الطفحان » .

أما التشبيهات بالخمور واحتسائها ، فقد أكثر منها
اليوسى فى جل قصائده ، ويبدو أن العصر كان مسامحا فى هذا
حتى رجال العلم والفقهاء من شاكلته ، ثم اختلف ذلك فيما بعد ،
فلم نعد نجد من أدبائنا مثل أبى الطيب العلمى وابن زاكور
الفاسى من معاصريه .

وفى تعرضه لما شكاه صديقه توسع فى ضرب الامثال بالأمم
الخالية والدول العاتية ، شأنه فى ذلك شأنه فى مراثيه ، وبعدها
صار ينصح بالصبر واحتمال ما يأتى من كوارث الدهر ، فقال
فى غضون ذلك :

انما الحلم والحجا أن تلاقى نوب الدهر ضاحك الاسنان
مطمئنا أذا سكون على ما فى الحشا من لواعج الاحزان
فكان الخطوب ريح جنوب صرصرت ساعة على صفوان
وكان الذي رزيت سفى فوقها أو غسالة الهطلان

وبعد نصائح عديدة ، انعطف الى نفسه فيما يواجه به
النوائب وما يقاسى بها ، أو يسهر من أجلها ، ولكن ذلك كله لا
ينال منه اذ قال :

ثم أصبحت غبها ضاحك السِّن على ما فى الصدر من نيران
وصار يعدد مواقفه الثابتة ، كأنه جعل نفسه القدوة فى
احتمال المصائب ومواجهة المصاعب ، وعاد الى النصيح وضرب
الامثال بالمرثيات ، وأفاض فى السلوك الواجب اتباعه ازاء

الاخوان ومعاملة الاصحاب ، والاغضاء عما يصدر عنهم من هفوات :

واذا تبتغى - صديقا بلا ذنب - ب فحش مفردا عن الخلان
صاحبى اخبرا الزمان فان لم تعرفا كنه أمره فسلان
ان عندي من الزمان وأهلي - لعلما ينير جو الغسان
ليس شيء من الصروف بسلم لمصاب ولا عليه بجان
لا ولا بالحجا تنال الأمانى لا ولا الجهل رائد الحرمان
كم لبیب ذی نجدة مات هزلا وغبی تحفه ألف هـان
وكريم أذیل بعد اعتزاز ووضع یسمو على كیوان

واستمر على هذا المنوال ، ثم نصح باساءة الظن بالاقارب
والاخوان ، وأنهى القصيدة بهذه الابيات :

لا ترج امراً ولا تلف يوماً حائماً حول رحله فى ایوان
وتثبت ولا یغرنك منه بارقات الاقبال والاحسان
ان ذل القنوع ليس بشافی - على الحر قبل أقصا الامان
ومن اعتر بالقناعة أمسى فى نعيم وعزة وأمان

هذه نماذج غالبية على شعره المتواضع ، وقليل ما نجده
يسمو عن هذا المستوى ، كما نجد فى قوله :

ان بين الغمام والزهر الغـ ض لرحما قديمة واخـاء
 بان الف عن الفه فتواري في الثرى ذا وذاك حل السماء
 فاذا ما الغمام زارت جنابا آذنت فيه بالحبيب اللقـاء
 ذكرت عهده القديم فحنت عنده لقياء فاستلتهت بكاء
 فتري الزهر بارزا من خبايا ه يحيى الوفود والاصقـاء
 بادي البشر والبشاشة جذلا ن لبوسا من كل لون رداء
 ثملا من شمول شمس الضحى وهـ و على بسط سندس خضراء
 راقصا والصبـا تهنيه والور ق غوانى القيان تشدو غناء

فهذه أبيات تروق بجمالها وحسن رصفها وتنسيق صورها ،
 قبل أن تسحر بفتون من زخارف البديع وحسن التصنيع
 الا ما كان من نحو التشبيه والاستعارة ، وكان ذلك كله من
 قبيل البديع فيما قبل ولكنه فيما بعد عد من فنون البيان ،
 وانفصل عن فنون البديع ، منذ قرون خلت قبل عصر اليوسى ،
 لدرجة أن أصبحت الاستعارة لوحدها فنا قائما بذاته عندنا .

ويلحق بهذا وصفه للمدن مثل قوله في مدينة شفشاون :

بلد بحسبك منظر منه ومخيره أتم
 مسرى الهموم ومسرح الـ أبصار مسلاة الغمم
 مترفلا في حلقة من حسنه جنب العلم

كالحررة الحسناء فى	كنف الهمام المحترم
وتراه من جناته	متلاثا بين الاجم
كالدري بين زمرد	فى قرط مارية انتظم
وكوجه خود حفه	شعر السوالف فى دلم
وكفرة فى أدمم	والصبح فى جنح الاحم
والشعر من زنجية	ترنو اليه وقد بسم
والبدر ما بين الدجا	والشيب فى سود اللمم
يعلو فويق جبينه	علم تدلى من أمم

الى آخر الابيات الجميلة على بساطتها وخفة وقعها ،
فكانها صدرت عنه عفو خاطر ، وهو يمدح أهلها أو يثني
بهم فيقول :

لله اخوان بها	شم المعاطس والهمم
طهر السرائر والحبـا	غر الصنائع والشيم
أبناء مجد فى الألى	كانوا يراعون الذمم

وكذا قوله فى تطوان :

تطوان شفت الفؤاد المسقما وجلت من الاحزان ليلا مظلما
وأطار منظرها المرونق بهجة عن قلبى المضنى هموما جثما

بلد تقاسمت البهاء جهاتـــــــــــــــــه فتناسقت حسنا وفاقته مبسما
مترفعا في مرقب يطري به أنسا ويطرب من رآه تبسما
فحكى عروسا جليلة اذ جليلة أعلا منصتها الرفيعة مسنما
ما شئت من عين يكسرهما الحيا بحذاء ثغر تشتفى فيه الظما
لولا الجبال الساميات بجوها لحسبت منظرها الثريا في السما
فلقد غدت عدنا ألم تر تحتها الـ أنهار تجري في بساط أدهما
وزرت على عدن ألم تر فوقها غرنا زهت حسنا على تلك الدما
لله در أحبة غادرتهم فيها يعدون الصداقة مغنما
أرزوا الى الخيرات ظمئا شرعا وراوا سبيل البر دينا قيمما
وأود لو كانت مجالس بينهم يضحون في سبل الهداية معلما

وهكذا يذكر تطوان ، ولكنه ينعى عليها ، كما ينعى على
غيرها من جل مدائن المغرب ، قلة العلوم بها ، فيقول :

وشجا الحشا ان لم أجد من عالم يهدي الوري فيها ولا متعلما
الا يسير صباية من ذي حجي لصباية بالعلم أضحي مغرما

ويبدو أن شفشاون كانت لذلك العهد أوفر حظا في الثقافة
من تطوان . ولا عجب من هذا فقد كان من رجال شفشاون
آنذاك ، بل حتى فيما قبل ذاك ، من عرفوا بأدابهم ونالوا من
الدولة حظوة بوائهم كراسى الوزارة أو أرائكها ، مثل الحراق

الذي هو من رجال الانيس ، وقبله كان ابن عسكر بالعهد
السعدي على حظوة لم ينلها الكراسى بالعهد الوطاسى قبله .

وعلى هذا فاننا لا نغفل عامل الظهور والتجلى على مسرح
السياسة والخوض في معامعها ، وما يكون لذلك كله في تخليد
أعيان الناس ونقش أسمائهم على هياكل الشهرة ونصب الازكار ،
والا فان الرافعى وبركة - رحمهما الله - لم يكونا أقل حظا
في أدبهما وعلمهما ، خصوصا الاخير ، من الحراق ، الذي كان
يحطب في جبل لم يحطب فيه بركة ، ونأى عنه بعد واقعة
النقسييس التى تورط فيها فورط غيرها بها . . . واكتفى
الرافعى بتلك القصائد الوطنية أو الجهادية ، والأمجاد
الاسماعيلية المخلصة ، التى لم يرد بها لا جزاء ولا شكورا .

وبعد تطوان نجد اليوسى يقول فى سلا :

سلا القلب فى موسى سلا وتحملت
ركائب هم كن خيمن فى الصدر
وأطلع فى النفس السرور شموسه
بييض مبانيها وأمواهها الخضـر
بلاد بكتا ضفتيها كأنها
وشاحان أو جفن على ذلك النهر
على نهر يلقاك يترق مصلتنا
وان حل ذاك الجفن أغضى على الكسر

بها أثر الحسن القديم كأنه
رقوم على سحن من الحبر الحمر
فيا لك من مرأى صحيح ومتجر
ربيع وسلوان مريح من الهجر
ولكنها شن الخراب اغارة
عليها فأقوت مذ سنين ومذ دهر
وأصبح في أربابها الجهل حاكما
مطاعا فما تلقى بها من أخى فكر
وأكثر من فيها بقايا كأنهم
نفاضة زاد حل في سفرة السفر

وما كانت سلا ، التي عرفت بعلمها وأدبها الذي كان
يتجاوب مع القيروان وصقلية والاندلس في القرن الخامس ،
بذلك الجهل المطبق الا أن تكون تعرضت لنكسة ألفاهـا
عليها اليوسى ، شأنها شأن ثغورنا في القديم والحديث مثل
طنجة وأصيلا اللتين شاهدتا فطاحل العلماء ، وفرسانا من
الخطباء ، والكتاب والشعراء . . . أما الدمار الذي تعرضت له
فلم يقتصر على الثغور بل نال غيرها من المدن من جراء الحروب
التي لم تنقطع طيلة القرن الحادي عشر . ومنها القصر الكبير
الذي قال فيه :

لما سلكت القصر في سلك الندى وحالت حول ربيعـه المستمطر
ألفيته محت الصروف محاسنا منه كخط في الزبور مسطر

وتركن قائمه الربيع مقطرا سفلأ بأيدي الدهر أي مقطر
جزرا بأنياب النوائب موشكا أن يرتقى بدم اليك مفطر
كالبيضة الحسناء أبدل وجهها جهما وأبدل رخصها بمفطر

الى آخر الابيات التي وردت في هذه المدن ، بالاضافة الى
ما ورد في مراکش ومكناسة الزيتون وفازاز وغيرها ، مما يصح
أن يعد في أدب الرحلات ، ووصف المدن والبقاع . وما كان
يضطرب بها أو تتصف به من علم وجهل وكرم وبخل وغير
ذلك . ومن الانصاف أن يذكر اليوسى بقدرته على الوصف
وبراعته في جوانب منه كما رأينا . ويكاد أن يكون هذا صفة
خاصة به لذلك العهد ، ولا يضاهيه الا ابن زاكور . وبهذا تثبت له
صفة الشاعر عن جدارة واستحقاق .

وكذلك تجلى في شعره الروح الوطنى والدعوة الى الإصلاح
والجهاد ، كما نجد نموذجا من هذا في قصيدة يخاطب بها
سكان تطوان ، الذين كان غالبهم من الأندلس آنذاك ، فيقول ،
يحرصهم على جهاد الاسبان المحتلين لسبقة والطاعنين في
تخومها :

يا أهل هذا الفحص كيف معاشكم
وحيا لكم تلك النواقيس تضرب
بل لم يزالوا يعتدون بغارة
شغبواء تقتل فيكم وتسلب

يا أهل أندلس ألم تستخرجوا
من أرضكم ودياركم وتكبروا
هلا انتصرتم مثل ما انتصر العدا
هلا تحزبتم غداة تحزبوا
هلا جعلتم في نحورهم القنا
ودعوتهم رب العباد لتغلبوا
أين الشجاعة والحفاظ وأنتم
عرب وللعرب الحفاظ تنسب

وهكذا فان اليوسى ، المعتز بعرويته ، مسلما مثقفا
بها ، والمعتز بمغربيته ، لا ينسى نفسه بربريا ، وطبيعى أن لا
ينسى ذلك ، فنراه يمتعض من هذين البيتين اللذين قالهما شاعر
لعله من فاس :

فلو كنت فى الفردوس جار البرابر
لحولت رحلى من نعيم الى سقر
يقولون للرحمن « بابا » بجهلهم
ومن قال للرحمن « بابا » فقد كفر

فيرد عليه اليوسى بقوله :

كفى بك جهلا أن تحن الى سقر
بديلا من الفردوس فى غير مستقر

وتجهلك معنى مستبيناً مجازه
لدى كل ذي فهم سليم وذي نظر
فإن أبا الإنسان يدعو أنه
كفيل وقيوم رحيم به وبر
ومن قال للرحمن « بابا » فقد عنى
به ذلك المعنى المجاز وما كفر
وقد قال عيسى اننى ذاهب الى
أبى وأبيكم جاء ذلك فى الأثر
عليه صلاة الله ثم سلامه
على المصطفى المختار من سائر البشر

فهذا رد منه يعتمد على مرمى اللغة والبلاغة ومجازها ثم
الأثر النبوي الوارد فيما قاله المسيح قبيل أن يرفعه الله
اليه . احتكم اليوسى الى ذلك وقد غضب لقومه غضبة كل منا
لحظيرته الاولى التى احتوته أو احتوت آباءه وأجداده ، فلا
يعد ذلك منه تعصبا للبربرية بل حفاظا لكرامة ضئضئه الذى
نشأ هو منه ، وليس بلازم ضرورة اذا ما أحب الانسان
أسرته الصغيرة أن يكره أسرته الكبيرة ، فاليوسى مغربى
بربرى عربى ، فى آن واحد ، ولا لوم عليه أن يرفع عقيرته
بالامتعاض لأصرته ، بل اللوم كل اللوم على من أنشد البيتين ،
ولا شك أنه عناه — شخصيا — بهما ، والغالب أنهما صادران

عن منافس من أهل فاس ، التي لم ترحب به عند قدمته عليها ،
أو نقله اليها . وشد ما جار بالشكوى من ذلك كقوله :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها علمى ولا عرفوا جلاله منصبى
لو أنصفوا لصبوا الى كما صبا راعى سنين الى الغمام الصيب

وقوله :

على رسلكم يا أهل فاس فأننى
فتى لست بالفدم الغبى ولا الغمر

أنا الصارم الماضى ويا رب نافث
يخرق فى البحث الأديم ولا يفرى

لقد عانى اليوسى - رحمه الله - عنتا عظيما من أولئك
المنافسين الذين كان بيدهم مقاليد المعرفة ، ويديرون بها
دواليب العلم ، ويقلبون بأصابعهم صولجان التفوق والتفوق ،
فعز عليهم أن يحل بين ظهرانهم هذا الذى ركن اليه المولى
الرشييد ، وأكبر فيه علمه واستتشد شعره ، فصاروا
يتربصون به الدوائر ، ويناوئون فى كل مناسبة :

سمعت من الوالد - رحمه الله - أن اليوسى لما حل
بفاس ، وتطلعت اليه الانظار ، طلب منه - على سبيل الامتحان
- أن يلقي درسا فى التفسير ، فاستجاب لذلك ، بادية ذي بدء ،
ودون أن يعرف المسألة التى سيتناولها بالدرس عند الاقتراح ،

وكان هذا معروفا في المغرب ، واستمر العمل به الى وقت قريب، فلما اقتعد اليوسى كرسية لالقاء ، قرأ السارد الآية : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » وكان القصد التعريض به . فبدأ الشيخ يفسر الآية ، ووقف وقفة طويلة عند الكلب وخصاله الحميدة ، التي استهلها بأنه يانس بالزائرين والضيوف ، كما قال الشاعر :

وكلبك آنس بالزائرين من الأم بالابنة الزائنة
وقال آخر :

يكاد اذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم

محمد ابن تاويت

تطوان

اليوسى

فكر قوي وراء شخصية قوية

د. محمد زهير

لماذا الحديث عن اليوسى ، اليوم ؟

اعتقد انه بقدر ما هو مطروح علينا الاهتمام بمشاكل الحاضر والمستقبل ، نحن مطالبون أيضا ان نهتم بتراثنا . والاهتمام بالتراث لا يعنى آهات الاعجاب والتصفيق والتتويه الجزافى والاطناب فى المدح والتغزل بآثار الاجداد . وانما يعنى ، اولاً ، صيانة ذلك الآثار من الضياع بتخصيص اعتمادات ومؤسسات واجهزة كافية لذلك . ويعنى اعادة دراسة ذلك التراث على ضوء العلم الحديث ، وتقييمه تقييماً نقدياً ، بابرار ايجابياته وسلبياته .

والاهتمام بالتراث لا يعنى ، من جهة اخرى ، اننا سنجد فيه العلاج لمشاكلنا الوقتية . فاجدادنا لم يعيشوا فى

نفس الاطار ولا في نفس العالم ، ولسم يشاهدو الخطوات الكبيرة التي سارت بها الحضارة في عصرنا ، دافعة بمجلة التطور الى الاسراع في الدوران . فمشاكلنا جديدة تحتاج الى حلول جديدة . وهذا يرجع الى مسؤولية جيلنا الذي عليه أن يتحملها كاملة فيبحث لنفسه عن الحلول الملائمة .

لكن التراث يبقى له ، مع ذلك ، دور روى ومعنوي . انه يربطنا بوطن ، ويكون أساسا من اسس شخصيتنا القومية، ومنفذا الى التيارات الحقيقية التي كانت تسري في بواطن الحياة الاجتماعية ببلادنا والتي قد نجد معها نقط التقاء . وهو بالاضافة الى ذلك ، مستودع قيم وتجارب منها ما تجاوزه الزمان ، ومنها ما زال محتفظا بجذته وحيويته ، دالا على عبقرية شعب وخصافته .

وليس كل الناس الذين عملوا في بناء هذا التراث يقعون في نفس الدرجة من الاستحقاق . فنحن لا نستطيع ، مثلا ، أن نضع مالك بن المرحل في صف ابن خلدون ، ولا ابن الونان في جنب اليوسى . فكل من شاعر سبته وشاعر الصعراء لم يبق لنا معهما الا لقاء التحية والمجاملة مع التفاتة سريعة الى آثارهما التي فتر اليوم التحمس للاقبال عليها لسبب بسيط وهو أنها ألفت لتستهلك في حينها ولم تطمح الى مجاورة الاجيال المتلاحقة . في حين أن هاته الملاحظة لا تنطبق لا على ابن

خلدون ولا على اليوسى (1) .

ولنترك ابن خلدون لنقف قليلا عند اليوسى حتى نفسير هذه الميزة بالتحليل والمثال الملموس . ليس من شك فى أن اليوسى أخذ دوره كعالم بجد . فهو لم ينظر الى العلم بقتك النظرة النفعية الانانية التى كانت تحد أفق كثير من العلماء فى البحث عن المنصب والجاه ، وتجعلهم يقلمون أظافرهم ، ويتخلون عن الصراحة فى الحق ، وينساقون فى سبيل التملق والمداراة .

وهذا يعنى ان اليوسى ادرك من اول وهلة انه اذا اراد أن يقوم بدوره على الوجه الاكمل ، كعالم بالمعنى الاسلامى الصحيح ، فعليه ان يبقى رجلا حرا حتى يستطيع أن يصدق بالحق فى كل المواقف ، فلا يدارى ولا يمارى ولا ينافق . فمهمه الاولى تفرض عليه ، قبل كل شئ ، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وهذا هو المبدأ الذى سار اليوسى على هديه فى المواقف الحاسمة التى طبعت حياته .

وهو، فى الواقع ، اختيار صعب لانه يوجه العالم فى وجهة نكران الذات والايثار ويحرمه من أطايب الحياة التى ينعم بها اصحاب المناصب والمراتب ، ويدفع به فى طريق ليس فيها الا تحمل المسؤوليات والتقييد بواجبات . ونستطيع أن نقول ان اليوسى كان رجل واجب وانه كان يتصور واجبه

1 — انظر بحثنا المنشور فى « دراسات فلسفية وأدبية » مجلة جمعية الفلسفة بالمغرب عدد 2 — 1977 بعنوان « من مظاهر أزمة المثقف فى المغرب » .

على الصورة التي حدد بها الفيلسوف « كانت » مفهوم الواجب في فلسفته الاخلاقية ، هذا مع العلم بان « كانت » جاء بعد اليوسى بقرن من الزمان (2) .

فهو يقول في احدى رسائله الى المولى اسماعيل ، متحدثا عن العلم : « ان طلب العلم والاشتغال بالتعليم نوع من الجهاد ، بل هو الجهاد الثانى ، بل هو أهم الجهادين ، وذلك ان جهاد العدو مطلوب للدفاع عن بيضة الاسلام ، والعلم المطلوب لدفع الجهل عنهم . ثم اذا نظرنا وجدنا العدو تسلط على الاموال والرقاب وهى امور دنيوية لا بد من فراقها اما بذلك او بغيره ، والموعد الآخرة . ولو تسلط الجهل ، عياذا بالله لم تبق عقيدة صحيحة ولا ايمان ، ولا عمل صالح . وهذا هو الهلاك الابدي الذي يستمر الى الآخرة » (3) .

وهذا الاستشهاد يتطلب ، فى الحقيقة شرحا طويلا ، نظرا لاهميته . ولكننا سنقتصر منه على ما تدعو اليه حاجتنا هنا .

(1) - يوضح لنا اليوسى هنا فكرته فى كون مهمة العالم تتلخص فى واجب . وهذا الواجب ليس من الواجبات العادية ، بل هو واجب يجعل العالم مجندا باستمرار ومقبلا على عمله

2 - من المعلوم ان الواجب له صبغة اولوية فى فلسفة كانت ، بحيث تتلشى امامه كل الاعتبارات الشخصية والعاطفية . فالانسان يقوم بالواجب لانه واجب يدركه عن طريق العقل العملى .

3 - رسالة الى السلطان اسماعيل مخطوطة بالخزانة العامة .

بجد ونشاط . ذلك ان العلم ليس مجرد اكتساب للمعارف او قدرة على بثها ، بل هو نوع من الجهاد . فهناك عدو خطير يترصد المؤمنين ليبعدهم عن العقيدة الصحيحة : الجهل . فالعالم ، بهذه المثابة ، خير مجاهد لانه يمس بما هو جوهري في حياة المجتمع الاسلامى ، وفي قيام الاسلام كعقيدة ودين .

2 - ادراك اليوسى في عصره للتفوق الذي بدأ يظهر للدول الاروبية على الدول الاسلامية من حيث القوة العسكرية والسياسية والتحكم في مصير العالم . ويفهم من كلامه أن الهزيمة التى كان يتخوف منها على مصير الامة ليست هى الهزيمة العسكرية فى حد ذاتها ، وانما الهزيمة التى تصيب الجماعة فى معنويتها ، فى ارادتها ، فى شخصيتها . ولذلك فهو يمنح الاولوية للقوة الروحية التى تظل قائمة فى الامة بفضل محاربة الجهل .

3 - اقتناع اليوسى بان العلم لا يخص طبقة محدودة او نخبة محظوظة داخل المجتمع . بل انه يرى ان الجهل داء يمس بالامة كلها عامتها وخاصتها . ولذلك ، فالعلم مطلب للجميع دون تمييز . وعلى العالم ان يسعى لنشر العلم بين كافة الناس حتى يتحرروا من الجهل وتتقوى عقيدتهم .

حقا ، ان الغاية التى يهدف اليها اليوسى كرجل صوفى تتعلق بالآخرة أكثر من الدنيا . ومع ذلك فهو يرى الطريق تبدأ من الدنيا . ومن ثم جاء اهتمامه بشؤون الدنيا ، وكان هذا الاهتمام اهتمام رجل يدرك الواقع فى كثافته وتعقيداته . بما

جعله يلتقى مع التفكير المعاصر ومع تجاربنا المغربية المعاصرة.

وهكذا فهو يربأ بالعالم وبالمثقف ان ينحط الى منزلة الطفيلي الذي يأكل من فئات الموائد ، ويرد له الاعتبار ويضعه في الصدارة ومن رجال المسؤولية الكبيرة . فكأننى به يشير بذلك الى الفكرة التى ظهرت فى عصرنا وكان لها شأن فى اوساط المثقفين الطلائعيين باروبا ، واعنى بها فكرة الالتزام ، التى تحول الاديب ، مثلاً ، من رجل أنس وفكاهة وتسلية ، الى رجل يسخر قلمه فى الدفاع عن قضايا يومن بعدالتها (4) .

كما أنه تنبأ بأساس القوة التى يمكن أن يعتمد عليها المغاربة يوم يحط المستعمر قدمه فى بلادهم . فأمام القوة المادية التى تسلحت بها ااروبا والتى اكتسبتها من تطور علمى وتقنى تطلب مجهودات ومراحل ، رأى اليوسى ان خير سلاح للدفاع الفوري يكمن فى تقوية العقيدة . وهذا ما حدث ، بالفعل ، فى تاريخنا القريب ، حيث ان الاستعمار ادرك ما لهاته الظاهرة من خطورة ، فاتجهت خطته لاضعاف العقيدة ، اولاً ، حتى يتسنى له ان يحل تلك الاواصر القوية والعريقة التى كانت تربط بين المغاربة . وهذا ما ادركه الوطنيون بدورهم فى حينه ،

4 - ادب الالتزام ظهرت فكرته وشاعت غداة الحرب العالمية الثانية وناذى به كتاب وفلاسفة كبار من نوع مالرو وساتر وكامو الخ ... وهو فى الواقع يجعل من المثقف رجلاً ملتزماً بالانكار التى يرددها فى اقواله وكتاباتة .

فانطلقت دعوتهم من تقوية العقيدة (5) .

وأخيرا ، نجده يلتقى معنا في فكرة تعميم التعليم .
حقا ، ان فكرته كانت متجهة للناحية الدينية ، قبل كل شيء ،
ولكن التعليم في عصره ، كما نعلم ، كان مرتبطا بالدين في
مختلف مراحلها ، بحيث ان العالم هو رجل الدين . واذا كانت
هنالك علوم دنيوية او ذات موضوع خاص كالحساب والنحو
واللغة والعروض والبلاغة وغيرها فانها تدخل في نطاق التعليم
الديني كاضافات لا بد منها لتكوين العالم والمثقف في تلك الازمنة
الغابرة . فاليوسى يرى ، على أي حال ، ان الجهل معرفة كبيرة
من واجب العالم ان يحاول محاربتها في مجتمعه (6) .

كما انه ادرك ان القيام بمثل هاته المهمة التي تعنى الامة
بكاملها لا يمكن أن يتم عن طريق التطوع المجانى ، بل لا بد
من ان تفكر فيها الدولة وتتفق عليها او تخصص لها ميزانية
كما نقول في لغة اليوم . وهذا ما يوضحه اليوسى في رسالته ،
الكبيرة الى المولى اسماعيل . فبعد أن يستعرض ما فعله
الملوك السابقون في المغرب من أجل العلم يخاطبه بقوله :
« ثم قد انتهت النبوة اليوم الى سيدنا ومصباح زماننا وشمس
غربنا ، فأى شيء يمنعنا وهمته أعلا ، وخزائنه أملا ، وقريحته

5 — كل تاريخ الحركة الوطنية دليل على هاته الفكرة ، ولكن يمكننا ان
نركز النظر ، مثلا ، في قضية الظهير البربرى ، في دور التعليم الحر
ايام الحماية ، في العمل التوجيهى الذي كانت تقوم به الحركة الوطنية .
6 — فكرة تعميم التعليم هي ، ايضا ، من مطالب الحركة الوطنية قبل
الاستقلال .

أقوى وبصيرته أضوى من أن ينتهز الى بناء هذه المكارم
وتأسيس هذه الدعائم وتجديد هذه المعالم وأحياء هذه المواسم
فيملأ مساجد فاس ومكناسة وسلا وتطوان ومراكش ودرعة
وسجلماسة بمجالس العلم ، وفرسان البحث والفهم ... ؟ فان
بيوت الاموال بالحوضر واغرة ، وأمناؤها بأبوابها حاضرة ، ولم
يبق الا الامر السلطاني بالاعطاء ، فاذا الدنيا زاهرة ، وأهل العلم
متظافرة ... » (7)

من هذه الفقرة يتبين لنا أن اليوسى كان يحمل نفس
الغيرة على التعليم التي نجدها اليوم لدى عدد من المواطنين
الواعين . ولكن اليوسى يتميز بكونه سبق الى ذلك منذ أكثر من
ثلاثة قرون وأنه اهتدى لتلك الافكار بدافع من اجتهاده الشخصي
ومن شجاعته الادبية التي جعلته يلتزم الامر بالمعروف . وما كان
ليستوحى ذلك من عصره الذي كان عصر أزمات وفتن ، ولا من
بيئته التي غلب عليها الجمود ، وخاصة في أوساط العلماء .

فهو يعتبر أن المال المودع بخزائن الدولة يجب أن
يخصص قدر منه لانعاش الحركة العلمية لا بمدينة واحدة ، ولكن
بمختلف الحواضر والبوادي ، سيما وأن هنالك أمناء محليين
يقومون بجمع الضرائب والمكوس . ومن كلامه يفهم ، أيضا ،
أن هذا الانفاق يجب ألا يقتصر على التعليم وحده ، بل ينبغي أن
يوجه الى البحث اذ له « فرسان » لابد من تشجيعهم في عملهم .

7 — رسالة الى السلطان اسماعيل مخطوطة بالخزانة العامة .

ويؤكد فكرته ويوضحها حينما يقارن العالم بالمجاهد ، كما رأينا ، فيقول ، والضمير يعود على المجاهدين : « ثم ان الله تعالى أباح لهم الغنائم ، مكانوا يتقوون بها على الجهاد كله ، وكانت تدفع لكل ممن حضر المعركة حكما شرعيا . فاذا فهم هذا في المجاهدين وما يأخذون من الغنائم ، فليفهم مثله في المجاهدين في العلم حرفا بحرف ، فالمشتغلون بالعلم ، أيضا ، تعلموا وتعلّما محتاجون الى مؤونة وكفاية يتقوون بها على ما هم بصدده » (8)

يتجلى من كل ما تقدم أن اليوسى كان يحمل أفكارا عن الإصلاح ذات صبغة ثورية بالنسبة للتفكير الذي كان سائدا في عصره ، وأنه كان ينظر بعيدا حتى اننا نشعر اليوم بأنه يرنو إلينا ويخاطبنا ويلتقى معنا في جملة من الآراء . ونحاول أن نفسر هاته الميزة التي جعلته يتفوق على كثير من معاصريه . فيميل بنا الظن ، أولا ، الى الدرجة التي أدركها من العلم . ولكن سرعان ما ندرك أن تفسيرنا من هذا النوع يتخلى عن الجوهر . فقد كان هنالك علماء آخرون متضلعون في الثقافة الاسلامية ، موصوفون بالاحاطة وكثرة التحصيل ، ومع ذلك ، فلم يفدهم علمهم في النظر الى شؤون الحاضر والمستقبل بنفس التبصر الذي أظهره اليوسى . وهذا طبيعى لان العلم كان عند الكثير هو الحفظ والاستناد الى المحفوظات لمواجهة كل الملمات ، دون الرجوع الى الواقع وتحليله وإدراك ما يتجدد فيه باستمرار وما يتطلب علاجا مبنيا على الرأي والاجتهاد . أضف الى هذا أن استعمال

الرأي في شؤون الدنيا من اصلاح سياسى واجتماعى وثقافى
يتطلب قدرا كبيرا من الجرأة والشجاعة الادبية . فاذا نظرنا الى
الوسط العلمى في ذلك العصر نجد أنه في الغالب لم يكن يدفع الى
مثل هاته الجرأة ، ولذا فان الكثير من العلماء يبقون رجال متون
وكتب يتبارون في حفظها وشرحها ولا يخرجون عن دائرتها (9).

اذن ، كان هنالك شيء آخر أضافه اليوسى الى العلم
التقليدى ليستطيع أن يكون رجلا ألعيا يقدم الآراء السديدة في
كل الميادين التى تهتم الاصلاح . وهذا الشيء نلمسه حينما نقرأ
اليوسى ونقارنه بمعاصريه ، فنذكر في الحين أنه رجل حافظ
للتفكير الشخصى على أولويته عند دراسة أي موضوع من
الموضوعات ، ولم يعتبر أن التدين الحقيقى يكمن في التخلّى عن
فطرة التفكير التى منحت للانسان ليضبط بها حياته في كل
المستويات . فهو ، أيضا ، يعرف المتون والكتب قديمها
وحديثها ، ولكنه يتناولها بمهارة المفكر الذي يعرف كيف يستفيد
وكيف يستنتج وكيف يبتكر وكيف يميز الصحيح من الزائف .
وهذا ما استطاع أن يبره به معاصريه لان الناس في كل عصر وفي
كل مكان يفضلون العالم الذي يأتي بشيء جديد من عنده على
العالم الذي يكتفى بترديد ما حصله من الكتب والمجالس العلمية .
ولذلك فان معاصريه لم يترددوا بأن ينعتوه بنعت لا يناله

9 — هاته نقطة مهمة يمكن التوسع فيها بالرجوع الى :

مجيد حجي :

م . زنيير : « من مظاهر أزمة المثقف في المغرب » .

الا القليل من العلماء حيث قالوا عنه انه « المجدد على رأس هذه
المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار امام وقته
وعابد زمانه » (10) ، وكان شاعرا بهاته الميزة التي يتميز بها اذ
نجدده يجيب أحد السائلين أثناء درس من دروسه : « اسمع ما لم
نسمعه من انسان ، ولا تجده محررا في ديوان ، ولا مسطرا
بينان ، وانما هو من مواهب الرحمن » (11) وهذا كافليين لنا
نزعته الى التجديد والاجتهاد الشخصى فى ميدان العلم والعمل
مما .

وشخصيته القوية هى التى جعلته ، من دون شك ،
شديد الوعى ، مرهف الاحساس بكل ما كان يجري حواليه ، فلم
يكن من العلماء الذين يوصدون أبوابهم لينعزلوا مع كتبهم ، غير
مبالين بمجتمعهم ، بل اننا نشعر ونحن نقرأه بأنه فى المغرب
وأن المغرب داخل فى نفسه . فهو يعيش مع معاصريه ويتحدث
عنهم كلما سنحت له الفرصة . وهنا لا ننسى الازمات الخطيرة
التى اجتاز منها المغرب طيلة القرن السابع عشر أى طيلة المدة
التى عاشها اليوسى اذ شاهد انهيار دولة متداعية وقيام دولة
جديدة مع ما رافق هاته التحولات من صراعات وحركات اقليمية
وتمزق كان يهدد كيان البلاد . نعم ، لقد استطاعت الدولة المغربية
أن تسترجع سلطتها ووحدتها فى الثلث الاخير من القرن ، ولكن

10 — العباس بن ابراهيم : الاعلام (ط ملكية) 3 / 158 وكذلك : الفاسرى :
الاستقصا 7 / 109 .
11 — نفس المصدرين السابقين .

اليوسى لم يكن مقتنعا بأن الدواء الناجع يكمن فى استعمال السلطة وحدها ، دون التفكير بجد فى القضاء على العوامل السلبية التى ظهرت وقت الازمة ، وذلك بالسير فى خطة اصلاحية . ومن ثم جاءت رسائله الى المولى اسماعيل .

والواقع أن اليوسى استفاد كثيرا من ملابسة الحياة الواقعية بمغرب القرن 17 وما جد فيه من أحداث سياسية واجتماعية . ومعرفته بالمغرب لم تكن نظرية أو نقلا عن الغير ، بل انه كون نفسه علميا وفكريا ، بجولات طويلة فى المغرب . فكان بسجل ماسة ودرعة وسوس ومراكش ودكالة والزاوية الدلائية وفاس وغيرها ، واستطاع أن يلمس عن كثب الى أي حد وصل الضرر بوطنه ، وقد شاهد الغزو الاستعماري يتحرش بالبلاد فى جهات متعددة ، والدولة السعدية القائمة مبدئيا بشؤون الوطن تنقسم على نفسها ، وتتخلى عن مهمتها ، وتستهن بسيادتها ، فى حين كان هنالك طائفة من المجاهدين والصوفية والعلماء يحاولون أن يردوا الفعل ويتداركوا الخطر . ومع ذلك فلم يزد الا تعلقا ببلادهم التى ، وان طما فوقها شر البشر ، فما زالت ينابيع الحياة العذبة الصافية تفيض بها فى كل الجهات . ولئنصت اليه يعبر عن ذلك ، وقد اهترت نفسه بالحنين وهو بمراكش سنة 1090 هـ .

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسهب الشنين أو بسهب بنى ورا

وهل تعبرن نهر العبيد ركائبى
وهل تتركن دايا وادواءها ورا

وهل أردن عسلوج يوما فأشربن
مياها به تحكى رحيقا وكوثر
وهل تمرحن خيلى بذروة امننا
وبطنانها من قبل أن يحضر الثري
وهل أكلن يوما جفونى بنظرة
الى الارزات الفارعات فتبصرا
وهل أدغمن جيش الهموم ببسطة
مع الحى فى تلك الديار فتقصرا (12)

وهذا الحنين الذي ينبع به شعر اليوسى متجه كما نرى الى الجبال والبراري ، الى مواطن القبائل . فهو ابن البادية وسيظل الى آخر حياته ابن البادية ، برغم سكناه فى الحواضر واختلاطه بأهلها . واتصاله بالبادية منشأ وشعرا جعله أكثر ادراكا لبواطن المجتمع المغربى الذي كانت تسعه أعشاره تعيش آنذاك فى البوادي .

وقد بدأنا ندرك اليوم شيئا فشيئا أن البادية ساهمت مساهمة فعالة فى الحياة الثقافية بمغرب الامس ، بعد أن ازداد اطلاعنا على تاريخ الادب المغربى من خلال المصادر والدراسات المتعددة التى نشرت فى السنوات الاخيرة . والواقع أن هاتى المساهمة عريقة يمكن ارجاعها الى عهد البداية من استقـرار

12 - اليوسى : المحاصرات (دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر)
من 142 .

الاسلام بالمغرب . ونحن ، على أي حال ، نتأكد مع ابن الزيات من وجود حياة روحية مع رجال يرعونها بالبوادي المغربية منذ القرن السادس الهجري .

لكن تلك المساهمة تزداد توسعا ولمعانا منذ القرن السادس عشر أي منذ أن تجندت البوادي تحت قيادة عدد من الزوايا للدفاع عن المغرب . ويكفي أن نحيل القارئ هنا ، دون تطويل ، على كتاب « الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين » للاستاذ محمد حجي . فقد خصص ما يقارب مائتي صفحة لدراسة ما سماه المراكز الثقافية القروية ، مقابل المراكز الحضرية . ولنذكر من جملة هؤلاء الذين نبغوا في الجبال والسهول المغربية أعلاما مثل الزياتي وابن عرضون الزجلي والهبطلي والياصلوتي وطائفة من الدلايين وأبا سالم العياشي ممن سبقوا اليوسى أو عاصروه .

وتدخل هؤلاء العلماء المتأصلين من البادية ليس مجرد اضافة كمية لهيئة العلماء بالبلاد ، بل انه اضافة نوعية وكيفية أيضا ، لانهم تناولوا العلم من وضعية خاصة بهم وحاولوا أن أن يطبقوه على بيئتهم المحلية . ثم انهم وجدوا أنفسهم في موقع منافسة مع علماء المدينة الذين كانوا يشكلون طائفة مغلقة معتدة بعراقتها في التمدن وبنفوذها في دواوين الدولة وكواليسها . الشيء الذي دفع بهم الى أن يبرهنوا عن وجودهم والاعتزاز بأصالتهم وذلك عن طريق اظهار براعتهم وتبحرهم في العلم .

وهذا ما عبر عنه اليوسى حين شعر وهو يلقي دروسه بالقرويين
أن جماعة من أعيان طلبتها يتعمدون مقاطعتها (13) :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها
علمى ولا عرفوا جلالة منصبى
لو أنصفوا لصبوا الى كما صبا
راعى السنين الى الغمام الصيب

ونشعر باليوسى يعتز بالبادية ويظهر ميله اليها فى كم
فصل من فصوله ، وهو ينطلق من مبدأ المساواة بين كل بقاع
الارض ، حاضرة كانت أم بادية ، ويستشهد باستاذة أبى بكر
التطافى الذى كان يردد :

وما عرف الأرجاء الا رجالها
والا فلا فضل لترب على ترب

ويوضح ذلك قائلا :

« واعلم أن بقاع الارض كأفراد الانسان . وهى كلها
مشتركة فى كونها أرضاً وتربة . ثم تتفاوت فى المزايا الاختصاصية
اما من ذاتها بأن يجعلها الله تعالى منبتا للعشب ، وهى أفضل من
السيخة ، أو مزرعة وهى أفضل من الكنود ، أو سهلة وهى أفضل

13 — ع. بن ابراهيم : الاعلام 3 / 157 .

من الحزن ، وقد ينعكس الامر ، أو معدنا وتتفاوت بحسب الجواهر المودعة فيها ، أو منبعها للماء ، وتتفاوت بحسب المياه ، الى غير ذلك من مختلفات الفواكه والاشجار والازهار وسائر المنافع ، أو من عارض كان يختصها الله تعالى بكونها محلا لخير » (14) .

وفي رسالته المطولة الى المولى اسماعيل يفسر أسباب مغادرته لمدينة فاس وتفضيله السكنى بالبادية فيذكر أنه . بحكم أصله ونشأته لابد وأن يكون له ميل خاص الى البادية . وهذا يتجلى حتى في عادات الحياة اليومية التي درج عليها . فالسكنى بفاس تظهر له ضيقة في البيوت ، فهو يفضل الهواء الطلق وامتداد الآفاق في أبعد مداها والفجاج الواسعة ، حسب تعبيرة . « فمن دخل دارا لم تكفه هو وعياله وأولاده ... ووجب أن يرى من لايجوز أن يراه . » ثم انه يرى نوعا من الغضاضة في الاضطراب الى شراء الماء بالمال « فما بالك بما فوق الماء من الحطب والقوت ! » (15) .

وهناك أسباب أخلاقية تؤدي برجل البادية الذي ألف أن يعيش على سجيته دون تكلف الى أن يفتن بشهوات الحاضرة ويوضح ذلك اليوسى قائلا :

« ومنها فساد طبع الاهل والأولاد والاصحاب ، ونخشى ذلك ، أيضا نحن في أنفسنا وذلك من جهات : أحدهما تطم

14 - اليوسى : المحاضرات ص 49 .

15 - اليوسى : رسالة مخطوطة .

الشهوات والانتساع فيها ، وان كنا في البادية لانعرفها . فلما دخلنا الحاضرة ، ظهرت الشهوات ونظر النساء الى النساء ، والصبيات الى الصبيات ، والرجال الى الرجال ، فطلبوا الانتساع كما اتسعوا وابتلينا كما ابتلوا . ثانيهما الوقاحة في ذلك وقلة الحياء . ثالثهما : أن يتعلم الصبيان اللؤم والبخل وقلة السماحة كما هو دأب أهل الحاضرة ، وما فسدت طبائع العرب الا في الحواضر » (16)

ولعل اليوسى يقسو في حكمه على سكان الحاضرة ، لكن الظاهر أنه يعبر عن شعور صادق ناشئ عن معاناة وتجربة . غنى أنه ، في هذا الصدد ، ربما كان يردد أصداء لابن خلدون حين يقارن بين طبائع البدو والحضر ويقول :

« وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك . حتى لقد ذهبت عنهم مزايا الحشمة في أحواءهم ، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصددهم عنه وازع الحشمة ، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً . وأهل البدو ، وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم ، إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها . فعوائدهم في

معاملاتهم على نسبتها ، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى أهل الحضر أقل بكثير . فهم أقرب الى الفطرة الاولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها ، فيسهل علاجهم عن علاج الحضر ، وهو ظاهر » (17) .

ويواصل اليوسى تطيله للأسباب التي نفرته من البقاء بالمدينة من خلال التجربة التي عاشها بفاس ، فيذكر الحسد الذي تعرض له في قصة يقدمها بكل صراحة وبساطة :

« ولقد طلبنى السلطان مولاي الرشيد بالرحيل الى فاس ، وقال تصيب الظل والماء البارد وتأكل الخالص وينتفع بك المسلمون . ولم أكن رأيت فاسا قبل ذلك ، ولا كان لى علم بحاله ولا حال أهله . فقلت : هذا والله خير . وقبلت قول السلطان ورحلت بنية صالحة فبت خارج فاس نحو ليلتين ، والطلبية يترددون الى . فلم أدخل المدينة حتى لم تبق لى تية من كثرة القيل والقال . ثم بدأنا القراءة ، فاطبقت علينا الطلبة أهل البلد والغرباء . وكان المجلس حافلا ، وذلك فى غيبة السلطان الى سوس ، فتحرك الحسد والوسواس وكثرة القيل والقال . وجعل كل من يحبنى يحذرنى من الناس ومن لكل طعامهم ، فما يمكننى أن أشرب ماء ولا أكل طعاما من يد أحد ، ولا أجلس على سليخة الكرسى حتى يقلبها أصحابى . وصرنا فى فتنة وبلاء . ثم لم ألبث قليلا حتى مرضت ، فبقيت حتى نقيت . واسترحت فذهبت للقراءة

17 — ابن خلدون : مقدمة (ط بيروت) : ص 215 .

فلم أكن الا أن طلعت على الكرسي أصابني ذلك فنزلت وجئت
الدار ، فرقدت أيضا حتى نقيت ، فرجعت فكان الامر كالاول .
فعند ذلك قام الى أصحابي ، وقالوا : هذا أمر واضح وبين . هذا
عمل عمل لك على مجلس القراءة لئلا تشتغل به . فانك ميلت
على الناس تلاميذهم ، وأخليت مجالسهم .. ثم لما رجع
السلطان من سوس ، وخرجت العطايا للفقهاء وطلبة العلم ..
فعند ذلك جعل الطلبة يتسللون من مجلسي ، ويذهبون الى حيث
كانت العطايا حتى لم يبق ، بحمد الله ، الا من همته العلم لا الدنيا
وأكثرهم من الغرباء وقليل من أهل البلد . وأكثر أهل البلد انما
همتهم في جائزة يقبضونها أو محراب أو كرسي أو شهادة
يقولونها « (18) .

لاشك أن اليوسى داخله بعض الوهم ، ولكن المهم في
القصة التي يسوق لنا هو ما تتضمنه من تصوير للمجتمع
الثقافى الذي كان بفاس في عصره ، وهو تصوير يمكننا أن نجد
في مجتمعنا الحالى ما يذكرنا به ويحاكيه . فليس كل المتعاطين
للعلم همهم العلم ، بل هناك كثير لا تحركهم الا المغريات المادية
ومظاهر التشريف والمناصب والالقاب . ومع ذلك ، فليس من
الانصاف أن نساير اليوسى في حكمه القاسى . فلا ننسى أن
العلماء ، وبخاصة في فاس ، تعرضوا لمحن كثيرة في الفترة
الاخيرة من الدولة السعدية . ويكفى أن نذكر ، على سبيل المثال
ما حدث لمحمد القصار لانه أراد أن يحسم الخلاف القائم على

ولاية العهد ويتلافى الانقسام الخطير الذي سيتعرض له المغرب بسبب النزاع بين أبناء المنصور على العرش (19) . وشاءت الاقدار أن يسير المغرب في طريق الانقسام والحرب المدنية . وأن يلجأ المأمون السعدي الى الاسبان كي يساعده في حربه مع أخيه راضيا بأن يتنازل لهم عن ميناء العرائش ، فما كان من علماء فاس الا أن استنكروا هذا الموقف الذي لا يمكن أن ينعت الا بأنه خيانة للوطن ، بل ان البعض منهم قام مناديا بالجهاد « لاغاثة المسلمين بالعرائش » (20)

ولا ننس كذلك الاتجاه الوطني الصريح الذي اتجه اليه أولئك العلماء حينما ظهرت حركة الجهاد على يد محمد العياشي لمواجهة الحملة الاسبانية الجديدة على المغرب .

واذن ، فاليوسى يغمط هؤلاء العلماء حقهم ويتجاهل تضحيتهم ومواقفهم ؟ لا يحق لنا أن نشق في محاسبة اليوسى ، وكل ما نستطيع أن نقول هو أنه كان ذا حساسية قوية ممزوجة بحدة المزاج . ولم يكن من الميسور عليه أن يساير أبناء حاضرة كفاس في تقاليدهم وعاداتهم وأذواقهم .. فكان اصطدامه معهم شيئا متوقعا ، وليس من السهل أن نقف موقف الحكم في تلك الخصومة ، لان كل فريق له حجته ووجهة نظره . والحقيقة أن السبب الرئيسي فيها لا يرجع لشخصية الافراد ومزاجهم بقدر ما يرجع للبيئة التي ينتمون اليها . فالتفاوت الكبير بين البادية

19 — الاستقصا (دار الكتاب) ج 6 ص 6 .

20 — نفس المصدر ص 21 ، 22 .

والحاضرة الذي تحول الى صراع مزمن هو الذي يمكن أن نرجع اليه لتفسير بعض المواقف التي تظهر عند الفرد ، ولكنها تتجاوزه وفضل اليوسى كسليل البادية هو أنه ، من وراء الحجج والكلام الذي يستعمل في الدفاع عن موقفه ، يجعلنا نلمس هاته المشكلة الاجتماعية كما كانت موضوعة في المغرب . فكان لابد من وجود شخصية قوية مثله لاثارة الموضوع بكامل الصراحة والوضوح (21)

ولعل هذين العنصرين اللذين لمسنا في اليوسى ، البدوية وقوة الشخصية هما اللذان قاداه الى الثورة على التقليد، فالأولى تجعله أقل تحرجا في رؤية الاشياء كما هي ، بعيدا عن الاوهام والخيالات . فينطلق من مجتمع البادية الذي يقدم المشاكل الانسانية المختلفة في أوضح صورها وأشدّها وقعا ، بما فيها من مصائب ومآس ومظاهر الخير والتفاؤل ، أيضا . والملاحظ أن الكثير من المؤلفين المغاربة يتجاهلون البادية فلا يتحدثون عنها بالمرّة . ولكنها شيء موجود بالنسبة لليوسى ، يتحدث عنها باستمرار ويلمس آثارها في نفسه وذوقه وسلوكه . ومن دون شك أنه يستمد منها ذلك الاعتزاز بالحرية الذي يشع من كلامه ، حرية ابن الطبيعة الذي يتقلب بين ربوعها دون رقيب ولا محاسب .

والثانية تجعله أكثر جرأة على ولوج ميادين الصراع والجدال والمخاطرة بنفسه في المواقف التي قد لا يخرج منها المرء سالما . ومن ثم فقد حدد لنفسه كمثقف هدفا أسمى وأعظم

من أن ينال الحظوة لدى الكبراء والشهرة في المحافل العلمية
ولدى العامة . لقد أراد ، قبل كل شيء ، أن يكون قوالا للحق ،
دوون أن يخشى في الله لومة لائم . ومن ثم فقد شنع على
المقلدين تقليدهم ، وبين أنهم لا يخدمون بموقفهم العقيمة
الصحيحة . وتفكيره في هذا الباب جدير يبحث خاص . ولكننا
نكتفى هنا باثارة ثلاثة جوانب منه :

أ و لا : انه يطالب العالم بأن يكون متفرغا لعلمه وأن
يعمل على نشره بين الناس ، وأن يتحرر من أن تأثير في مزاولة
عمله هذا فلا يكون آلة مسخرة ، ولا يخطأ رجال الدنيا وأصحاب
المناصب ، ويفسر لجوء العالم الى مثل تلك المخالطة بأنها قد
تكون « لالغاء الوقت له أو لطلب التوسع في الدنيا أو طلب الجاه
أو لمجرد التمتع في الوقت مأكلا ملبسا ومنظرا ، أو ليتمكن من
الظفر بخصمه ... وكل هذا يصرفه عن مهمته الأساسية التي
تفرض عليه باستمرار أن يكون رهن إشارة الطلبة والعامة ..
في داره أو في بيت من بيوت الله . فحيث ما جاء متعلم أو سائل
وجده . ويصل اليه المسكين والعجوز ، ويباحثه الطلبة حتى يقف
على التحقيق ولا يرهبونه ولا يستكرونها ولا يتهمونهم » .
وبالجملة ، فاليوسى يطالب العالم أن يكون مثل القاضى الذي
يزاول مهمته باستقلال تام عن كل سلطة أخرى ، وبذلك تتوفر
له حرية الضمير التى تجعل منه عالما بكل معنى الكلمة (22) .

21 — من المفيد الرجوع الى كتاب برك .

22 — رسالة اليوسى المخطوطة والمشار اليها سابقا فيها توضيح كبير لهاته
النقطة .

ثالثا : انه يرى ما في التقليد من آفات على العقيدة والدين ، سواء لدى العامة أو لدى المتعلمين . فالتقليد معناه الاستغناء عن العقل . ومن ثم ينفسح المجال لأنواع مختلفة من الانحرافات والشعوذة والتضليل واستغلال جهل العامة وغفلتها . ويتعرض للموضوع في صفحة طريفة من محاضراته مبتدئا بالحديث عن « الشجرة الخضراء في المدينة الخالية سجلماسة » التي أمر أحد العلماء بقطعها . ويفسر سبب ذلك بقوله :

« وكان أهل سجلماسة لما استغربوا أمرها يزورونها ، ولا سيما النساء ، فيكثرون عليها من تعليق الخيوط ، ويطرحون الفلوس أسفلها ، وربما تعالت النساء في تعظيمها والتنويش بشأنها حتى يسميها باسم امرأة صالحة كالسيدة فاطمة ونحو ذلك . فلهذا أمر الاستاذ المذكور بقطعها وكأنه يرى أنها صارت ذات أنواط كما قال الشيخ أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه . فذكرناها نحن للتنبيه على ذلك ، فان عوام الناس أكثروا عليها منذ عقلنا حتى كانوا ينسبون اليها من تراها تاراجيف نحو قولهم : قالت الشجرة الخضراء : هذا زمان السكوت ، من قال الحق يموت . فليعلم الناظر أنها إنما هي شجرة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع . ومثلها أحق أن يقطع » .

وويضرب أمثلة أخرى عن هذا النوع من الشعوذة الذي ينبني على فكرة التقليد والاستسلام ، دون الرجوع الى العقل . ومن هذا الباب تسرب الانحطاط الفكري والمعنوي الى العالم

الاسلامى ، واكتسى الباطل ثوب الحق ، وعاد الحق محال
الفكران والحجود (23) .

ثالثا : كان من الطبيعى أن يرد اليوسى للعقل منزلته
ودوره كأداة أساسية في ميدان المعرفة والعمل معا . فهو يحذر
القارىء لكتبه من أن يعتبره من المؤلفين الذين يتصدون « لحكاية
أقوال الناس وتلفيق كلامهم » ، بل انه يعيد النظر في كل القضايا
التي يتناولها ، ويقبل من كلام العلماء ويرد ، ويستنكف من
التقليد باللفظ القوي الذي لا يترك مجالا للتردد ، اذ يقول :

« وانما نعوذ بالله أن ننسخ وجوه القراطيس ، ونكثر هذه
الدفاتر بمجرد ما للناس لفظا ومعنى على نهج التقليد ، صنع كل
بليد . ولم يكن أحد من علماء العقلاء وعقلاء العلماء يقيم للمقلد
التابع كل ناعق أو يثبت له فضلا أو يعده عالما أو فقيها . وانما
كان يعد في نحو نواذر القصاص وأصحاب الخرافات . فانه لا
فرق بين مقلد ينقاد وبهيمة تنقاد . فليكن في علمك ، أيها الناظر ،
أننا ما أودعنا هذا أو غيره من الموضوعات الا ما اعتقدنا صحته
تصورا أو تصديقا عن ضرورة أو بينة وصحة » (24) .

لكنه ، وهو يدافع عن العقل ، ويرجع للاستدلال والبرهان
مقامه الجوهرى في ميدان العلم ، يستنكف من التعصب وضيق
الفكر ، ويطالب العالم باعتبار القوم الذين يخاطبهم ، من حيث

23 — اليوسى : المحاضرات : ص 43 .

24 — ع. بن ابراهيم الاعلام 3 / 162 .

مستواهم الثقافى والعقلى حتى لا يفرض عليهم ما هم عاجزون عن ادراكه . ومن ثم جاء انتقاده لبعض علماء تافيلالت الذين دفعهم التعصب الى اتهام العامة بالكفر لانهم لا يستطيعون أن يفهموا كلمة الاخلاص بفهم الامام السنوسى صاحب العقيدة المشهورة . فما هو يقص بنفسه ما شاهد من ذلك أثناء سفر قام الى تافيلالت :

« ثم رجعت في زورة أخرى بعد هذه ، فمررت ، أيضا ، بسجلماسة فوجدت فتنة أبشع من هذه وأشنع ، وقعت لهؤلاء مع عوام المسلمين ، ثم مع المسلمين كافة ، عامة وخاصة . وذلك أنهم نظروا في كلام من حرص من الائمة على النظر في علم التوحيد ، وحذر من الجهل فيه ومن التقليد . فجعلوا يسألون الناس كما يعتقدون ، ويكلفونهم الجواب ، والابانة عن الصواب . فربما عثروا على قاصر العبارة عما في قلبه ، أو متلجلج اللسان لدهش ناله ، أو جاهل بشيء مما يقدح في العقيدة أو يظنون أنه قاذح ، وان لم يقدح ، فيثمنعون عليه الجهل والكفر ، ثم أشاعوا أن الفساد قد ظهر في عقائد الناس ، وجعلوا يقررون العقائد للعوام . فشاع عند الناس أن من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقررون فهو كافر . وشاع عندهم أن من لم يعرف معنى لا اله الا الله ، أي النفى والاثبت على التقرير الذي يقرره العلماء فهو كافر . فدخل من ذلك على عوام المسلمين أمر عظيم وهول كبير » .

هاته مشكلة علمية كانت لها انعكاسات مجتمعية حولتها

الى فتنة والى صراع داخلى فى جماعة كانت تعيش قبل ذلك فى تفاهم ووثام . وهى مثال عما قد يؤدي اليه سوء استغلال العلم والتفكير . وانظر الى اليوسى كيف يعالجها بسعة أفقه وبعد نظره :

« فلما دخلت البلد ، جاعنى الناس أفواجا يشتكون من هذا الامر ، وأن ليس كل أحد يبلغ الى فهم تقارير العلماء ، فأقول لهم : ان الله تعالى انما تعبدكم باعتقاد الحق فى نفوسكم ، أفلا تشهدون أن الله تعالى حق موجود ؟ فيقولون : بلى . — أفلا تعلمون أنه واحد فى ملكه لا شريك له ولا اله معه ، وكل معبود سواه باطل ؟ فيقولون : بلى . هذا كله يقين عندنا لا نشك فيه ولا نرتاب . فأقول لهم : هذا هو معنى كلمة الاخلاص المطلوب منكم اعتقاده ، سواء عرفتموه من لفظها أو لا . فان الكلمة عربية ، والاعجمى لاحظ له فى دلالتها . وانما حسبه أن يترجم له مضمونها فيعتقده » (25) .

بهذه الصورة ، يستنكر اليوسى التقليد ، ويدعو الى الاجتهاد دون تزييت ولا تعصب . ولا يسعنا ، هنا ، الا أن نلاحظ أنه سبق عصره بعدة أجيال . فالموقف الذى آمن به ودافع عنه فى أواخر القرن السابع عشر لم يدرك العلماء المغاربة كل أهميته الا فى النصف الاول من القرن العشرين حينما تربعت الحركة السلفية فى المجالس والمنابر كأقوى تيار فكري يتماشى مع

25 — اليوسى : المحاضرات ص 92 .

تطلعات الشباب الوطنى الذى بدأ يتأهب لخوض معركة التحرير الوطنى .

من خلال هاته الامثلة والاقتباسات المحدودة استطعنا أن نأخذ صورة ولو مصغرة وناقصة عن اليوسى كمفكر . وحسبها أن تكون حافزا للباحثين فى تاريخ الفكر المغربى لبذل جهود كبيرة فى سبيل التعرف على هاته الشخصية التى ما زلنا نجهل عنها الكثير .

د. محمد زنيير

سلا .

بطاقتي منتهى الطائفة

يرفعها أبو الحسن اليومي إلى السلطان مولاي إسماعيل
دواعها - تاريخها - أصدالها - دلائلها الاجتماعية وأبعادها السياسية

د. عبد الحادي التازي .

... وهل حفظ تاريخ فرنسا مثلاً وجود شخصية
كالْيُوسى تستطيع أن تصدع بآرائها وأفكارها في وجه
لويس الرابع عشر دون ما أن تتعرض لشتى أنواع
المتابعات والمطاردات المعروفة على ذلك العهد .

عبد الهادي التازي

إذا كان على الجيش أن يقوم بحماية الشخصية المادية
للدولة ، فإن الذين وكل اليهم حماية الشخصية المعنوية للدولة
هم العلماء ، ومن هنا كان مركز هؤلاء مرموقاً لدى الشعب وقادة
البلاد على السواء ، فهم في الأمة عيونها وشهودها يحضرون
محافلها ومآتمها أفراحها وأتراحها ، ومن حق أبسط رجل في

الناس أن يستوقفهم في الشارع ويطلب فتواهم . ومن واجبهم أن يفتحوا بيوتهم وقلوبهم لكل راغب وهم لا جل هذا ينعمون لدى الملوك والامراء بمرتبة سامية لا يصل اليها أحد بالرغم من أنهم أحيانا لا يفهمون أولئك الملوك أو بالحرى لا يريدون ان « يفهموا » المقاصد البعيدة لقادة البلاد

وكما كان الأطباء بالامس واليوم يتخذون من الوخز بالابر وسيلة للعلاج وطريقة لحياء الانسجة المهددة بالتموت في الجسم ، فان الملوك كانوا يرون في الكلمة العادلة من العالم العامل وخزا محببا ينعش شعورهم ويغذى ارواحهم ، ويشدهم دائما الى جانب الحق والانصاف وكانوا يجدون في تلك الأصوات المرتفعة هنا وهناك جرسا محببا اليهم يذكر بمواقيت العظة ويفرض عليهم فترات للتأمل والتذكر

ومن ثمة تحدثت كتب الأخلاق عن الاجر والثواب الذي يناله الكبار وهم يتحملون النقد الاذع فليس لأحد أن يكبر عن التدليل على طريق الله ولا أن يصغر دون ذلك على ما قاله زيد بن علي زين العابدين لهشام بن عبد الملك ومن ثمت ايضا استمعنا الى القادة وهم يشجعون مرشد يهم بهذه الكلمة الرائدة : لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نسمعها

لقد كتب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الى القاضي أبي عبد الله محمد بن يحيى ابن عبد الله المعروف بابن الفراء يأمره بفرض معونة استثنائية على أهل ألمرية ليتقوى

على الجهاد فاجلبه القاضي بأن ذلك لا يجوز ، ولما عقب أمير المسلمين بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان فرضها في زمانه راجعه القاضي بخطاب يظل شاهدا تاريخيا للحوار الشريف المتبادل بين الملوك المغاربة وبين علماء الأمة .

وقد ظل هذا شعار الدولة سواء في العهد الموحدى أو العهد المرينى أو العهد الوطاسى أو السعدى . . . نجد لذلك أمثلة متعددة في التاريخ تصل أحيانا الى حد الاطراف وأحيانا أخرى الى حد الاسفاف (1) .

وقد كان مما يزيد في ثقة العلماء بانفسهم أنهم — الى جانب تقديرهم من لدن رئيس الدولة — فقد عرفوا احتراما سابقا من السلف الصالح الذى جعل لهم فى بيت المال وريع الأوقاف نصيبا حتى لا يضطروا الى طرق أبواب قد توصلت في وجوههم غدا متى أصبح لهم موقف مغاير للذين يتولون أمر البلاد ...

ذكرت كل هذا وأنا أعيش حياة الشيخ أبى على الحسن اليوسى واستعرض رسائله وحواره مع ملك يعتبر من أعظم الملوك شأننا واقواهم مركزا سواء على الصعيد الداخلى أو الصعيد الخارجى ... ونعنى به السلطان مولائى اسماعيل الذى دوخت مراسلاته ملوك أوروبا وأصبح الوزراء لدى تلك الدول يخشون تبليغ محتواها لا ولئلك الملوك حتى لا يغضبوهم ويزعجوهم ...

(1) الصلة طبعة 11/1955 رقم 1261 — الاستقصا 2 ، 53 — 54 —
جامع القرويين : النسخة الجامعية 1 ، 131 — 148 .

ومن الطريف أن نجد السلطان مولاي اسماعيل وهو يضيق صدرا في بعض الأحيان بمحاجة لويس الرابع عشر ملك فرنسا ومراجعة كارلوص الثانى ملك اسبانيا ... ينشر صدره لمراجعة علماء من أمثال الشيخ عبد القادر الفاسى والشيخ الحسن اليوسى بل نرى العاهل المغربى يعتمد استمزاغ رأى هؤلاء الشيوخ لسمع منهم المزيد ويكتشف عن طريقهم المفيد ... وقد كان هذا فى نظرنا مؤشرا أول على أن ما أثار فى بعض المصادر الأجنبية من أن العهد الاسماعيلى كان معروفا بالزجر والقمع ... كان كلاما ملقى على عواهنه ولا يستهدف الحقيقة بقدر مايرمى الى المس بشخصية كانت - كما يعرف الجميع - شجى فى خلق المحتلين والطامعين والمتربصين والا فبماذا نفسرا استطاعة فقيه كالشيخ اليوسى أن يتناول بالنقد واقعا كان يرى - لسبب أواخر - أن فى الامكان التخلص منه الى وضع اخر احسن ، دون ما أن يتعرض الشيخ لمتابعة ولا مطاردة ولا جزر ولا قمع ... الواقع أن حالة كحالة الشيخ اليوسى تعطينا فكرة صادقة دالة على أن حرية التعبير التى كان ينعم بها رجال الفكر كانت مثلا وحيدا فى بابه اذا ما قارناه بالحالة فى الجهات الاخرى بما فيها الديار الاجنبية وهل حفظ تاريخ فرنسا مثلا وجود شخصية كاليوسى تستطيع ان تصدع بأرائها وافكارها فى وجه لويس الرابع عشر دون ما أن تتعرض لشتى انواع المتابعات والمطاردات المعروفة على ذلك العهد ... وهل ننسى «منطق

الشاقور « الذي استعمل مع رجال المعارضة في مطلع الدولة
السعدية ؟ (1)



لقد وجدت الدولة العلوية نفسها وهي تتسلم الحكم في
المغرب — وجدت نفسها أمام مغارب وليس مغربا واحدا ! أي
انها كانت امام خريطة سياسية تحمل عشرة ألوان وليس لونا
واحدا :

(1) بقايا السعديين

(2) امارة الدلائيين

(3) امارة مراکش

(4) امارة ايلينغ

(5) امارة الهبط

(6) امارة الريف

(7) منطقة النفوذ التركي شرق المغرب ، هذا علاوة على

(1) يذكر التاريخ انه لما استولى السلطان ابو عبد الله (الشيخ) على فاس
شوال 961 — 20 شتنبر 1554 امر بقتل شيخ الجماعة ابي محمد
عبد الوهاب بن محمد الزقاق لاتهامه بالميل الى ابي حسون الوطاسي ،
ويحكى انه لما مثل بين يديه قال له : اختر باي طريقة تموت ، فاجابه
الفقيه : اختر انت لنفسك ، فان المرء مقتول بما قتل به ، فقال لهم
السلطان : اقطعوا راسه بشاقور ... وكانت نهايته كذلك ...
الاستقصا 5 ، 29 .

الوجود الاسباني والبرتغالي والانجليزى فى عدد من الثغور
المغربية ...!

وقد كان فى صدر مهام الدولة العلوية توحيد تلك المغارب
من جهة ، وتحرير سواحلها من جهة أخرى ...

ومن هذا المنطلق رأينا السلطان مولاي رشيد يدشن نضاله
بتعطيل مرسى جرنكور (الحسيمة) منذ الايام الاولى
لمملكته 1076 - 1666 عند ما شعر بأن المطامع الأوروبية
وفرنسا على الخصوص اتجهت نحو المرسى المذكور اتحصل
من العاهل المغربى على اذن باستغلاله ...

وقد كانت تلك المبادرة من السلطان مولاي رشيد مشجعا
قويا لتحريك المواطنين المغاربة على أبواب سبتة فى محاولة
لتحرير المدينة الأسيرة وهكذا سجلنا أول انتفاضة على عهد
العلويين ضد الوجود الاسباني فى سبتة ...

ومن ذلك المنطق ايضا رأينا السلطان مولاي رشيد يتوجه
الى زاوية لاهل الدلاء فى قلب الاطلس المتوسط 8 محرم 1079
18 يونيه 1668) ليستنزل « رئيسها ابا عبد الله محمد الحاج
الذى ملك الغرب سنين عديدة واتسع هو وأولاده واخوته
وبنوعه فى الدنيا » على حد تعبير الشيخ اليوسى فى
المحاضرات ...

ومعلوم أن الشيخ كان ضمن رجال الزاوية المذكورة ...
ومعلوم كذلك أن السلطان مولاي رشيد طلب الى اليوسى أن

يرحل الى فاس حيث عهد اليه بالتدريس في معاهدها وخاصة جامعة (القرويين) . وكان ذلك في مقابلة هبات ملكية كان يتوصل بها الشيخ بصفة منتظمة ...

وقد تحدث التاريخ عن الصلات الطيبة التي ظلت تربط الشيخ اليوسى بالسلطان المولى الرشيد ... ولا بد أن كل واحد يقدر ما يمكن أن تتركه تلك الصلات من أثر على أصدقائه في المهنة من الذين كانوا ينافسونه من مشايخ فاس ، وهو الأثر الذى ظهر بصفة واضحة اثناء تغيب السلطان في حملته المعروفة نحو ايليغ في السوس في الشهور الاولى من سنة 1081 - ماية - يليه 1670 ...

لقد أمسى الشيخ اليوسى غير متحمل اطلاقا للمقام بالعاصمة العلمية بل انه بات يشكو من المرض الذى كان «يلم» به كلما صعد على كرسى العلم حتى لاعتقد ان هناك «طلاسم سحرية» ركبت ضده الامر الذى جعله يقررا ستتخذ ان السلطان في مغادرة المدينة عودته من حركته بالسوس ... غير أن العاهل تعرض المدينة بمجرد عودته من حركته بالسوس ... غير أن العاهل تعرض سنة 1082 - 1671 لبلدة اصطدام في روض المسرة بقصر البديع من مراكنش الحمراء اثناء ركضه على فرسه ...



وقد كان الشيخ اليوسى في صدر الذين وقعوا على عقد البيعة الذى حرره العلماء بفاس لصالح السلطان مولاى اسماعيل وكان بالامس خليفة اخيه بمكناسة الزيتون ...

وقد كان مخطط العاهل الجديد هو نفسه المخطط الذى دشنه الرشيد بالأمس : توحيد البلاد من جهة وتحرير الثغور من ناحية أخرى .

ولشد ما كان ألمه وهو يواجه حدثين اثنين معا فى سنة واحدة 1083 - 1673 ، وكأنهما وقتا توقيتا ، اغتتمت اسبانيا فرصة ظروف وفاة الرشيد واعتلاء اسماعيل لتداهم مرسى جزر.نكور (1) واحتلالها بواسطة قطع عسكرية بقيادة مونط صاكرو .

ومن ناحية ثانية فقد شبت بفاس ثورة مناوئة لمولاي اسماعيل جعلته يتجه نحو العاصمة العلمية لفرض الحصار المحكم عليها الى ان اذعنت يوم 1084 - 28 اكتوبر 1673 وفى هذه الأثناء ... استأذن الشيخ اليوسى السلطان المولى اسماعيل فى مغادرة فاس وهو الامر الذى كان يعترم عليه - كما أسلفنا - منذ أيام الرشيد .

وقد وجدنا العاهل يرضى طلب الشيخ الذى اخذ فى تجواله بكل حرية دون ما أن يلقى - فى بادىء الأمر - معارضة ما حول الجهة التى اليها يقصد ، ولاكذلك حول الافكار التى اليها يدعو ... والتى كان من أبرزها الحنين المستمر الى زاوية الدلائل التى قضى فيها زهرة شبابه والحمائل المتوالية ضد بعض بطانة السلطان مولاي اسماعيل ...

(1) البحث العلمى : عدد 25 يناير - يونيه 1976 .

ومن غير أن نتتبع خطوات الشيخ اليوسى سواء منها خطوات الاختيارية أو الاضطرارية ... فان الذى يهمنى فى هذا العرض أن نتعرف أولا الى الأسباب التى كانت وراء تحرير هذه البطاقة الى السلطان مولاي اسماعيل ...

لقد شاهدنا من خلال السطور الماضية كيف أن الشيخ اصطدم فى مدينة فاس بما لم يكن ينتظره من رجالها ، الأمر الذى دعاه - كما اسلفنا - لترك العاصمة العلمية ...

ولابد أن نتصور منذ الآن كيف بدأت المناورات تحاك من حوالى الشيخ ... تلك المناورات التى كان يعمل على تنشيطها بعض المواقف التى يتخذها الشيخ ازاء بعض الاختيارات الحكومية ... ويعمل على تغذيتها واذ كائنها والهابها تذر الشيخ من الظروف القاسية التى أمسى يعيشها بعد مغادرته فاس ... لقد تأخرت عنه الصلات الملكية وحجبت عنه الوظائف السامية وظهر من خلال مراسلاته وحواره مع السلطان مولاي اسماعيل ان هناك أيادى خفية تعمل باتقان لاقصائه عن الحواضر المغربية والمجالس الملكية بل لجعله هو يتحمل مسؤولية تهريبه من تلك الحواضر ...! « متى أعطانا السلطان ورددناه ؟ » « ومتى اقترح علينا القضاء وعرضت علينا الفتوى ... » لقد تبين فعلا أن قوما يتقولون على الشيخ مالم يقله ، فالقضاء حسب قولهم أمر لا يرضاه الشيخ والفتوى بدورها لا تليق ... والمال مادة يستغنى عنها ... لنرجع الى سائر مكاتباته وخطاباته فسنجدها

وَلِيَعْلَمَ حَسْبُكَ فَانْصَحْهُمُ اللَّهُ إِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَصِيَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَمَّا أُولُو الْأَلْبَانِ أَحَدُ الْعَصِيرِ وَمِنْ مَسْلُوكِ
 اللَّهُ عَصِيرُهُ أَيْ تَلَاءٌ وَإِنْ أَفْلَحَ فَمِنْهُمْ بِالْعَزْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِصْلَاحِ وَمِنْهُمْ خَلِيقَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ
 وَكَذَلِكَ اللَّهُ عَلَى عَصِيرِهِ وَلَهُ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ أَفْلَحَ فَلَهُ الْجُودُ وَالْعَفْوُ وَالْكَفْوَانُ وَالْعِتَادُ
 بِمَنْ تَوَجَّهَتْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَلَائِكَةٍ وَمُتَصَلِّينَ وَمُكَيِّمِينَ الْأَرْوَاحَ فِي الْحَيَاةِ وَمُنْجِيَةً لِعَفْوَةِ اللَّهِ تَعَالَى
 الشَّرِيعَةِ وَفَحْجِهِ وَالْخَبْرَ عَلَى مَنْ كَانَ حَالٌ مَيَّ قَسْلَهُ عَلَى عَيْشِهِ يَوْمَ تَعْلِيكُمْ بِغَيْرِ أَمْرٍ كَيْفَ
 يَفْعَلُ بِدِينِهِ يَسْتَمْلِكُ مِنْهُ ثُمَّ يَقُولُ إِنَّ عَلَى الْعَالَمِينَ حُفُوفًا كَأَنَّهُ يَمْدُدُ إِلَيْكَ الْبِكْرَةَ وَلَنْفَتَمِ
 مِنْهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أُمُورٍ الْأَوَّلُ جَمْعُ الْمَالِ بِحَيٍّ وَتَقْرِيفُ الْحَيِّ الثَّانِي إِفْلَاقَةُ الْجَمَادِ كَالْعَمَاءِ
 كَلِمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْهَا مَعْنَاهُ مِنْ تَقْرِيفِ الشَّعْرِ مِمَّا لِيَحْتَلِجَ إِلَيْهِ عَمَلُهُ وَغَرَّةُ الثَّلَاثِ أَنْصَادُ الْمَطْلَمِ
 مِنَ الْطَّالِمِ أَوَّلُهُ مَعْنَاهُ وَمِنْهُ الثَّلَاثَةُ تَزْوِجُهُ كَلِمَةً بِذَلِكَ مَعْنَاهُ الْخَصْرُ بِأَنَّهُ مُوجِبٌ عَلَيْنَا
 تَسْبِيحَهُ لَيْلًا يَغْتَذِرُ بِعَمَلِ الْكَمَالِ بِأَنَّهُ تَسْبِيحٌ وَيَعْلَمُ بِغَيْرِ زَوْدٍ إِلَيْهِ هَلَالُ الْوَقْتِ وَهَلَالُ
 الْأَمَلِ وَصُبُوحُ النِّعْمَةِ وَشُكْرُ الرَّحْمَةِ وَالْأَمَلُ بِغَيْرِ دَيْنٍ أَمَّا الْكَلِمَةُ الْأَوَّلُ فَلْيَعْلَمَ حَسْبُكَ
 أَنَّ الْمَالِ الَّذِي يُجْبَى مِنَ الرِّجِيَّةِ نَدَا عَنْهُ اللَّهُ لِلْمَصْلَحِ الَّتِي يَسْتَكْفِي بِهَا الدُّنْيَى وَتَصْلَحُ بِهَا
 الدُّنْيَا كَالْعَمَاءِ وَالْأَفْضَالِ وَالْمُؤَدِّيِّ وَالْأَخْبَادِ وَالْحَامِدِينَ وَالْمُجَادِرِينَ وَالْفَنَاءَ

جانب. من بطاقة اليوسي الى السلطان مولاي اسماعيل ... وهي تحمل
 في المكتبة العامة رقم 1611 / د ...

جميعا تلوح للدائرين بمجلس الملك من طلاب الدنيا الذين لا يتقون الله ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب ...

ولنراجع بصفة خاصة الرسالة التي رفعها الى السلطان المولى اسماعيل جوابا على استفسارات هذا الاخير حول بعض مواقف الشيخ وكانت بتاريخ 1 دى الحجة 1096 - 29 اكتوبر 1685 (مخطوطة بالخرانة العامة رقم / 849 ورقم د / 1348).

وهكذا فهناك حالة نفسية مزعجة نشأت عن تشبته وتمزقه ، فقد كانت بعض دفاتره في جهة وبعضها الآخر في جهة ثانية بينما وجدت طائفة من اغراضه في جهة ثالثة .

تشنت قلبى في البلاد فقسمة بمراكش منه على رجل طائر
واخرى بخلفون واخرى مقيمة بمكناسة الزيتون حول الدفاتر
واخرى بفازاز واخرى تجزأت بملوية الأنهار بين العشائر ...

كما نشأت عن احكام الحصار على الشيخ بالرغم مما يبدو من خلال بعض المراسلات من لقاءات معدودة بل وقصيرة الابد مع مولاي اسماعيل بحيث انها اى اللقاءات لم تمكن من معرفة احدهما لقصد الآخر على ما يفهم من الحوار الشفوى الذي تم في لقاء (تكموست) والذي يتعلق بمقام الشيخ في زاوية الدلا ... فقد ظن القصد من ذلك العرض ، وظل موقف الشيخ فيه سرا غير معروف المعنى بالنسبة الى ، بحيث لا يعرف هل كان السلطان مولاي اسماعيل يريد أن يعيد الحياة الى زاوية الدلا بتتصيب

الشيخ واليا عليها ولا يعرف ايضا ماذا يقصد من جواب اليوسى
على عرض مولاي اسماعيل ؟..

تضاف الى تلك الحالة النفسية كما قلنا ، بعض المبادئ
التي كانت في صدر اختيارات السلطان مولاي اسماعيل .

لقد عرفنا أن الدولة العلوية صرفت اهتمامها الى هدفين
اثنين توحيد البلاد وتحرير الثغور ... وهكذا كانت الخطوات
نحو تحقيق هذا الهدف تسير في طريق متوازية ...

فمن جهة وجدنا العاهل يتصدى لاجلاء الاسبان عن المهدية
في ربيع الثاني 1092 - ماية 1681 ويجهز على الوجود
الانجليزى بطنجة في ربيع الأول 1095 - مارس 1684 في
حديث طويل ، كان مما رفع اسم السلطان مولاي اسماعيل عاليا
في الساحة الاروبية ... فان التغلب على جيوش الاسبان وجيوش
الانجليز لم يمدون أن يترك له صدى عميقا في شتى جهات
المعمور ...

وسنرى ان هذا الملك العظيم هو الذى قدم لشعبه هدية
ثمينة رفيعة بمناسبة مطلع القرن الثانى عشر الهجرى ... تلك
تخليصه لثغر العرائش الذى وقع في قبضة الاسبان في اسطورة
كثيية جعلت المغاربة يعلنون عن بكرة أبيهم الحداد يلبس الأحذية
السود ... الى أن تخلصت المدينة في محرم 1101 - 1689 ،
واستعاد الشعب بهجته وسروره بالعودة الى الاحذية الصفراء
الزاهية .

لقد هذا سترجاع العرائش ارجاء العالم الاسلامى عندما طير السلطان مولاي اسماعيل اخبار الفتح الى ركب الحاج المغربي وهو مقيم بالحرمين الشريفين .

وفي ثغر العرائش قد تبدى * لقد ركم على الشعري الظهور

والى جانب هذه الحركات ظل السلطان مولاي اسماعيل يقظا اتم اليقظة لكل حركات التطلع والتسلق التي يمكن أن تضرب من خلف أهدافه على السواحل المغربية .

ومن هنا كانت حملته سنة 1088 - 1677 على شيعة الدلائيين الملتفين على أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحاج (1) عند ما كان الشيخ اليوسى مقيما بمدينة مراکش يعطى دروسه بجامع الشرفاء ...

ولاشك أن السلطان مولاي اسماعيل اتخذ قراره الحاسم منذ هذه الحملة 1088 - 1677 ، بأن يشترط لاستسلام القبائل دفعها للخيول والسلاح ... فان طرد الأجنبي عن البلاد لا يتم اطلاقا بوجود مخزنين للسلاح ورباطين اثنين للخيول ... ولكن بمخزن واحد ورباط واحد يخضع لقيادة واحدة ...

وقد تبعت هذه الحملة 1088 - 1677 حملات أخرى على جهات مماثلة حيث شيد المولى اسماعيل فيها عددا من القلاع

(1) الاستقصا 7 ، 53

على نفس المواقع التي كان المرابطون اتخذوا لهم فيها الحصون والبروج على نحو ما نرى بالنسبة لقلعة عين أصر و القرية من ايفران (2) حيث تم الاستسلام على شرط دفع الخيل والسلاح .. بل وجمع المال كذلك على نحو ما تصرف به القائد بايشى القبلى مع بنى حكم .

وهكذا رأينا السياسة الداخلية للسلطان مولاي اسماعيل تقوم على تركيز القوة بيد السلطة وعلى تجريد القبائل من السلاح « فقام بكل واجب وكفاهم كل مؤنة وراحهم من كلف القيام بالخيـل والسلاح » على حد قول أكنسوس ...

وقد ورد في ارجوزة ابنى القاسم الزياني متحدثا عن مولاي اسماعيل .

وقال للسلاح والخيـل : اغربى من كل حى عجمى أو عربى
وطهر الثغور من أهل الصليب وعمر الحصون وفق ما يجب

لكن هل ان تجريد المواطنين من الخيل والسلاح الذى مارسه السلطان استعماله منذ 1088 – 1677 عند ما هاجم شيعة الدلائيين كان مما يرضى الشيخ اليوسى ؟

سنرى أن الشيخ ينتقد في بطاقته :

اولا : طريقة جمع الأموال وتوزيعها «فان جباة المملكة قد
جروا ذبول الظلم على الرعية فاكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا

(2) الاستقصا 7 ، 66 – 67 – 68 – 70 .

العظم وامتصوا المخ ... » وقد دأب اليوسى على الاهتمام بالسياسة الاقتصادية للدولة على نحو ما نرى في الدعوة التي صدع بها في الرسالة المخطوطة التي تحمل في الخزانة العامة رقم (6477) عندما يقول : « واعلم ان الاموال اذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو واذا كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الازية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة وترتبت بها الولاية وطاب بها الزمان واعتقد فيها العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال في عمارة الاسلام واهله ... »

ثانيا : قلة تعمير الثغور وحمائيتها ... وفي هذا الصدد نرى الشيخ ينتقد تجريد العامة من الخيل والسلاح مذكرا بأنه عند ما كان في تطوان ايام السلطان مولاي رشيد صادف أن حضر استصراخا ضد العدو فاهتزت الارض خيلا ورماة ... لكن الناس اليوم — وقد تجدد الاستصراخ — خرجوا جميعا راجلين وبايديهم فقط العصي والمقاليع ... ويغتتمها الشيخ اليوسى فرصة ليدعو الى تفقد الثغور ابتداء من شبه جزيرة قلعية (1) الى ثغر ماسة

(1) قلعية تحرفت عند بعض الكتاب الى قلعية بتقديم الباء على العين لكنها كما هو معلوم قلعية ، تطلق بالكاف المعقودة ... وهي شبه جزيرة تقع على مقربة من مليلية ، تمتد زهاء اربعين كيلو مترا غربي المدينة المحتلة ، ونعتقد انها مرسى غساسة الشهيرة في التاريخ القديم — البحث العلمي : عدد 24 — سنة 1975 .

الذى يقع جنوبا على المحيط الاطلسى (2) ... وليدعو الى ترك الخيل والسلاح للمرابطين على تلك المواقع .

ثالثا : نرى الشيخ يدعو الى الانتصاف للمظلومين مؤكدا أن المنتصبين للانصاف بين الناس — وهم العمال وخدامهم — هم أنفسهم الذين يمارسون الظلم ضد العباد ...

وقد حرص الشيخ اليوسى على التصريح بأن الثلاثة كلها اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه ... « ولم يكتف الشيخ بالاستدال على وصيته الخاصة بظلم العمال بما نقله من آيات كريمة ولكنه اردف ذلك بما قالته الفلاسفة اليونان وبخاصة بما وعظ به ارسطوطا ليس الملك الاسكندر ... ثم بما ورد في الاثر الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته حول الحيف والظلم » مستدلا بما ورد عن الخليفة ابن الخطاب في شأن مانسميه اليوم (تعويضات التقاعد) فلقد مر الخليفة بشيخ يهودى يشال الناس على الأبواب أن يطعموه فقال : ما أنصفناك ، أخذنا منك الجزية وأنت شاب ثم ضيعناك لما أمسيت شيخا ، وأمر أن يجرى عليه قوته من بيت المال ... وتختتم هذه البطاقة بالاشارة الى شخصيتين بارزتين تستحقان في نظر الشيخ اليوسى أن تؤدى الاستشارة للسلطان نظرا لما تتميزان به من كفاءة وجراءة وصراحة ... هما الشيخ ابو عبد الله محمد بن

(2) تقع ماسة جنوب تكادير ... ومعلوم انها لم تكن نهاية المملكة .

الحسن المجاصى (1) والشيخ ابو العباس أحمد بن سعيد
المجيلدى (2) ...

لقد قصدت بايراد مضمون هذه «البطاقة» التى تجاوزت
حقا ... حجم البطاقات وتعدته الى حجم الخطابات المطولة ،
قصدت بذلك أن أعطى فكرة عن محتواها الذى كان فى منتهى
الطاقة حتى نتخلص الى معرفة نقاط الخلاف — ان كانت هناك
نقاط خلاف — بين نظرية اليوسى ومنهاج السلطان ...

1، ترجم غير ما مصدر للشيخ المجاصى الفياشى الاصل ، المكناسى
الوفاء ، وقد وصفه مؤرخ مكناس ابن زيدان بالفقيه الناقد المشارك
ولاه السلطان مولاي الرشيد قضاء فاس ذلك آخر جمادى الاولى
عام 1079 وخطبة جامع القرويين بها فى 22 رجب عام 1084 فى عهد
السلطان مولاي اسماعيل ، فجمع بين قضاء فاس وخطبته مسجدها
الاعظم ... ولكنه لم يلبث أن صرف عن القضاء بفاس والخطبة بجامعة
فى رابع ذى القعدة عام 1088 اى فى نفس السنة التى نصح فيها
اليوسى باستشارة المجاصى ، حيث عوضه السلطان مولاي اسماعيل
بالتقاضى بردلة ... وحينئذ انصرف المجاصى الى التدريس ، قبل أن
يلتحق بمكناس قاضيا بها . من مؤلفاته تقيد حول الاشراف الجوطيين
... وقد توفى بمكناس يوم السبت 4 ربيع الاول عام 1103 ودفن بروضة
الشيخ الكامل ... الاتحاف 4 ، 47 .

(2) كان المجيلدى شيخا للجماعة كثير الممارسة لكتب الفقه مستحضرا
للنوازل عارفا بادراج الجزئيات تحت الكليات ولى قضاء فاس الجديد
اكثر من أربعين سنة فحمدت سيرته وولى قضاء مكناسة الزيتون اواسط
شوال عام 1088 فى نفس السنة التى نصح فيها اليوسى باعتماده
فى المشورة ، كان اليوسى من تلامذته اخذ عنه رسالة الاسطرلاب ...
وقد توفى بفاس يوم 25 صفر 1094 ودفن خارج باب المحروق .
الاتحاف 1 ، 324 .

لقد كانت نظرية الأول أن تترك للناس حرية التسلح او تملك المواد الاستراتيجية بالتعبير الجارى اليوم ... وأن يقوم السلطان الى جانب اعطاء هذه الحرية فى الداخل — بمطاردة الاجنبى الجاثم على الساحل ... لكن خطة السلطان مولاي اسماعيل — كما عرفنا — كانت ترى أن لا طريق للتغلب على الخارج الا بايجاد داخل قوى متلاحم يقف وقفة رجل واحد ويجلس جلسة رجل واحد ... فمنطلق الخلاف اذن كان « من أين نبدأ ؟ »

سنرى انه اذا كان اليوسى ينتظر من السلطان مولاي اسماعيل ان يبلغ فى جولته التفقدية حدود ماسة فانه اى اسماعيل تجاوزها سنة 1089 — 1678 الى أندر (سان لوى) وتنبكتو اى فى اشر الايقاع بشيعة الدلائيين الملتفين حول أبى العباس كما سلف القول ... حيث نرى السلطان مولاي اسماعيل يتزوج من المغفرة — الحرة خنائة بنتبكار التى كان لها ذكر عطر فى التاريخ — ، وقد شهدت هذه السنة ايضا تحرك اسماعيل نحو المغرب الشرقى لتسوية قضية الحدود مع العثمانيين الأتراك الذين كانوا يحكمون الجزائر ... والذين كانوا يغدون ثورة الأمير ابن محرز فى محاولة يائسة للتوسع فى التراب المغربى .

كما عرفت هذه الظروف مفاتحة السلطان لانجلترا فى شأن طنجة حيث نجد له سفارة فى لندن برئاسة عمر بن حدو ... ونجده يواجه فى نفس الوقت ضغط فرنسا عليه ليوقع على الاتفاقية المغربية الفرنسية التى حضر مشروعها فى سان جيرمان ... كما

نجده يتابع اسبانيا في شان استخلاص ما تحت يديها من أسرى
ومخطوطات ...



لقد كان يخيّل الى وأنا ألتبّع حوار الفقيه الحسن اليوسى
مع السلطان مولاي اسماعيل أننى ألتبّع حوار الفقيه أحمد بابا
السودانى مع السلطان مولاي احمد المنصور السعدى ... كان
ابن خلدون على صدق عندما ميز بين حاسة الرجل كعالم وحاسة
الرجل كسياسى ، فالعالم مَهْمَا بَلَغَ افراكه للأشياء ، يظل تفكيره
تفكيراً أكاديمياً أى أنه أقرب الى النظريات منه الى الواقع ...

فعند ما كان احمد بابا يعاتب المنصور على تحركه فى تنبكتو
كان لا يعلم بكل تأكيد مشاغل المنصور آنئذ ولا يعرف شيئاً عن
مراسلاته واتصالاته مع ملوك أوروبا من أجل ضرب مصالح
اسبانيا فى الهند وتطويق نشاطها فى أفريقيا ونسف اطماع اترك
الجزائر فى الاطلالة على المحيط الاطلسى .

وهكذا وعلى قياس ذلك ظهر الشيخ اليوسى وكأنه يريد أن
يرشد السلطان مولاي اسماعيل الى الطريق التى ينبغى له
أن يسلكها للحفاظ على المغرب ... نحن لانشك أبداً فى النيات
الصادقة التى كان كل من الرجلين الجليلين يتوفر عليها ولكن
مقام الفقهاء مقام ومقام السياسيين مقام آخر على كل حال ...

واذا كان جواب اليوسى على رسالة السلطان حول مواخظة الأول على تهربه من سكتى الحواضر قد حملت تاريخا ، فان (البطاقة) كانت خلوا من كل تاريخ فى سائر النسخ التى بين ايدينا. وبذلك وضعت عددا من الافتراضات ...

واعتقد ان (البطاقة) أقحم ترتيبها فى كتاب الاستقصا عندما وضعت نقلا عن الشيخ اكنسوس فى اعقاب تصفية تمرد فازاز الاخير الذى تم سنة 1104 فقد كان الشيخ اليوسى التحق بربه قبل هذا التاريخ بسنتين اثنتين ، وقد احسنت الاستاذة فاطمة خليل عندما رتبته بعد تاريخ 1083 فى رسالتها المفيدة لنيل دبلوم الدراسات العليا (1) ...

وقد كنت أريد من الاستاذة ان تبذل جهدا اكثر لتجد تاريخا اكثر اقترابا ولعل فى اشارة البطاقة الى القرار الاسماعيلى بالتجريد من الخيل والسلاح دلالة كافية للتدليل على ان الامر يتعلق بفترة ما بعد الايقاع بشيعة الدلاء عام 1088 ... على ان نص البطاقة ايضا على لفت النظر لتعمير الثغور يدل على انها رفعت للسلطان قبل مبادرته لتحرير المعمورة سنة 1092 - 1681 ، ومعنى هذا ان تاريخ البطاقة يوجد بين سنة 1088 وسنة 1092 عندما كان الشيخ مقيما بمراكش وقبل ان يقوم بحجته الأولى ...

(1) اشرف على الاطروحة د . عباس الجرارى ونوقشت بكلية الاداب والعلوم الانسانية بفاس (جامعة محمد بن عبد الله) بعد ظهر السبت 18 ابريل 1978 .

وقد عرفت رسائل الشيخ اليوسى على العموم شهرة بين رجال العلم والفكر ، وخاصة منها هذه «البطاقة» التى وجدنا بها تداولاً واسعاً بين مختلف الطبقات على ما يردده سائر الذين كتبوا عن السلطان مولاي اسماعيل أو تناولوا حديث الشيخ اليوسى اوروباً كذلك الذين كان يهمهم أن يأخذوا صورة عن الحياة الاجتماعية والسياسة للبلاد ، وقد عثرت شخصياً على أصداء هذه البطاقة فى كل من مكتبة ليدن (هولاندا) والمكتبة الوطنية بباريز ومكتبة البودليان بجامعة اكسفورد .

وما من شك فى أن سبب شهرة (البطاقة) يرجع أولاً لما تضمنته من نصائح صريحة مرفوعة من أحد الرعايا الى شخصية تعتبر أعلى شخصية فى الدولة ، ولاشك أن هذا وحده كاف ليكون باعثاً على الرغبة فى التطلع والاستطلاع ، فهل يجزؤ فقيه من الفقهاء أن يخاطب ملكاً من الملوك على هذا النحو ؟ وما سيكون مصير ذلك الفقيه وقد سمح لنفسه أن يواجه ذلك الملك بما واجهه به ؟ هذه عناصر كلها تفسر مدى اقبال الناس على التوفر على مثل هذه المخاطبات .

لكن الشيء الذى كان يثير الانتباه حقاً أن ذلك الملك القوى بجيشه ، العظيم بعدته كان يصيخ بسمعه الى الشيخ معطياً بذلك الفرصة لكل من أراد أن يقول ما عنده فى باب النصيح والارشاد ، وذلك بالرغم من الصياغة التى كانت تتحرى المبالغة والمصاولة ...

ولقد كان من دواعي التأمل والاستغراب بالنسبة للمتتبعين للظروف التي حفت بحوار السلطان مع علماء المملكة أن السلطان كان على العكس مما كانوا ينتظرون - يضيف على الشيخ من دلائل عطفه وتقديره ما كان يحير الخصوم ويبهت المترصدين ، فقد كان السلطان مولاي اسماعيل يستدعى الشيخ لحضور الدروس الدينية التي كان يعرفها مجلسه حيث وجدناه ضمن العلماء الذين لبوا الدعوة لاستماع درس التفسير الذي ألقاه القاضي المجاوى بحضرة فاس .

وقد وقع اختيار السلطان على الشيخ اليوسى لبيعته على رأس ركب الحاج لعام 1101 - 1689 وهو مطلع القرن الثانى عشر حيث ارسله صحبة ركب الامير الشاب مولاي المعتصم نجل السلطان مولاي اسماعيل والاميرة ست الملك ، وقد رحلت القافلة عبر أقطار الشمال الافريقى صحبة الامام المذكور ... ونجله الذى سجل هذه الرحلة وقدم لنا معلومات قيمة عن بعض المواقع التى مر منها الوفد حيث استمعنا عن رباط طرابلس أواخر العهد العثمانى الأول ، وعن أجنة وحدائق وحقول منطقة المنشية والمدينة القديمة ... وعن سائر المراحل التى سلكها الركب واحدة واحدة الى البطنان (1) .

(1) المخطوط محفرظ بالمكتبة تحت رقم 2343 كما توجد منه نسخة بالخزانة العامة فى مجموع رقم 1418 د - التازى : ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاتى ، مطبعة فضالة ص 37 .

وانى على مثل اليقين من أن حجته الأولى التى أشار اليها الاستاذ بروفنصال (1) كانت أيضا بتكليف من السلطان مولاي اسماعيل الذى ما انفك يقدر فى الشيخ حسن نيته وصدق طويته بل وتفانيه فى حب الملوك الأشراف ... « ولوقلت : ان ما عندى من محبة السلطان فى قلبى أقوى مما يكون عند كثير ممن يتملقون بين يديه ، ويدعون المحبة والحفاوة بالسنتهم مالىس فى قلوبهم لم أكذب » ..

ومن ثمت فان القول بأن وفاته لم تكن طبيعية وأنها كانت بتدبير من ولى القبيلة قوله فى عهدة الذين نقلوها ممن تستهويهم الاغرابات والاشاعات ...

لقد كان مولاي اسماعيل يسمع وشايات كثيرة عن اليوسى ، ولكن دأبه — وهذا ما يجب أن يكون عليه خلق الملوك — أن يزن الأمور على نحو ما يقتضيه تفويض الله وتفويض النيابة عن الله ، فلو أن الملك أصاخ بسمعه الى هذا حول ما يقوله عن ذلك ، واستمع الى ذاك حول ما يقول عن هذا ... وتصرف حسبما يتمناه الأول للثانى ، وما يدس الثالث للرابع لما بقى من الرعية أحد على ظهر البلاد ..! ألم نحفظ الحكمة القائلة : « لو أطاع الله الناس فى الناس لما بقى الناس » !

وبعد فان الامام اليوسى مايزال فى حاجة الى دراسة ممعنة ذلك لأنه لا يمثل شخصية فذة فى تاريخ المغرب فحسب ،

(1) Levi Provençal :
Les Historiens des Chorfes, Paris 1922 P. 271

ولكنه يرسم لنا صورة جد مطرفة عن حرية الفكر التي كانت
تسود في العهد الاسماعيلي ، وعن مدى شعور المعارضين
بالحدود التي ينبغي أن يقفوا عندها ، ثم ان الحدث في ذاته يؤكد
عن مثالية رائعة في الحكم تجلت في موضوعية الحوار اولا . كما
تجلت في تجاوز المواقف الهامشية وافساح المجال لنشر الحقائق
والتماس العذر للغائب الذي تبقى معه حجة دائما ...

عبد الهادي التازي

الرباط

جَانِبٌ مِنْ شَخْصِيَّةِ الشَّيْخِ الزُّبَيْرِيِّ وَرِسَالَتِهِ

د. عبد السلام المهراس

ان من خصائص المجتمع الاسلامي شيوع العلم بين جميع فئاته وطبقاته وفي جميع بقاعه ونواحيه لان رسالة الاسلام هي القراءة والاقراء والتعلم والتعليم لذلك كان طلب العلم فرضا وتعليمه واجبا والانفاق في سبيله من أنفع الصدقات والرحلة اليه من أعظم القربات حتى أن الملائكة لتفرش لطالب العلم أجنحتها، وليس ثمة طريق أجمل من ذلك الذي تفرشه الملائكة بأجنحتها، وليكن الطالب ابن من شاء !! ولذلك أيضا كان التعليم في المجتمع الاسلامي ينتشر بانتشار الاسلام ويسكن حيث يستقر المسلمون لا فرق بين خيمة وكوخ وبين بيت عادي وقصر فالعلم الاسلامي كالشمس والهواء والحياة ، جعله الله من نصيب الجميع ، بل ان التعليم كان يزاوِل على ظهر السفن وأثناء السفر في البحار والفيافي والقفار وفي قعور السجون وفي المنافي والملاجئ

والرباطات وقد كانت البادية تعج بالعلماء والادباء ورجال الفكر
يشد طلاب العلم اليهم الرحال يأخذون عنهم ويلزمونهم حتى
ينالوا من معارفهم ليعودوا بعد ذلك باجازاتهم ، وظلت الرحلة
العلمية الى البوادي الى أيامنا نحن ولكنها انقطعت حتى
اندثرت أو كادت خلال العشرين عاما الماضية . وقد أعطت
البادية عطاء عظيما في ميدان العلم وإن كبار علمائنا بالمغرب
والاندلس ينتسبون الى البادية والقرى الصغيرة التي نجهل
الكثير منها ونسدد لها ديونها بجحود وانكار وعدم اكتراث ،
لكن بعض الباحثين الافاضل مثل الاخ الباحثة المحقق الاستاذ
سعيد أعراب شعروا بالمسؤولية وأحسوا بخطورة ذلك تجاهل
لدور البادية وخشوا ضياع ما أسهمت به البادية من نشاط علمي
فهبوا للتأليف والكتابة والنشر ، وهكذا نرى الاستاذ أعراب
ينشر عدة أبحاث عن علمائنا بالبادية كما أن الاخ الاستاذ عمر
الجدي هيأ رسالة قيمة عن ابن عرضون الزجلي ويقوم
الاستاذ عبد القادر العافية بأعداد أبحاث ذات مستوى جيد عن
شخصيات وأسر علمية كانت البادية منبتها ومستقرها ولعله من
القرن العاشر الى منتصف هذا القرن كانت بادية أقصى الشمال
ومدنها الصغيرة من أقوى المراكز الثقافية بالمغرب نشاطا وعطاء
أذ استطاعت أن تزود بلادنا بكبار الشخصيات في الميــدان
الفقهي والقضائي والادبي والصوفي والنحوي وعلم القراءات
والتجويد وقد أدركنا وأدرك أساتذتنا علماء أجلاء أصلهم من البادية
بعضهم يقل نظراؤهم حتى بالشرق مثل الشيخ شعيب الدكالي
والحافظ الشيخ أحمد بن الصديق الغماري الذي يعتبره بعض كبار

علمائنا حافظ عصره ونادر جيله . أما عطاء الصحراء المغربية وقبائلها فمجال الحديث عنه ممتد الآفاق عميق الاغوار . وجل علمائنا يعرفون بنسبتهم للقبائل والقرى كالدكالي والشنقيطي والزرويلي والتسولي والتوجكاني والزياتي والغماري والزروالي والجامعي والحمداوي والترغي والعبدلاوي والزياتي والتسوكي والسوسني والهلالى والزرهونى والفيلالى والصنهاجى والغزاوي والتشركى وهلم جرا ...

وكانت فاس العالمة أعلى مرحلة دراسية بالنسبة لكثير من علماء البادية وطلابها يقصدها جلهم لتتويج دراساتهم فيها والبحث عن الجديد لدى علمائها وجهابذتها ومنهم من كان يؤمها فقط للتبرك ببعض شيوخ العلم واستجازته . وبعد الانتهاء واستيفاء المقاصد العلمية كان بعضهم ينجذب لاغراءات فاس الحضارية فيقيم فيها مندمجا في حياتها متزوجا من نساءها وقد أصبح كثير من هؤلاء من أهم رجالاتها ولكن البعض الآخر يابى عليه حنينه لبلده وشعوره بالواجب نحوه الا أن يغادر مدينة فاس ليرجع الى قومه ينشر بينهم علمه ويؤسس مدرسة في منطقة نائية هي في أمس الحاجة اليه أو يواصل رسالته شيوخه الاولين .

وبهذا التلاحح بين الحضرة والبادية كانت العلوم تزدهر والمعارف تنشط وأواصر الامة تتماسك وتشتد ، وقد كان لشيوخ العلم بالعاصمة تأثير كبير في توجيه بعض طلابهم الى القرى الكبيرة أو المدن الصغيرة النائية ليتحملوا مسؤولية

القضاء أو الامامة أو أي منصب من مناصب الدولة ينيطه بهم
السلطان بإشارة من بعض علماء الحاشية المقربة .

وكان كثير من العلماء يعزفون عن حياة الحاضرة والبعد عن
سكنائها والزهد في المناصب لاسيما عندما تكون الاحوال
السياسية مضطربة ، وقد قدم هؤلاء أعمالا جليلة في تعليم
البوادي ، وتثقيفها وحل الكثير من مشاكلها وقيادتها في ميدان
الجهاد المقدس ، وان أكثر الاضرحة والزوايا يرقد فيها هؤلاء
العلماء الاجلاء الذين كانوا قادة شعوب وأبطال جماهير قدس
العوام آثارهم ناسين رسالتهم الحقيقية .

والامام الحسن اليوسى أحد هؤلاء الافذاذ الذين ارتبطوا
بالبادية ارتباطا شديدا منذ النشأة الى آخر رمق من حياته ،
فقد أثر الحياة بالبادية وامتنع - باصرار - عن الحياة في المدينة
رغم الحاح السلطان عليه ، وقد أثار عليه موقفه هذا انتقادات
شديدة وأثيرت حوله شكوك كما امتدت التقولات والتشكيكات
الى مكانته العلمية فأشيعت شبهات حولها لانه لم يدرس بفاس ،
وكما يبدو ، فان الرجل كان نابغة منذ صباه سريع التحصيل ، حاد
الذكاء . وقد استغنى بشيوخه الذين أخذ عنهم في الجبال
والصحراء وفي زاوية الدلاء عن الاتجاه الى فاس . وقد أهله نبوعه
المبكر ليتولى الافتاء والتدريس وهو بعد شاب يافع لم يتعد
العشرين من عمره . وعرفه من اتصل به على حقيقه . لذلك كانت
اللمزات في علمه تثير فيه الضحك والسخرية وتريده اعتزازا
بنفسه ، فالعلم لم يقصره الله على الحاضرة دون البادية فهو

كما يكون هناك يكون هنا لان في ذلك حكمة الله البالغة ومشيتته الباهرة . يقول اليوسى ردا على أولئك المتهمين له في علمه :

« فانا بحمد الله كان كل هؤلاء وغيرهم يسألوننى وأنا ابن عشرين سنة أفبعد ما لاح الشيب في عارضى ينفون العلم عنى بكونى لم أكن في الحاضرة ولقد كنا نضحك أيام كنا بفاس مما يبلغنا عنهم وذلك أنهم بحمد الله — والتحدث بنعم الله شكر — رأوا ما بهر عقولهم علما وفهما وفصاحة فكانوا يقولون نرى الرجل بربريا ثم اذا تكلم تكلم بلسان أهل الحاضرة وكان يبلغنا عن بعض الحمقى منهم أنهم يقولون ما فاته شيء الا أنه لم يقرأ بفاس » (1) .

ويتهم هؤلاء بضعف في عقولهم وجهل في مداركهم وبعدهم عن معرفة حكمة الله ومشيتته بل أكثر من ذلك يشتط به الغضب والغليظ فيشبهه موقفهم بموقف اليهود الذين أنكروا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم اذ لم يكن من الشام او من بنى اسرائيل (2) .

ومعنى ذلك بصريح عباراته اعترازه بعلمه البدوي وقسوة البادية على منافسة الحاضرة بدليل اعجاب علماء فاس بعلمه وفصاحته وفهمه رغم أنه لم يقرأ بها .

1 — الرسائل 151/1

2 — نفسه 131/1

وقد اختار الإقامة في القرية بدوافع متعددة يفصح عن بعضها في رسائله ومحاضراته ومن هذه الدوافع : (3)

(1) ان البادية منشؤه ومسقط رأسه ففيها ولد وفيها نشأ ، والانسان مفطور على حب أصله ووطنه الذي درج فيه ، يقول : « انى ولدت في الفجاج الواسعة بين الريح والشيخ والجنوب والشمال » والمرء بفطرته متعلق بوطنه ويستدل بكلام الحكماء والشعراء على هذا التعلق الفطري وان ذلك لدليل الوفاء ...

(2) وان أهل القرى في مَسييس الحاجة الى أمثاله كما تحتاج الحاضرة الى علمائها ويجب أن يتساوى الجميع أمام الاستجابة للمطالب والحاجات يقول : (4)

« وكما أن أهل الحاضرة محتاجون فأهل القرى وأهل البادية محتاجون أكثر وكلهم عباد الله المومنون والبلاد بلاد الله والعباد عباد الله »

ويقول في مكان آخر ان الاعراب أحوج الى العالم من الحاضرة لانهم أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله فالاعتناء بهم أجدر وتعليمهم شؤون دينهم كأنه تبليغ الدعوة من جديد بنوهم لا يعنى هنا بادية معينة . لذلك يجب على العالم الالتزام بالإقامة مع من يتعين عليه أن

3 - نفسه 1/118

4 - نفسه 1/161

يرشدهم . وقد اختار من البادية سكنى القرية لامتيازها بغضائل لا تتمتع بها المدينة ولا العمود ، فالمدينة مجال للخديعة والملق ، كما أن العمود بيته للجفاء والغلظة . أما القرية فهي وسط . وخير الأمور أوساطها ؛ كما أن البادية تحافظ على النسب .

(3) ان سكنى الحاضرة تفسد نساءه وأسرته بما فيها من بذخ ومدنية واتساع حياة مما لم تألفه البادية ، فقد تعودت أسرته كما تعود آبؤه على حياة الشظف والخشونة في المأكل والملبس والمبيت قانعين بذلك « يلبسون الصوف الخشن ويأكلون البر تارة أخرى والدخن أخرى والتمر أخرى والبلوط وحب العر عار أخرى حامدين شاكرين ما رأوا قط لباب البر ولا ابزارا ولا عطرا ولا كتابا ولا ملفا ... » (6)

(4) ثم ان الحياة في المدينة مدعاة الى البخل والبخل صنو اللؤم ويعيب على من يقول بأن « ليس على الفقيه من ضيافة » وهو ليس من أولئك الذين ييغون أن يحط عن ظهره ثقل ما يحمله الكرام من القيام بواجبات الضيف لأن ذلك يؤدي به الى التخلق باللؤم ، وقد استغرب من تخلق أهل الحاضرة ببخل البخل وسأل بعض أهلها عن سبب ذلك فأجابه متكئا على تعلات لم تقنعه ، لان ضيق المنازل يمنع من التكرم بالطعام والمبيت ولكنه لا يمنع التكرم بالمال (7) وهو يخشى على صبيانه من أن

5 — المحاضرات ص 19

6 — الرسائل 1/121

7 — نفسه 1/121 ، 153

يسرى اليهم هذا الخلق الذي يؤدي بهم الى اللؤم وقلة السماحة
كما هو دأب أهل الحاضرة ويستدل بذلك بما وقع للعرب الذين
فسدت طبائعهم عندما سكنوا الحواضر .

(5) ان المدينة تلزم المرء أن يسكن في جحر كجحر الضب(8)
لضييق المسالك والدروب والطرق « فاذا دخلت تدافعت أنا
والنساء الاجنبيات بالاكثاف » ولكثرة الازدحام وضيق الطرق
والدروب ما لا يستطيع معه أن يجيب طالب علم أو مستفتيا
يصادفه في الطريق لان الاجابة تقتضيه الجلوس معه في قارعة
الطريق المتراحم فان فعل لا يلبث أن يسمع « بالكم بالكم »
فيهرب فيلتجأ الى مسجد من المساجد لكنه يجدها مغلقة لانها
لا تفتح الا في أوقات مخصوصة مما يضطره « اما للسفر
لخارج البلدة واما دفعته عنى بلا قضاء حاجته » (9) .

(6) وهو قد طلب العلم لله وتربى على الالتزام بهذا الخلق
أخذا وعطاء تعلما وتعلما . والبادية وحدها تستطيع أن تهىء له
المناخ الملائم والوسط الذي يستجيب لرغبته ويحقق مقصده
ويرضى مقصده أما المدينة فتفتن العالم وتصرفه عن ذلك
الالتزام بما فيها من حياة الضيق والخرج والفتن وما تقتضيه
من مطالب مادية وعلاقات مع ذوي المناصب والراتب والتنافس

8 - نفسه 153/1

9 - نفسه 153/1

(9) مكرر « بالكم » خذوا حذرکم وانتبهوا

على الدنيا والجاه والتعرض للحسد والحزازات . وهو يتهم عالم المدينة بأن هدفه من العلم مادي ، يقول (10) :

« فان الذي يتقرب من أبواب الملوك بل ومن الحواضر كلها التي هي محل المرتبات هو الذي يمكن أن يقال فيه انه يطلب الدنيا فان تلك الجهة منها يكون للعلم نفق ويكون له ثمن وأما البادية فلا ويقل أن يوجد في تلك الجهة علم يتعاطى لله تعالى . ورب عالم في القرى يعلم ويفتى لله تعالى ويطعم طلبته وربما كساهم ولا يترقب على ذلك جزاء ولا شكورا الا من الله تعالى ويحرث أرضه كما يحرث الناس ويعيش كما يعيشون فهذه التجارة الرابعة » .

(7) ويشتط به القلم فيرمى أهل الحاضرة بكونهم لا يشتغلون بالعلم وانما همهم الاشتغال بالحظوظ الدنيوية (11) لذلك كان خروجه الى البادية راجحا ولان طلاب البادية أكثر اقبالا على العلم واخلاصا في طلبه والدليل على ذلك أنهم يرتحلون الى أقصى البلاد للاخذ عن العلماء ، يقول « وطلب العلم اذا لم تكن معه قريحة وقادة لاينتج ، وصاحب القريحة لا تتركه قريحته ينتظر من يأتيه . فمن كان بالقيسارية مكبا على فلوسه حتى اذا سمع بعالم دخل أرخى غلق الحانوت وجاء يستمع وقلبه باق في الحانوت يحسب . فمتى يحصل له العلم ؟ هيهات هيهات !

10 - نفسه 152/1

11 - نفسه 124/1

انما يـرجو العلم من انبعثت جـمرة العلم في قلبه تذـكره ضـياع أيامه وتنسيه جميع أولاده وأمواله « (12) .

وهو يحمل على أهل فاس وعلى طلابها الذين رغب جلهم عن علمه وتركوا مجلسه واندفعوا نحو من يسدي اليهم الدراهم والمساعدة المادية وما أظن أنه كان يعتقد في قرارة نفسه أن الحاضرة كانت شرا كلها وأنها لم تكن بيئة علم وفضل وولاية ، وأنها كانت فقط مشغلة بالحفظ الدنيوية والاعراض المادية ، ولكن الرجل ووجه بما أثاره وأحيط به من نواحي شتى وأحكمت المؤامرات والدسائس حوله للإيقاع به لذلك اضطر أن يدافع عن نفسه هذا الدفاع الذي يشوبه هجوم وتهجم . فوصف المدينة – وهو يقصد مدينة فاس – بذاك الوصف مع أن بالمدينة علما كثيرا ولا سيما مدينة فاس التي كانت مزدهرة بالعلوم بصورة شاملة وعميقة . والعواصم كالبحر تمتد باقى البلاد بالغيث ليعود اليها النفع منها بما يكون بين الحاضرة والبادية من تبادل وعطاء كما أشرنا الى ذلك أول الكلام .

انه رجل بدوي قح متحرر من القيود عاش في جو علمي خاص وفي ظل دولة تقدر مواهبه وكفاءته وتتيح له المجال للعمل والممارسة وتبذل له من الود والمساعدة ما جعله متعلقا بها معظما لرجالها فلما تغيرت الاحوال ظل في الحقيقة على

ولائه القديم وان مال بعض الميل نحو المولى رشيد الذي كان يقدر فيه بعض الخلال الحميدة والخصال العلمية النبيلة .

ثم ان الرجل معتر بنفسه وعلمه وأدبه ، وكما يبدو من كلامه — ابان الفتنة والصراع — لم يكن بفاس من يستحق أن يكون شيخاً له الا الشيخ عبد القادر الفاسي الذي كان يحظى باحترامه ولعل للعلاقة الصوفية أثرا في هذا الاحترام لان اليوسى كان يقرن بين الفقيه وأرباب القلوب متأثرا بالغزالي فلما دخل مدينة فاس أول الامر ووجد من أهلها ما وجد ازداد نفورا من سكنى الحاضرة وتملص من الضغوط وادفع عن نفسه دفاعا مستميتا . ولو أن فاسا أكرمتها فلربما أقام فيها ينشر علمه ولكن الامر كان كما يقول (13) :

دخلت مدينة فاس — حرسها الله تعالى — سنة 1079 اذ خربت الزاوية البكرية فأقبلت طلبة العلم للاخذ عنى وتخلفت جماعة من المشاهير وهم أو جلهم محتاجون الى المجلس وكأنهم غلبهم ما هو المؤلف من الطبع الاولى في أمثالهم وكنت آنست ذلك فيهم » ويظهر من الاعتزاز بنفسه وعلمه ما يثير عليه حفيظة أولئك الذين الذين لم يقدرُوا علمه وربما تجاوبوا مع الجو السياسى الرسمى الذي لم يكن مطمئنا الى اليوسى . يقول :

13 — نفسه 89/1

ما أنصفت فاس ولا أعلامها علمى ولا عرفوا جلالة منصبى
لو أنصفوا لصبوا الى كما صبا راعى سنين الى الغمام الصيب
ان رفض أولئك المشاهير أن يأخذوا عنه أو يحضروا مجلسه
كان موقفا ذا أثر سيء فى نفس اليوسى مما زاده زهدا فى سكنى
المدينة والحياة فيها وانعكس ذلك الالم على إنتاجه وأدبه ، فقد
أنشأ قصائد فى الحنين الى وطنه الصغير ومسقط رأسه
كما أورد أقوال الشعراء والادباء والحكماء فى حبهم لوطنهم .
ومما قال فى ذلك : (14)

تشتت قلبى فى البلاد فقسمه
بمراكش منه على رجل طائر
وأخرى «بخلغون» وأخرى مقيمة
بمكناسة الزيتون حول الدفاتر
وأخرى بفازاز وأخرى تجزأت
بملوية الانهار بين العشائر
وأخرى بذاك الغرب بين أحببى
بأهل البوادي منهم والحوضر
فيا رب فاجمعها فانك قادر
عليها وما غير الاله بقادر

ويا رب فاجعلها بأوطانها فمما
عبيدك للبين المشت بصابر

وينحنى الى الله بقلب خاشع سائلا منه أن يجود عليه
بنعمة العودة الى وطنه الصغير اذ ليس له ملجأ سوى بابسه
الكريم .

ويقول في أخرى مشتاقا الى بلده (15) :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسهب الشنين أو بسهب بنى ورا

وهل تعبرن نهر العبيد ركائبى
وهل تتركن «دايا» وأدواءها ورا

فالدافع الفطري والرغبة فى التخلص من الاجواء السياسية
الخانقة الى جانب موقف بعض علماء فاس وطلابها كل ذلك كان
يكمن وراء ايثاره الحياة فى البادية وهو يسعد فيها سعادة لا
يجدها فى غيرها لانه يشعر بحريته وانطلاقه وقدرته على
التصرف فى تنظيم حياته ، يقول فى رسالته التى أجاب بها
السلطان اسماعيل العلوي (16) :

15 - نفسه 142

16 - الرسائل 124/1

« فخرجت باذن سيدنا ونزلت بالشعب الذي كنت فيه وبنيت دويرات بغير مؤونة واتسعت وجعلت لنفسى موضعا وبابا لا أرى فيه قط امرأة من غير عيالى وبنيت بيتا ملتصقا بالمسجد فان رأيت خلطة لا تعجبني نقرت لهم فأقاموا الصلاة وصليت معهم وأنا أسمع قراءة الامام وأبقى على ذلك ان شئت الشهر والشهرين لا أرى أحدا ولا يرانى ، أنظر فى كتبى حتى تقام الصلاة ولا يضيع على شىء من أوقاتى ، وساقيتان تجريان فى وسط الدار والخضرة فى وسط الدار وعلى بابها ، والخطب فى باب الدار والمؤونات مكفية وما لم يوجد يستغنى عنه اذ لا خبر (أو لا جار) يفتن ولا سوق يقطع العذر ، وجاءت طلبة فكتنا ندرس العلم لله لا يتشوف منا أحد لمرتب ولا يرأى أحد أحدا ولا نسمع قال فلان ولا قرأ فلان فاسترحنا وحمدنا الله تعالى ووجدنا صلاح ديننا وراحة قلوبنا وأبداننا فهذا سبب استثقالنا للنزول الى الحاضرة ومن جرب أو ذاق مرارتها ثم وجد الراحة منها كيف يحب الرجوع اليها . »

ان الشيخ النوسى لم يكن بأقل من الشيخ عبد السلام بن مشيش وابن خجوة والهبطى وابن عرضون وغيرهم نزوعا الى الحياة فى البادية بعيدا عن مجالات التنافس على الحظوظ الدنيوية والتزاما برسالة العالم المؤمن الداعية الذى يؤثر العمل فى الجبال مع شظف العيش على الحياة فى المدينة مع الرخاء والسعة والتعرض للمناصب العليا . رحم الله هؤلاء الرجال وأكرمنا بأمثالهم قادة فكر وأبطال جهاد .

الاحالات :

اعتمدت في هذا البحث على « رسائل أبي على الحسن ابن مسعود اللىوسى » جمع وتحقيق الاستاذة الفاضلة السيدة فاطمة خليل القبلى ، وهى رسالة تقدمت بها الاستاذة لنيل دبلوم الدراسات العليا .

كما اعتمدت على كتاب المحاضرات لليوسى - نشر دار المغرب

عبد السلام الهراس

فاس

لِإِنِّي لِرُؤْيَى لِرُؤُلَايَ

لَا بُدَّ عَلَى الْحَسَنِ الْيُوسُفَ

تقديم ودراسة
د. عبد اللطيف السعداني

منذ سنة أو تزيد ، وقع في يدي مخطوط رسالة لابى على الحسن بن مسعود اليوسى ، شد اليه نفسى عند اول قراءة . وخلف في قلبى أثرا غامضا كان يرف له كلما تذكرت اليوسى أو جرى الحديث عنه . وتركنى المخطوط ولما امعن النظر فيه .. فارجأت ذلك الى حين . فلما عرضت هذه المناسبة الطيبة التى خصصت للعالم العارف اليوسى ، سحبت يد الاعجاب كل غشاوة حجب بها النسيان امر الرسالة . واخذت الذاكرة بناصية قلبى اليها .. فاذا هو دليل اخر على معنى وقعها في سرى .

ثم اتضحت لى أسباب ذلك الاعجاب . فالرسالة فريدة من نوعها من بين رسائل اليوسى : لانها فريدة في موضوعها ، فريدة في أسلوبها ، فريدة في غاياتها .

1 - أما الموضوع :

فهو ما أوصى به اليوسى أولاده خصوصا وجميع الاخوان عموما ، كما ورد في صدر الرسالة وهدف الرسالة الاول هو « الاولاد » (1) وان خاطب « الاخوان » فمن أجل أن « يراعوا في اولادي عهد الاخوة والمحبة وان لا يواطئوهم على الهوى » . وان اشار اليهم ، وقد وقع ذلك في اواخر الرسالة ضمن تنبيه اولاده ، فانما ذلك عودة لتأكيد ما لمح اليه « وأعود فأوصى أيضا أولادي وسائر الاخوان بمجانبة خلطاء السوء » وكأنما ينص على ما أشار اليه أولا مؤكدا أن يكون لاولاده جلساء السوء من أقرب الناس اليهم وهم الاخوان ، وان يكونوا معهم على ذلك أكثر حرصا بالنسبة لغيرهم ، وأن يكون بعضهم في ذلك ظهيرا للبعض . ولذلك قال هنا « فليحذر اولادنا من مصاحبة العوام الذين عميت بصائرهم بحبها (الدنيا) وليحذروا كذلك من عوام الطلبة الفقراء المتعطشين اليها .. » ويؤكد ذلك في آخر الرسالة ، فيقول : « حذار حذار من صحبة الناقصى الهمم منهم (المنتسبين الى الجنب) والجوالين الساقطين على الحظوظ النفسانية كائنة ما كانت



وموضوع وصية الآباء للابناء موضوع أخلاقي بديع وأدبي طريف له تاريخ ومكان في الفكر والادب الاسلاميين . (*)

(1) قد يكون تطلع اليوسى في الوصية الى اولاده « ما تناسلوا » كما يفيد تعبيره حول تحبيس الكتب على اولاده .

(*) انظر حول هذا الموضوع : العقد الفريد لابن عبد ربه ج 3 ص 87-96

وفي ذلك يقص القرآن الكريم موعظة لقمان الذي آتاه الله الحكمة لابنه (2) .

« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الانسان بوالديه . حملته أمه وهنا على وهن . وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك الى المصير . وانجاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى . ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السماء او في الارض يات بها اليه . ان الله لطيف خبير . يا بني اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور . ولا تصاعر خدك للناس وا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب

(2) تروى عن لقمان حكم ووصايا كثيرة لابنه منها قوله : « يا بني لا تحدث من تخاف تكذيبه ، ولا تسأل من تخاف منعه ، ولا تعد الا بما تقدر على انجازه ، ولا تضمن بما لا تثق القدرة عليه » . ومن حكمه قوله لابنائه : « يا بني تعلموا العلم قبل ان تكبروا فيفوتكم معناه . ان العلم وغيره من سائر المكارم انما يظفر به الانسان اذا حاوله في صغره وعنفوان شبابه . اما اذا حاوله بعد كبره وادبار شبابه فانه لا يدركه ابدا » . . . من كلام منسوب لابي علي اليوسي في مخطوطة . ومن هذه الوصايا لابنه قوله : « يا بني ، لا يكونن اديك اكييس منك ينادي بالاسحار وانت نائم » . ايها الولد المحب . الغزالي ص 44 - 45 ط : دار الشروق 1975 . وانظر ايضا كتاب « لقمان الحكيم » للعلامة عبد الله كنون . ص 65 - 82 . ط . دار المعارف

كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر
الاصوات لصوت الحمير (3) .

كما يذكر في آيات أخريات وصية ابراهيم ومن بعده يعقوب
لبنيه ، وصية الاسلام :

« اذ قال له ربه اسلم ، قال اسلمت لرب العالمين . ووصى
بها ابراهيم بنيه . ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين
فلا تموتن الا وانتم مسلمون . أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب
الموت اذ قال ابنه ما تعبدون من بعدي . قالوا نعبد الهك واله
آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له
مسلمون » (4)

وفي القرآن الكريم غير هذا اشارات الى نوع خاص من
الوصايا واحكامها حدد معناه الفقهي . الا انها تدخل أيضا في
نطاق هذا الموضوع من وجه . لما قد تشتمل عليه من نصائح
الموصين وهم في الاغلب آباء للموصى لهم وهم ابناء او حفدة .
ولما فيها من توجيهات في نحو أخذ المال وطرق صرفه في المصالح
الخاصة والعامة الاجتماعية . وهو ما تهدف اليه هذه الوصايا .

ونعثر فيما جمع من كلام الامام على كرم الله وجهه في
كتاب نهج البلاغة على نصائح ووصايا من النوع الذي نتحدث
عنه . يهمننا منها هنا وصيته لولده الحسن رضى الله عنه (5) .

(3) سورة لقمان رقم 13 ، الآيات 13 - 19 .

(4) سورة البقرة رقم 2 ، الآيات 131 - 133 .

(5) نهج البلاغة ج 3 ص 37 - 57 ، ط : بيروت .

وهى من روائع درر كلامه ، وخلاصة تجاربه وممارسته لاحوال النفس وتقلبات الزمان واضطراب الدنيا ومصير الانسان فيها وبعدها .. فيخاطبه بلسان ما بعد الموت « من الوالد الفانى » ويوصيه اول ما يوصيه بتقوى الله ويعرفه بخبايا اسرار الحياة وما تنطوى عليه النفس الانسانية من الخير والشر . ومن هو اجسها ، كما يوضح له معاملة الناس واختلاف أجناسهم وطباعهم خصوصا وانه مسؤول عن الامر بعده . وان الامانة ستلقى على عاتقه . وقد جمعت من الحكم غررا مما يليق ان يكون قانونا للحياة ومنارا يهتدى به السائرون فى ظلماتها

ويندرج تحت هذا الباب كل ما اوصى به الخلفاء والملوك أبناءهم عموما وولاة العهد بعدهم خصوصا . ففيه العناصر الكافية التى يكون بها جزءا من موضوع الوصية الى الابناء . اذ هو منهاج يخطه هؤلاء الآباء من اجل تنمية شخصية أبنائهم وتوفير الظروف النفسية التى يستطيعون بها أن يكونوا النموذج الانسانى الذى يصلح لتسيير شؤون الناس . وحركة دواليب الدولة . فى أحسن حال واعدله . فهذا النوع من الوصايا يهتم بالشخص الموصى له فى نفسه ، ويهتم بالاضافة الى ذلك بالامة التى ينتسب اليها ذلك الشخص ، ويهتم بالامر الذى سيتولاه هذا الشخص فى تلك الامة .

وفى هذا القالب الادبى المعبر الصادق ، صاغ الكاتب الاديب عبد الله بن المقفع فى مطلع القرن الثانى احدى روائعه فى رسالته

« الادب الوجيز للولد الصغير » (6) الذي ألفه في تأديب ولده وتعليمه عندما بلغ أشده . وفي ذلك يقول « حتى تتعظ بآدابى وتكسب حظا تستطيع أن تنتفع وتتمتع به فيكون ذلك حجة اشفاق أبوتى عليك وقضاء لحق بنوتك الذي اوجبه الله تعالى على كآب ويكون فى المستقبل داعيا وموجبا لان تبر بى وتحسن الى جزاء لذلك .. وتساعد فى اموري » ثم بين له ان النصيح والتأديب لا ينتفع به دون مساعدة التوفيق الالهى . وبدأ النصيحة برعاية التعظيم فى أداء شكر الله وبلوغ غاية الاجتهاد فى حمده وثنائه (7) .

وكتب بعد ذلك أبو حامد الغزالي (451 – 505 هـ) رسالة على هذا النهج لاحد مريديه ، والمريد فى عرف الصوفية كالولد . وذلك ما يلاحظ من عنوان رسالته هذه « أيها الولد المحب » ينصح له قائلا : « واعلم ان بعض مسائلك التى سألتنى عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول . ان تبلغ تلك الحالة تعرف

(6) فقد اصل هذه الرسالة باللغة العربية لعبد الله بن المقفع ، وبقيت ترجمتها الى اللغة الفارسية عن ذلك الاصل للفيلسوف نصير الدين الطوسي (597 – 673 هـ) وطبعت هذه الترجمة بطهران بتحقيق الاستاذ عباس اقبال سنة 1352 هـ . ثم ترجمها حديثا عن الترجمة الفارسية الى اللغة العربية الدكتور محمد غفراني اخرساني وطبعت بالقاهرة سنة 1962 م .

(7) الادب الوجيز للولد الصغير ص 37 – 38 .

(8) طبعت هذه الرسالة مرارا ، وآخر طبعة لها هي التى صدرت بتحقيق وتعليق عبد الله احمد ابو زينة بدار الشروق ، اكتوبر 1975 . وهي جيدة ومطبوعة .

ما هي والا فعلمها من المستحيلات لانها ذوقية .. وان البعض الذي يستقيم له الجواب فقد ذكرناه في « أحياء علوم الدين » وغيره . ونذكر هنا نبذا منه (9) مبتدءا بالتأكيد على العمل بالعلم ثم موضعا تلك المسائل ناصحا بما يجب الاخذ به في سلوك الطريق الى الله تعالى . جاعلا مسك ختامها دعاء جامع يذكر بكثير من الحقائق التي هدف الى ابلاغها اياه اوصاه أن يدعو به عقب كل صلاة . وهي من أجمل واجمع النصائح التي تستزيد القاريء تكرارها كلما عاود تلاوتها .

وقريب من هذا العهد كتب العالم العارف ابو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (510-597 هـ) وصيته لولده سماها « لفظة الكبد الى نصيحة الولد » (10) بدأها بقوله : « الحمد لله الذي انشأ الاكبر من تراب .. » وذكر انه ألفها لولده أبي القاسم لما رأى منه نوع توان عن الجد في طلب العلم . فكتبها يحث بها على طلب العلم (11) .



وصية اليوسى الى اولاده هي من نوع هذه الوصايا . ولكنها تختص بما يميزها عنها ، وتمتاز بما اختلفت به دونها . فهي وصية تتعلق بما بعد الموت . وتنظر الى الاحوال المادية والمعنوية التي ستترتب على ذلك . وهي تهتم بحالة الموصى نفسه

(9) ايها الولد المحب ، ص 48 - 49 .

(10) نشرت هذه الوصية بمطبعة المنار سنة 1931 م .

(11) كشف الظنون - حاجي خليفة ، ج 2 ص 559 .

وما يجب عمله من تجهيزه وترتيب ما يتعلق بذلك . وتهتم بأحوال نسائه ، ومنزله ومن يضمه وكيفية نظام حياتهم وتنظيم شؤونهم . وهى تتطلع الى هدف سام هو الحفاظ على استمرار ذلك المدد الروحى الذى وصل الى صاحبها . وهى بعد هذا منهاج عام للتربية ، تربية الاب للابناء وتربية المرشد للمريدين . وقد اجتمعت تينك الصفتان فى الاب الموصى واجتمعت هاتين فى ابنائه موضوع الوصية . واذا اصفنا الى هذا اطلاع اليوسى الواسع ومعرفته الادبية والعلمية والذوقية الكبيرة وخبرته التربوية التى تغذت من منبع الزوايا ومعين الشيوخ ذوى القدم الراسخ ، علمنا أهمية هذه الرسالة ، ليس بالنسبة لابنائهم فحسب بل بالنسبة لمناهج التربية عموما (12) .

2 - أما الأسلوب :

الذى تكاد تتفرد به فهو ابتداء من هذه البداية، بعد الإشارة الى اسمه « العبد الفقير المسيء الى نفسه المرتجى عفو الله تعالى بفضله وكرمه .. » يذكر مقررا « شاهدنا لله تعالى بالربوبية وحده لا شريك له ولنبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاصطفائية » اذ انه يتمثل نفسه فى موعد مع الموت مما يستوجب المبادرة الى الشهادتين قبل التفكير فى أي شيء آخر . وكأنه بعد لحظات يسترجع انفاسه ويحس بالحياة تجري

(12) انظر كلام اليوسى القيم المستفيض عن العلم والعالم والمتعلم وما يتعلق بذلك فى كتابه « القانون » .

في عروقه ، فينبسط أمام ناظريه ما سيقع بعد غيابه عن الانظار .
فيأخذ بزمام شروذ الافكار ليقرر مباشرة مقصوده وهدفه وهو
« انسى اوصى اولادي .. » ومن هنا ينطلق في عرض مؤثر
للافكار والحكم والنصائح محلا ومبسطا تارة ، موجزا ومركزا
أخرى . في بيان واضح تنعكس عليه كل حالته النفسية من تأثر
وهيجان ، واضطراب يكتنفه الاشفاق على المستقبل ، مستقبل
الابناء ومستقبل الزاوية بعده . فيسارع حيناً الى بث الفكرة
كاملة دفعة واحدة حتى لتحس في ذلك بحركة أنفاسه المتسارعة
ودقات قلبه المتلاحقة ، كما هو الامر في بداية الوصية ، خصوصا
اذا كان الامر من أكد ما يذكر به مثل « الاقتداء بكتاب الله
ظاهرا وباطنا والمحافظة على سنة رسول الله واتباع الحق حيث
كان وحسن الظن بعباد الله ومصاحبة من اطاع الله . والتثبت
فيمن يقلدونهم أمور الدين . ولهذا نراه هنا يكرر لفظ « واصى »
أربع مرات في سطور معدودات . ويشمله هذا التدفق السريع
القوي في امتداد هذه البداية فتظهر بعض « الاحوال » في أقواله
جهرأ . اذ يقول : « فليس لنا مال وانما نحن فقراء نعيش في
فضل الله تعالى . ولولا النظر الى ظاهر الشرع لما أخرجنا زكاة
ولا ماشية ولا غير ذلك ان كان لان الكل ملك لله ولا ملك لنا ،
ولكن خوطبنا بحكم الحوز والله المستعان » .

وعلى كل حال فهذا مكان المقدمة من الرسالة . جدير بان
يعرض فيه بايجاز الافكار الاساسية والخطوط العريضة من
تصحيح الاعتقاد والتوجيه الى وسائل الاستفادة لاجل ذلك في

كتاب الله على حسب ما فسرہ العلماء بالله واهل الفهم عن الله
والفقهاء باحكام الله ورسم الطريق النموذجى لذلك بقوله :
والاعتقاد كما قال امام الطائفة الجنيد

ولذلك لا يفتأ يشير الى هذا خلال الرسالة كلها ويذكر
به ويعود لتفصيله بين حين وآخر بنحو مغاير كما فى اشارته
الى التخلق بمكارم الاخلاق فى الكتاب والسنة وأقوال الحكماء
ووصيته بالمحاضرة على الشريعة والحقيقة والبحث عن العلم
والاجتهاد فى العمل . وقوله « اوصيهم بمجالسة اهل الخير
ومجالسة اهل الفقه والحكمة من العلماء العاملين الصالحين . »

ويقف حيناً آخر وقفة متأمل يحلل الجزئيات ويقلب
أوجهها ويدقق ويبسط ويمثل ويستشهد بالأقوال وهذا بالإضافة
الى التقسيمات من خصوصيات أسلوبه فى جميع رسائله ويقسم
كما فى تقسيم الارزاق الى طيب والمشتبه الضعيف الشبهة
وقويها والحرام البين ويعود اليها من حيث انتهى . ثم يستمر
فى الكلام ليعود الى تفصيل القول فيها بعد ذلك وقد تتداخل هذه
التقسيمات كما فى تقسيم العبيد فى كدحهم وطلبهم الى :

- 1 - طالب لله تعالى . وهم درجات ، منهم :
أ - من يغيب عن الاكوان لمشاهدة المكون ،
ب - ومنهم من لا يغيب لمشاهدة الامرين وهم الانبياء .
- 2 - طال بلاخرة وهم اوسط الناس .

3 - طالب للدنيا من بابها كالحرث والتجارة .

4 - طالب للدنيا من غير ابوابها وذلك :

أ - الاشتغال والتدبير والتقصيص والبحث وهو حمق .

ب - بالسؤال والتكفف وهو مهانة وسخافة وسقوط همة .
وشرح حالة كل قسم ومآله . ومن ذلك في وصيته مجانية خلطاء
السوء حيث قسمهم الى ثلاثة :

1 - فاسد الطبع وشرحه بأنه كل من له خلق مذموم ومن
ذلك :

أ - حب الدنيا . ب - الكبر والتجبر . ج - الحسد والحقد
والبخل

2 - فاسد الحس وهو الضعيف العقل القليل التمييز

3 - فاسد العمل : وهو من لا يتق الله تعالى كافرا او
مسلم فاسقا بارتكاب المنهيات والتقصير في الأمور . وفي
اضراب هؤلاء شخصان :

أ - المبتدع في الدين ظاهرا او باطنا

ب - من لا يضبط لسانه من الوقية في الناس .

وقد تنبه الكاتب الى هذا الاسترسال المستفيض فابان عن
ذلك في احالته للمزيد من التفصيل على كتب أخرى قائلا :

« ومن ذلك الحسد والحقد وسائر اخلاق السوء وآفاتهما مشروحة في كتب الأئمة فلا حاجة الى التطويل بها في هذه المجالة » .

واكتفى بالأشارة الى « اسباب في الحكمة الالهية » لانه « لن يسع الوقت تفصيليها »

واحترز من ذكر الاسباب والاسرار التي في غيرة الله للمنتسبين لجذابه وان كانوا على سوء بعقابه من تعرض لهم بمجرد الهوى . محذرا اولاده من الاحتقار والوقية بالشهوات، فيمن اتسم بالفقر والانتساب الى الجانب الرباني . فقال : « ولذا كاسباب وأسرار يطول تفصيلها » .

وترك تفصيل الكلام عما تجمله « القبائل والعشار » على رغبته في الحديث عن هذا الموضوع الى وقت آخر قائلا : « واحكام هذا الباب لا يسع هذه الوصية استيفائها ، فان وسع الله في العمر رجوبا ان نفرد لذلك مصنفا ينتفع به ان شاء الله تعالى » .

ومد يعود الى الفكرة الواحدة أكثر من مرة بعد أن يكون قد تركها وانتهى من ذكرها . ولسنا نرى في ذلك تكرارا او تطويلا . وانما هو استحضار للفكرة كلها او جانب منها مع زيادة بيان يوجبه ما يدعو لذلك والعذر على كل حال بجانبه حيث ان هدفه هو تأكيد مجموعة من المبادئ الاخلاقية والحث عليها وترسيخها في الذهن . وذلك هو أسلوب المربي .

واذا قارنا بين الاقتضاب وهذا التفصيل جاز ان نجعل من هذه الرسالة اجزاء مستقلة . فاذا نظرنا اليها على هذا النحو ، تضاءلت ملاحظة قلة التناسب بين التركيز والايجاز والتحليل والتبسيط . فان اصفنا الى هذا الحالة النفسية التي كان عليها وهو يكتب هذه الوصية تبينا حقيقة منعطفات المسار تلك التي جذبت الكاتب اليها . وهناك سبب جوهري لهذا الشكل الذي كانت عليه الوصية ، وهو أنها ليست تأليفا بما تفرضه قواعد التأليف . فلا موضوعها يوجب ذلك ولا ارادة المؤلف تقتضيه . وانما هي مجموعة نصائح مهداة الى نفوس عزيزة على صاحبها والى آمال عزيز عليه مستقبليها . فهي كما كان يجب أن تكون على فطرة الابوة وحرية سجيبتها ، من دون ان يعطل انسياها قانون او يحد طبيعتها شرط . وقد تراءت للكاتب في خلال هذه الرحلة النفسية بعض مشاهد توقفت نفسه عندها واشتاقت همته الى تحقيقها بعد موته . فكانت على هذا النسق بعد الافتتاح والتمهيد :

من يتولى :

حيث يوصى الاولاد بان يقدموا في أمورهم الاكبر فالاكبر ما لم تظهر خصوصية من الله تعالى وفضيلة في الاصغر توجب تقديمه .

اقامة الزاوية :

وعلاوة اقامتها على ايديهم .

1. انجلاب الارزاق : (2) تيسير اطعام الطعام
الطعام ، (3) وجوب التصرف .

التسليم :

ويوصى بالتسليم لمن قام الامر على يده منهم واعانته .

التولى لا يعنى الولاية :

ويبادر الى مخاطبة من تولى ذلك الامر حتى لا يغتر
بنفسه فيعتقد ان ذلك دليلا على الولاية . موضحا الاحوال
في ذلك مبينا العلامات التى يستطيع بها معرفة حاله .

وهنا يحث على المحافظة على الشريعة والحقيقة والبحث
عن العلم والاجتهاد فى العمل .

أما حول سلوكه فيوصى بـ :

— القصد فى التصرف

— تطيب اللقمة .

ويبين له :

— أمر ما تجعله القبائل والعشار (13)

(13) العشار : أو العشور كما تنطق فى اللهجة المغربية واجب الزكاة
فيها لم يسق من الحبوب والقلاة .

— الاحوال النفسية التي قد يجد عليها نفسه وطرق
اصلاحها .

الزاوية :

.. ما يجب المبادر للقيام به فيها : فليصرف (المتولى) جميع
ما كان من الصدقات في أيدينا من اليوم (14) ولا يمكن أن يكون
ذلك ارثا لاحد .

ويختتم هذا القسم بقوله : اذا لم تستقم الزاوية لهم ولا
لاحد ، فالتسليم . ثم يحاول ابعاد اهتمام نفوسهم عن الزاوية
في نفسها وابعاد همهم وخواطرهم عن القشيبث بها فيشرح
المقصود من الزاوية ، وانه ليس ذاتها وانما معناها ؟

تحذير :

وينبه الاولاد بلفظ « احذرهم » فيبين لهم طرق الرزق
السليمة عسى ان تكون الزاوية طريقهم الوحيد الى ذلك . مبينا
المهاوي الخطيرة التي يقع فيها أمثالهم من ابناء المنتسبين ويعقب
على هذا بتحذيرهم غاية التحذير من تكبد الناس والطمع
في أموالهم فانه العار لا سيما مع الطواف على المحلات والقبائل
ويستطرد لبيان ما يمكن أن يقع لهم مما وقع مثله فيذكر .

(14) من اليوم : يعني بذلك من يوم توليه امر الزاوية اي بعد وفاة
اليوسي . ويبعد ان يعنى ذلك من يوم كتابته للوصية .

بنى ساسان :

حيث خرج اعقاب ملوك الساسانيين يضربون في الارض منتسبين ويذكرون ما وقع عليهم من البلاء فبقرق لهم القلوب ؟

اهل الكدية :

فبين أصلها اللغوي وقارن بينه وبين ما عليه أهلها ، وقال : واشتهرت الكدية حتى صارت حرفة لاقوام يعيشون بها ويتألفون عليها .

التجاني عن ذلك :

ثم تسترجع الوصية أسلوب السرد والعرض لتبدء بكلمة « اوصى اولادي » فيؤكد على التجاني عن التكدي وما شابه ذلك في اكتساب الرزق غاية التجاني مشيرا في الاخير الى أنه من رزقه الله تعالى من اولادنا رزقا صالحا متيسرا من تسببه من علم صالح فليقبله ، ومن لم يرزقه الله ذلك فلا يقحم نفسه في المهالك والمصائب .

الدار الخلفونية :

وهي الدار التي بجوار التراوية التي بناها بخلفون قريبا من مدينة خنيفة على وادي ام الربيع فيوصيهم بالبقاء فيها ان

أبقاهم الله والا فأرض الله واسعة فيسكن فيها « المتولى »
ويسكن معه اخوته ان وسعتهم والا فليبن حوله كسائر التعلقات

البساتين :

تتفق في سبيل الله كذلك ويؤكل منها بقدر الحاجة .

الكتب :

يرد من كان منها عارية أو ودیعة الا ان يؤذن في الانتفاع
به في المستقبل ، ومن كان منها ملكا بشراء او عطية فهو كله
حبس على اولاده ، فينتفع به الاولاد ما تناسلوا ويحدد كيفية
إعارتها ولمن تعار له .

النساء الحرائر :

فيؤخذ من كل واحدة ما فضل من صداقها من ما في يدها
ويجعل في مال الله ثم من أحببت أن تصبر في الدار فهي من جملة
الاولاد ، ومن أحببت أن تتزوج فلا يتعرض لها .

التجهيز بعد الوفاة :

يوصى بتكفينه بازار شيخه محمد ابن ناصر الدرعى ،
وردائه مع قطعة أخرى من كفنه ، ولا بأس أن يضاف الى ذلك
على جهة التبرك خرقة من لباس الشيخ سيدي عبد الله بن
حسين وأخرى من لباس أحمد بن أبى القاسم الصومعى .

التأكيد على وصية الاولاد

في مجانبة خلطاء السوء محللاً ذلك ومفصلاً ويكرر الحذر في الاخير ممن يقع في الناس بكلمة أو رمز أو تلميح .

وصية :

بمعاشرة أهل الخير ومجالسة أهل الفقه والحكمة من العلماء العاملين الصالحين والاقتباس من أنوارهم مع غاية المحبة لهم والاكرام لهم والتأدب بين ايديهم . ويوضح ان النسبة لها حق في العلم فيجب أن تراعى حرمة كل من انتسب الى الجانب الربانى ؟ وحذار حذار من الاحتقار والوقية بالشهوات فيهم .

حب الجناب :

وحب الجناب على الجملة وتعظيمه والميل اليه لا بد منه لك لموفق . وكل قلب ليس فيه تعظيم جناب الله ومن انتسب اليه على الجملة ومحبة ذلك فهو خرب .

حذار حذار

واردف بتحذيره الاخير من صحبة الناقصى الهمم من المنسبين والجوالين على بطونهم . منبها في الوقت ذاته الى أهل

الهمم العالية المتخلين على الغنى المقيمين على ما يعنيههم . فمن
أظفره الله بهم فليصحب وليقر علينا .

أشعار

وختم الوصية بأشعار في حق أهل الله ووصفهم :

* * *

يلاحظ في أسلوب الرسالة تقول لتأكيد الأفكار ،
واستشهادات لبيانها . وهي في الأغلب خلال الرسالة كلها ، من
القرآن الكريم والحديث الشريف مما يقتضيه سياق الأفكار
التي تعرض لها ، ومن أقوال الصوفية حيث أشار الى كلام
للشيخ أبي العباس زروق (806-889) وذكر شعرا للغوث أبي
مدين (م 549 هـ) في حق أهل الله .

ومن أقوال الشعراء مما كان جاريا على الإلسن كقوله
« ونحن أناس بانسلامة نفرح » او مما وعته حافظته الواسعة.
وأورد في الأخير أشعارا مقتبسة في أهل الله ووصفهم . وأخص
هنا بالذكر من بين الشعراء صالح بن عبد القدوس لاشير الى
أنه طبق في نقله لشعر له النصيحة التي قدمها لابنائه في قوله
« وان لم يوجد الا من عنده علم ولا ترضى حالته فليؤخذ منه العلم
وتترك حالته » ، وان كان الامر يتعلق بالمتنسين فهو في غيرهم
أعم ، فهذا صالح بن عبد القدوس وان عرف بالزندقة وقتل
بسبب الاتهام بها فهو شاعر وناظم الامثال . فتمثل بشعر له في
هذا الباب ، وهو قوله :

وتتخلل أسلوب الوصية بعض الافادات والتعريفات التي تبعتها عن جوها وكأنها مقحمة . ولكن الاسلوب المشرق في الوصية يخفى كل نفور من وجودها هناك ؟ وهي مع ذلك لا تخلو من الفائدة .

فيقول عن الزاوية : انما هي لفظة محدثة ومعناها مركب من امرين :

1 - التفرغ لعبادة الله والانكماش في خلوة او ركن بيت او في مسجد للاشتغال بذكر الله والاقبال عليه قال : وبهذا والله أعلم سميت زاوية لان الركن يسمى الزاوية (17)

2 - اطعام الطعام وهو في عادة المتأخرين ويرجع معناه الى اكرام الضيف الى الصدقة . والحقيقة انه انما نبه على وظيفة الزاوية . وكان ذلك هو غرضه ومقصوده وهو ابعاد تطلع انفس اولاده اليها . حتى تتجنب خواطرهم التعلق بظاهرها وتبتعد هماتهم عن التشبث بالجزئيات المتعلقة باحوالها ونسيان حقيقتها ، لا التعريف اللغوي لها الا تراه يقول : « فمن تيسر له الاكرام مع التفرغ للعبادة جهد المستطاع فهو ذو زاوية ، اي زاوية والا فنفسه انما تطلب السمعة والمباهاة والتوسم في الدنيا » ؟

(17) انظر معاني الزاوية والشواهد الدالة على ذلك في Supplement au Dictionnaire Arabe Dozi ج 1 ص 615 - 616 .

ويقول عن بنى ساسان (18) : « لما مثل عرشهم وتضعض ملكهم خرج من بقيتهم من خرج من بلاد المسلمين (19) فكانوا إذا رأوهم وأحسنوا إليهم . فكانوا ينتسبون وربما تشبه بهم من يريد مثل ذلك ، ويقولون نحن من بنى ساسان يذكرن ما وقع عليهم من البلاء . وما هم غيه من سوء الحال مع ما مضى لهم من العزة والنعمة فترق لهم القلوب فجرى الناس على ذلك حتى قيل المسائل مطلقا ساسان وربما اسقطوا النون فقالوا ساس كما هو اليوم » .

(18) قوم من العيارين والشطار لهم حيل وضعوا بينهم لفة اخترعوها . ونظم فيها أبو دلف قصيدة طويلة ، وكان الصاحب يتحاور معه بذلك اللسان ويعجب بحفظه . وهي قصيدة بديعة مذكورة في اليتيمة . شفاء الغليل . شهاب الدين الخفاجي ص 109 ، ط 1 (1325 هـ) . انظر نبذة من هذه القصيدة وشرح الفاظها في يتيمة الدهر للشعالبي ج 3 ص 358 - 377 .

(19) ذكر في المصادر الفارسية ان ساسان بن بهمن بن اسفنديار جد الدولة الساسانية قد خرج اول امره سائحا بلباس الدراويش . وتذكر لذلك أسباب متعددة . واجتمع حوله جمع من الدراويش لا يستقرون في مكان ولا يتخذون وطنا لهم . واهذا سمي الدراويش عموما والمتسولون خصوصا بـ الساسانيان والساسسي . وفي المصادر العربية ذكر في شرح « آل ساسان » في المقامة الحلوانية للحريري ان ساسان لما صرف عنه الملك الى اخته هماى اشترى غنما وذهب بها الى الجبال ولذلك عير بـ « ساسان الراعي » ثم نسب اليه كل من تكدى او باشر امرا حقيرا من العمى والعور والمشعوذين والكلابين والقرادين وامثالهم ، وان لم يكونوا من اولاده . وهم جمع وجم غفير واجناس لا مؤتلفه وانواع مختلفة . شرح مقامات الحريري . ط . باريس 1847 ، ج 1 ص 23 - 24 .

ثم عرف الكدية تعريفا لغويا وقابل بين ذلك وبين مرجعها وهو حرفة بنى ساسان فقال انها : « ما خوذة من قولهم حفر الحفار فأكدى اذا انتهى في حفرة الى كدية تصعب (20) فقليل المسائل مكد لانه يلح في السؤال ولا محالة ينتهى الى التكلف اما البخل والمنع واما المشقة . واشتهرت الكدية حتى صارت حرفة لا قوام يعيشون بها ويتألفون عليها ويتحزبون ويتواصلون ويتعاطون فيها اداب وحيللا ويتوارثونها » .

وتجب الاشارة في الاخير حول أسلوب هذه الرسالة أن موضوعها جعلها تختص وتقسم الى مقاطع تفصل بينها كلمات هي « اوصى » او « اوصيهم » او (حذار) مفردة او مكررة « حذار حذار » وذلك ما لا يوجد بهذا الترتيب ، والشكل والقصد في غير هذه الرسالة.

(20) كدى : الكدية صلابة فى الارض ، يقال حفر فأكدى اذا وصل الى كدية واستعير ذلك للطالب المخفق والمعطي المقل ، قال تعالى : « اعطى قليلا واكدى مفردات الراغب الاصفهاني ص 444 ، ط. دار الفكر .

الكدية : بالضم شدة الدهر كالكدية والارض الغليظة والصفاء العظيمة الشديدة والشيء الصلب بين الحجارة والطين وما جمع من طعام وشراب فجعل كثبة كالكدية والكداة وحفر فأكدى صادفها . وسأله فأكدى وجده مثلها واكدى نجل او قل خيريه او قلل عطائه كدى كرمى . القاموس ج 4 ص 1382 .

3 - أما الغاية :

لا شك ان الغاية التي دفعت اليوسى الى كتابة رسالته هاته هي التي صرح بها في بداية وصيته . ولكننا نلاحظ خلال هذه الرسالة غايات أخرى تطفو حيناً على سطح الكلمات وتغور حيناً في سرها . فهو ما ان بنا بالوصية لاولاده وللتأكيد عليهم في الرزق الحلال واللحمة الطيبة حتى يقف الوقفات الطويلة عند بعض الاغراض التي يهيمه أمرها . فمن ذلك قضية العشار التي اراد ان يخصص لها تصنيفاً ، ومن ذلك قضية الكسب وأحوال الناس فيه تلك التي ظهر عليه في تحليلها غاية الفزع ، وأسهب في ذكر جزئياتها ، ومن ذلك امره هو بعد الموت وهي غاية فريدة ، ولكنه كان يرى من وراء كل هذا وسيلة امتداد تلك الامانة الروحية التي استمدها من شيوخه واستمرار وجودها وفعاليتها ذلك هو في « الزاوية فان كان قد قدم الوصية للاولاد فقد بادر الى امر اقامة الزاوية واختيار المتولى وسيرته .

فلو نظرنا الى الحالة المضطربة التي عاشها في حياته دائم التنقل من مدينة الى مدينة ومن قرية الى قرية متباعدة عن بعضها لا يكاد يستقر حتى يؤمر بالرحيل . الى أن خرج من فاس وهي محاصرة سنة 1083 هـ عازماً على الاقامة في خلفون حيث أسس الزاوية هناك وتعهدها ورعاها الى ان أمر من جديد بالرحيل عن خلفون سنة 1085 وظل بعيداً عن ذلك الامل الذي غرسه هناك خمس سنوات حتى اذا سمح له بالعودة سنة 1090 لم يلبث الا قليلاً وغادرها مرة أخرى . وهكذا استمر

بعده عن خلفون رغم ما بدى من حرите في التنقل منذ سنة 1098 واستمرت مع ذلك أسفاره وتنقلاته الى ان توفي سنة 1102 (21) . ويمكن ان نستنتج من هذا ان الزاوية التي أنشأها سنة 1083 كانت مزدهرة وانها بقيت قائمة الى وفاته كما يدل عليه ما وصف من احوالها في الوصية .

ولكن يحق أن نتساءل متى كتبت هذه الرسالة لتأكيد هذا المرمى ، ونكتفى أمام فقدان دليل قوي على تحديد هذا التاريخ بالقول بأنه لم يطلع على تفاصيل هذه الوصية الا بعد وفاة اليوسى او على الاقل حين الوفاة كما يوجب امر الوصية . ولذلك فنفترض أن الاشياء والاحوال كانت ما تزال كما وصفها في وصيته .

ان أهمية هذه الرسالة بالغة لانها تتحدث عن مرحلة استقرار - مهما كانت قصيرة - في حياة اليوسى ، مرحلة آماله في الحياة بل هي أمله بعد الموت وهي آخر ما أراد أن يكتبه وأن يؤخذ عنه . حاول ان يجمع فيها غاية ما يرجوه لنفسه ولاولاده وللزاوية بعده .

وأهميتها بعد هذا في أنها عرفتنا على بعض أحواله وآرائه وأحوال الزاوية ومعناها ومبناها في عهده

(21) انظر حول حياة اليوسى في هذه المرحلة . رسائل ابى على اليوسى - فاطمة خليل القبلي وما ذكر هناك من المصادر والمراجع حول هذا الموضوع .

ففيها عن احواله « أنه ينحدر من أسلاف عامة كانوا يعيشون بما رزقهم الله تعالى قانعين به ويخوضون في الاسباب الشرعية غير مصفين لاحد » .

وكان اليوسنى كثيرا ما يتمنى أحوالهم هذه التي ذكر . بل كان يعتبر نفسه فقيرا لا يرى فيما بيده من مال الا انه في سبيل الله .

وكان اليوسنى يداوم تلاوة القرآن والنظر فيه والتفقه في دين الله » .

وفي حديثه عن النساء الحرائر ما يدل على أنه كان متزوجا بأكثر من امرأة حرة وانه كانت له نساء غير حرائر .

— محبته الكاملة لشيوخه وتعلقه التام بهم يبدو فيما كان يعتز به ويحتفظ به لنفسه من ازار شيخه وردائه مع قطعة أخرى من كفنه وخرقة من لباس الشيخ سيدي عبد الله بن حسين وأخرى من لباس سيدي أحمد بن أبى القاسم الصومعى .
« وغير ذلك مما هو عندنا مخزون للبركة » .

— ضبطه أمور مكتبته بالتقيد عليها وحرصه الشديد عليها وصيانتها واختصاصها بفقرة في وصيته .

وفيهما عن آرائه

فيما يصرف فيه الرزق . قال : اما الطيب فليجعله (المتولى) لنفسه في مطعمه وملبسه ومرافقه كلها ان وسع ذلك والا فليجعله لبطنه وهو اولى فيما نرى وان كان في ذلك اختلاف بين الصوفية . وأما الباقي فليختر منه لعياله وما يلزمه وليجعل الباقي في سبيل الله فان قويت الشبهة فلا يخالطها ان اضطر الى امساكها لعارض ما فليدفعها من خارج فيما يليق به ولا يدخلها زاويته كان يضطر مثلا الى الاخذ من ارباب الدولة لوجود مقتضى فليدفع ذلك في أهل البيت او العلماء ان كان لهم حظا وافرا في ذلك .

— ما تجعله القبائل والعشار فهو غالبا مشتببه لاختلاف المكاسب واختلاف النيات ولولا خوف انسداد أبواب المصالح على الناس لما كان ينبغي قبوله أصلا .

ويقول عن الزكاة :

فليس لنا مال وانما نحن فقراء نعيش في فضل الله تعالى ولولا النظر الى ظاهر الشرع لما أخرجنا زكاة حب ولا ماشية ولا غير ذلك ان كان لان الكل ملك الله تعالى ولا ملك لنا . ولكن خوطبنا بحكم الحوز .

وفيهما عن الزاوية :

فهي ، في عهده ذات مهمتين الاولى : التفرغ لعبادة الله ،
الثانية اطعام الطعام ، والذي يقوم على أمور لها هو «المتولى»
أما الذين يعمرونها فهم الفقراء والمنتسبون والمتدينون وأهل
الله

وللزاوية متطلعات تابعة لها هي :

دار ، بساتين ، كتب . ويذكر بتفصيل كيفية الاستفادة
من الكتب ، فنعلم ان منها العارية ومنها الوديعة ومنها ما هو
ملك له بالشراء او العطية ، وبعد ان يحبس الانتفاع بما هو ملك
له على ابنائه ما تناسلوا ، وينتفع معهم من كان معهم من
طلبة العلم باعارة من الاولاد وترد . ويفصل في ذلك بكل دقة ،
فيقول ولا تخرج الكتب عن وضعها خوف التلف كمن يفتح الكتاب
كثيرا عند النظر ويأخذه ويده غير نظيفة أو ينعس عند النظر فيقع
الكتاب من يده او يقع عليه الزيت من المصباح أو يطرحه في
محل يناله فيه الندى أو القطر أو الفار أو العبرة الكثيرة ونحو
ذلك .



هذه هي وصية اليوسى الى ابنائه كما رسمها الاعجاب في
خواطري . وأدع القاريء يتمعن في نصها بنفسه عسى أن يكون
لهذا الاعجاب ما يؤكد في أنفس الذين يعرفون الشيخ العارف

الاديب اليوسى والذين لا يعرفونه . وقد كنت اريد نشرها
اعتمادا على النسخة الجيدة التى اشرت اليها فى مطلع هذا
البحث وهى ملك للاستاذ محمد حماد الصقلى ، ولكنى وجدت
أن الاستاذة غاطمة خليل القبلى فى العمل الجامعى الجيد الذى
انجزت حول رسائل اليوسى (22) قد اعتمدت فى تحقيقها
لوصية اليوسى لابنائها على هذه النسخة .

* * *

وهذا هو نص رسالة وصية اليوسى لاولاده :
الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا
محمد خاتم النبيئين وعلى آله وصحبه أجمعين ، اما بعد ،
فيقول العبد الفقير ، المسىء الى نفسه المرتجى عفو الله
تعالى بفضله وكرمه ، الحسن بن مسعود شاهدا لله تعالى
بالربوبية ، وحده لا شريك له ، ولنبيه محمد صلى الله عليه
وسلم بالرسالة الاصطفائية ، انى اوصى اولادى خصوصا
وجميع الاخوان عموما بتقوى الله والتسليم لامر الله ، والاقتراء
بكتاب الله ، على ما فسر العلماء بالله ، وأهل الفهم عن الله ،
والفقهاء باحكام الله ، أن يحافظوا على سنة رسول الله صلى
الله عليه وسلم ويعتقدوا كما قال امام الطائفة الجنيد رحمه
الله تعالى : « ان الطرق كلها مسدودة عن الخلق الا من اقتفاء
آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » وأوصيهم ان يتبعوا

(22) رسالة انيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد بن عبد الله
بكلية الآداب بفاس سنة 77 - 78 . تحت عنوان « رسائل ابي
الحسن بن مسعود اليوسى » .

الحق حيث كان ويجانبوا الهوى ، وان لا يتبعوا كل ناعق ، وان لا يجعلوا سوء الظن بعباد الله بضاعتهم ، بل يحسنوا الظن بعباد الله ، ولا يصحبوا الا من أطاع الله تعالى ، ولا يقلدوا دينهم الا من ثبتت استقامته ، وظهر أدبه مع الله تعالى ، وليعلموا ان حكمة الله تعالى وفضله غير مختص بشخص ولا طائفة ، ولا نسبة ولا بلاد ، بل يختص برحمته من يشاء ، ومملكته واسعة ، وفضله مبذول ، والعبيد كلهم على بابه ، متعرضون لمائدته ، وهى ألوان لا نحصيها وكل قد اصاب منها بقدر القسمة . والسعيد من صادف لونا ينتفع به فى الآجال ، والتسليم جنة ، والنصيحة بآدابها عمود الدين . وأوصيهم أن يتراحموا ويتعاونوا على البر والتقوى ، وأن لا يتدابروا ولا يتباغضوا ، ولا يتحاسدوا ، وأن يكتبوا عباد الله اخوانا كما أمرهم ، وأوصى الاخوان خصوصا أن يراعوا فى أولادى عهد الاخوة والمحبة ، فان « حسن العهد من الايمان » وأن لا يواطئوهم على الهوى ، « فان الدين النصيحة » ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأوصى اولادى أن يقدموا فى أمورهم الاكبر فالاكبر ، اقامة لادب الشرع ، ما لم تظهر خصوصية من الله تعالى وفضيلة فى الاصغر توجب تقديمه ، فعند ظهور الفضيلة لا يبقى للسن اعتبار ، الا مجرد التوقير والاحترام فلا بد منه وليجتهدوا فى طاعة الله تعالى والاحسان الى عباد الله واطعام الطعام ، وافشاء السلام وغض الابصار عن عيوب الناس والصبر على جفاء الجفاة ، الى غير ذلك من مكارم الاخلاق التى يجدونها فى الكتاب والسنة وأقوال الحكماء . ثم لينظروا بعقولهم

في صنع الله تعالى بهم ، فان رأوا ان الله تعالى قد أقام الزاوية على أيديهم جملة بوجود انجلاب الارزاق ، وتيسر اطعام الطعام ، ووجود التصرف ، فليحمدوا الله تعالى كثيرا في تيسر ذلك ، وجعله سببا للخير لا مكرا ، وليبرأوا من الحول والقوة ، والمساكين واهل النسبة ، ليس لهم حول ولا قوة ولا ملك ، وانما وليعتقدوا أنفسهم عبيد الله تعالى ، مسخرين في خدمة الفقراء الله تعالى يجمع أرزاقا في ذلك المكان ، ويطعمهم اياها ، وليشكروا الله تعالى ان كان ذلك على أيديهم ، وليأكلوا من ذلك بقدر الحاجة معتقدين أنهم في ذلك والواردين سواء ، فهم عبيد يطعمهم مولاهم ، ولا مزية لاحد على التحقيق ، بل يعتقدون أنهم في بركة الواردين (يعيشون) . وليتحروا الحلال جهدهم ، ويجتهدوا في اصلاح النيات في الاخذ والعطاء مكتفين بالله تعالى مستغنين به ، غم يأخذون عن الله ويدفعون الله تعالى . واذا نظروا بالحقيقة وجدوا أنفسهم مغزولين عن الامر ، لا مدخل لهم الا بحسب المظاهر الاكتسابية التي هي مناط الاحكام الشرعية ، والا فالله هو المتصرف قبضا ودفعاً « لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » . وان رأوا ان الله تعالى قد اقام ذلك على يد واحد منهم بخصوصه كبيرا او صغيرا ، فعلى الآخرين أن يسلموا له ولا ينازعوه بظواهرهم ولا ببواطنهم ، وليشكروا الله على أن جعل الامر فيهم ولم يخرج الخير عنهم .

وعليهم أن يجتهدوا في خدمته واعانتته قولا وفعلا . وعلى من جرى قلبك في يده ان يعرف نفسه ، ولا يغتر بما ظهر من المصلحة على يده ، ويعتقد أن ذلك دليل على ولايته وقربه من

زاويته كأن يضطر مثلا الى الاخذ من ارباب الدولة لوجود مقتض فليدفع ذلك في اهل البيت او العلماء فان لهم حظا وافرا في ذلك ، ما لم يكن ذلك عرضا معيناً لشخص فلا يقربه بوجه ، وان أخذه فليرده لربه لا غير . واحكام الشرع معلومة في هذا وغيره ، وقلما يوجد القسم الاول الا في شخص بعينه أو أشخاص يعرف مكسبهم ويعرف نياتهم في معاملة الله لوجهه لا غير . وقليل مثل هؤلاء .

وأما ما تجعله القبائل والعشار فهو غالبا لاختلاف المكاسب ، واختلاف النيات ، ولولا خوف انسداد ابواب المصالح على الناس لما كان ينبغي قبوله أصلا واحكام هذا الباب لا يسع هذه الوصية استيفاءها ، فان اوسع الله في العمر رجونا أن نفرد لذلك مصنفا ينتفع به ان شاء الله تعالى

وان وجد حاله على خلاف ذلك من الركون الى متاع الدنيا وقلة الاستقامة ، فليترك على نفسه وليعلم ان حاله حال مستدرج ممكور به ، ولكن لا ييأس من رحمة الله ، بل يرجع الى الله تعالى بغاية التضرع والالتجاء أن يتوب عليه ويجبر كسره ، ويصلح حاله ولا يختار في ذلك العزل عن تلك المصلحة ، ولا بقاءها في يده ، فان الله تعالى قادر أن يصلح حاله ويبدل سيئه حسنا مع بقاءه فيها . وهو على كل شيء قدير لا اله الا هو . اللهم الا ان يتبين له ببصيرته أن فساد حاله بمجرى عادة الله انما هو بتلك الخلطة ، فليهرب عنها قياما بالاسباب الشرعية .

ومتى استقامت الزاوية فليصرف فيها جميع ما كان من الصدقات في ايدينا من اليوم ، وما لم يزل في ايدي الناس فكان ذلك في سبيل الله ، لا يحل لاحد أن يأخذه ان شاء بتملكه لنفسه ، ولا يذخره لنفسه ولا لعياله ، وانما ذلك مرصد للانفاق في سبيل الله ، وما خزن منه الى وقت ما فانما يخزن لذلك ، وليس لنا منه ولا لعيالنا واولادنا الا ان نصيب منه حاجتنا (من غير) تمول ولا تكاثر ، فليس لنا مال وانما نحن فقراء نعيش في فضل الله تعالى . ولولا النظر الى ظاهر الشرع لما أخرجنا زكاة حب ولا ماشية ولا غير ذلك — ان كان — لان الكل ملك لله تعالى ولا ملك لنا ، ولكنا خوطبنا بحكم الحوز والله المستعان .

وان رأوا (ان) الزاوية لم تستقم لهم ولا لاحد ، فليسلموا الامر الى الله تعالى ، وليعلموا أن الخير فيما اختار الله لهم ، فان العبد غدا مسؤول عن كل مال مم اكتسبه وفيم انفقته ، ومسؤول عن كل متعلق ووارد ماذا قضى في حقه ، ومن أنجاه الله تعالى وليثق بحسن اختيار الله تعالى .

وليعلموا ان الزاوية لا حقيقة لها شرعا ولا ذكر لها ، وانما لفظة محدثة ، ومعناها مركب من أمرين أحدهما : التفرغ لعبادة الله ، ويكون ذلك بالهرب من التشاغل بالدنيا وانسحاب المعاش ، والانكماش في خلوة او في ركن بيت او في مسجد للاشتغال بذكر الله والاقبال عليه ، وبهذا — والله اعلم — سميت زاوية لان الركن يسمى زاوية . الثاني : اطعام الطعام وهو في عادة

المتأخرين معناه الى اكرام الضيف . ففي الحديث : « من كان يومن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » والى الصدقة ففي الحديث « تصدقوا ولو بشق ثمرة » واذا كانت راجعة الى هذه الامور ، فالعبد مأمور بعبادة الله ، فليعبد ربه حيث كان ، ومأمور بالاحسان والصدقات ، واكرام الضيف متى تصدق بما وجد ، ولو بشق ثمرة ، واكرام ضيفه مما وجد ولو واحدا ، مع تفرغه لعبادة الله جهد الاستطاعة ، فهو ذو زاوية أي زاوية . ومن أقامه الله في مثل ذلك ولم يكتف به في قلبه وجعل يتحسر على غوات غير ذلك من كثرة الارزاق ، وكثرة الواردين ، فنفسه انما تتطلب السموات والمجاهة والتوسع في الدنيا فليستعد بالله من شرها .

فان زعمت نفسيه اني تسعر لما يفوته من كثرة الاجور فليعلم انه قد انجاه الله تعالى من كثرة الحقوق وما يلزمه من الحساب في تلك التخاليط هذه ، فنهضنا بآنايس باسلامة نفرح « وليرجع الى الرضى بحيلنا لمختيار الله تعالى كما قلنا اولاً ، يعيش حميدا ويمت سعيدا ان شاء الله تعالى ، ثم لينظروا عند ذلك ، فان جاءهم الله تعالى بهارزاقهم فتيسرة بلا سبب من وجه طيب فليحمدوا الله تعالى وليشكروه كثيرا ، وليعبدوه بكثرة واصيلا ، وان لم تتيسر لهم الارزاق فليشتغلوا بالاسباب الشرعية التي لا يتدنسون فيها بعار شرعا ولا عادة من اسباب الناس .

واحذر هم غاية التحذير من السبب الذي يتعاطاه أكثر ابنا

المنتسبين من تكبد الناس والطمع في أموالهم ، فانه العار والفقر الحاضر ، ولا سيما مع الطوفان على المحلات والقبائل فنعود بالله من هذه الحرفة .

وليعلموا ان العبيد في كدحهم وطلبهم اربعة : طالب لله تعالى ذلك بالاجتهاد في طاعته ، امثالاً لامره وقياماً بالادب بين يديه ، والتزاماً لاحكام العبودية مع المحبة له والاشتياق اليه ، راجياً ذلك محبته ورضاه وقربه ، فهذا خير العبيد عند الله تعالى وهم في هذا المعنى درجات منهم من يغيب عن الاكوان بمشاهدة المكون فيبقى مدله ، ومنهم من لا يغيب لمشاهدة الامرين مع القيام باحكام الحالين والمحافظة على آداب الجانبين وهم اقوي ، وهو مقام النبوة ، وقد يطلبون الجنة وما اعد الله فيها ويتعوذون من النار وما فيها اما امتنانا واما تأديبا مع الله تعالى في الاتصاف باوصاف العبيد من الفقر والحاجة الى مولاهم ، مع التأديب بقبول ما من به عليهم ، وتعظيم نعمته تعالى وغير ذلك . وطالب للآخرة وذلك بالاجتهاد في طاعته تعالى امثالاً لامره تعالى ، وطالبا لما اعد الله تعالى لعباده المطيعين من النعيم في الدار الكريمة ، وطالبا للنجاة مما اعد للعصاة من الجحيم فهذا اوسط الناس ، لم يصل الى درجات المقربين ، ولم ينحط الى درك المجرمين ، « فان لم يصبها وابل فطل » الا ان لم تكن ابل فمعرى .

وطالب الدنيا من ابوابها كالحرث والتجارة فهذا في أهل الدنيا لا عار عليه عندهم ، واما العار عليه عند أهل البصائر ،

حيث باع النفيس الباقي ، بالخسيس الفانى . وقد يقيم حدود الله فيكون من القسم الذى قبله . وقد يخوض فيها بيده فقط وقلبه مع الله قائما بالآداب الشرعية والحقيقة ، فيكون من قبيل الفريق الاول . وطالب للدنيا من غير ابوابها ، فان كان ذلك بنحو الاشتغال بالتدبير والتقصيل والبحث ، فهو حمق منشؤه شدة الرغبة في الدنيا والحرص عليها ، والتشوف الى كثرتها ، والطمع في استعجالها مع الفوز بالراحة عن الكد في أسبابها ، والاغترار بما يسمع من نواذر من ظهر بشيء من ذلك في الدهور الماضية ، مع ولوع النفس بالامور الغرائب . وهى حرفة خسيصة صاحبها لا يفلح ولا يموت غالبا الا مملقا فقيرا من الدين والدنيا . الا ان يتداركه الله تعالى برحمته .

وان كان ذلك بالسؤال والتكفف فهو مهانة وسخافة وسقوط همة ، وصاحبها مع ما يعانى من التكلف واقتحام الشبهات ، وغير ذلك من القبائح الدينية والدنيوية ، مسقط لروءته مهين لنفسه وهو يظن أنه يكرمها . قيل : مر الاصمعى برجل يخدم في الزبل وهو يفشد :

واكرم نفسى اننى ان أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقال له الاصمعى : بأي شيء اكرمت نفسك ؟ أمثل هذا العمل ؟ فقال الرجل : نعم ، أكرمها بضونها عن سؤال السفلة امثالك . فمر الاصمعى يهرول . وكان من حكمة الله تعالى وابتلائه لابناء المتدينين أن الرجل يكون زاهدا في الدنيا فتتبعه

راغمة ، وتخدمه كما وقع في الخبر : « أخدم من خدمنى » او يقضى الله على يده مصلحة انفاقها محقا كان أو مبطلا ، وعلى كل حال فيجلبها الله اليه عفوا بلا سبب ولا تعب ، فيقوم اولاده فيجدون ذلك ، ويعيشون في اتساع الحال ويستحلون اقبال الدنيا واهلها ، وقد يسمعون ذلك ان لم يدركون ، فاذا مات والدهم ولم يصلح الله قلوبهم كما أصلح الله قلب أبيهم ، ولا أجرى مصلحة الانفاق على ايديهم ؟ كما اجراها على يد ابيهم قطع تلك الارزاق ، وذهب بتك الأرفاق ، وصرف قلوب الناس عنهم ، حكمة منه تعالى ، فحينئذ يغمون ، اذ لا صبر ولا زهد لهم فيما انصرف ولا وجود له ، اذ نقله الله تعالى الى باب آخر بحكمته ، فلم يبق لهم الا التشوف له وتحليهم بالشره والرغبة ، وتذكر ما كان قبل من النعيم ، والاسف على انقطاع ذلك ، ومنافسة من لم ينقطع على التعرض له وتتبع آثاره ، حتى يرتحلوا الى تلك الابواب التى كان يخرج منها الرزق فيقفوا فيها بعدما كان أهل تلك الابواب يقفون بابوابهم ، نعوذ بالله من انقلاب الحال ، فحاولوا استئزال ذلك بانواع من الحيل والشبهات بصور ما كان لآبائهم من الدين ، وصورة الفعل والدعاوي ، وهذا فيمن فيه بقية فكر وحياء ، واما غيره فلا تسال عنه .

ومما يوقعهم في هذه الورطات ، اتباع آبائهم فانهم اولاً يتبسطون اليهم بالسنة حداد من الخير ويقولون نحن خدامكم ونحن عبيدكم وليس عندنا الا متاعكم . ويظن المساكين ان ذلك حقيقة ، ويقبلون ايديهم وأرجلهم ويتمسحون بهم فيظن

المساكين انهم ورثوا حالة آبائهم صلاحاً وبركة واحتراماً . ولم ينظروا الى أنفسهم فيعرفوا ما هم عليه ، وربما رشحت اليهم صفة اولئك الاتباع بشيء من الرزق والاحسان مرة او مرتين ، فيظن المساكين انهم كذلك ، ويطمعون في المزيد ، حتى اذا ذاقوا تلك الحلاوة مات اولئك المراعون ، او بردت قرائحهم واستولى عليهم حب الدنيا والشح فيها ، فحينئذ يتجافون عن ذلك الاحسان فيبقى اولئك المساكين هداجين على ابوابهم ، ولا يخرجون اليهم الا قليلاً ، على انهم لو بقوا على الاحسان لم يكن ذلك الا سخافة لا يرضاها لنفسه ذو همة ، اذ لا يأتون بما لهم عفوا ابوابهم ، ويسألونهم أن يقبلوه كما كانوا يصنعون بآبائهم بل يبقون في بيوتهم حتى يقدمون عليهم سائلين متملقين ، والناس اليوم نفوسهم خسيصة وهمهم ساقطة ، وحب الدنيا مستول على قلوبهم ، وحطام الدنيا كبير في أعينهم لوجاءوا به الى الرجل وسألوه قبوله لتمنوه عليه ، فكيف اذا جاءهم ، وهذا أمر مشاهد منهم معروف ، وقد وقع لابناء الفقراء في توريطهم بهذه الورطة شبه ما وقع لأهل الكدية مرجع هذه الحرفة ، وذلك أن بنى ساسان لما ثل عرشهم وتضعع ملكهم ، وسلبوا الدنيا خرج من بقيتهم من خرج في بلاد المسلمين ، فكانوا اذا راوهم رحموهم واحسنوا اليهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « ارحموا عزيز قوم ذل » فكانوا ينتسبون ، وربما تشبه بهم من يريد مثل ذلك ، ويقولون نحن من بنى ساسان ويذكرون ما وقع عليهم من البلاد وما هم فيه من سوء الحال ، مع ما مضى لهم من العزة والنعمة ، فترق لهم القلوب فجرى الناس على

ذلك حتى قيل للسائل مطلقا ساسان ، وربما أسقطوا النون ، فقالوا ساس كما هو اليوم . وجرى أهل الكدية وهي مأخوذة من قولهم حفر الحفار فأكدى اذا انتهى في حفره الى كدية تصعب ، فقيل للسائل : مكد لانه يلح في السؤال ولا محالة ينتهى الى التكلف : اما البخل والمنع واما المشقة ، واشتهرت الكدية حتى صارت حرفة لاقوام يعيشون بها ويتألفون عليها ويتحزبون ويتواصون ، ويتعاطون فيها آدابا وحيلًا ويتوارثونها حتى انه من غرائب الامر ما ذكر حجة الاسلام الغزالي انه رب قوم منهم يكونون عميا فيعيشون فاذا ولدت لهم الاولاد أعموهم لتتفق لهم تلك الحرفة نعوذ بالله تعالى من البلاء ، وقد مثل العلامة الهمداني وابو محمد بكثير من حيلهم ووقائعهم على وجه التقدير ، وهي كذلك تقع ، ووقع ابناء الفقراء في نحو من ذلك نسال الله تعالى العصمة .

فأوصى اولادي أن يتجافوا عن تلك الطرقات (غاية التجافى) ويتعوذوا بالله سبحانه منها ، وقد كان اسلافنا وهم عامة ، يعيشون بما رزقهم الله تعالى ، قانعين به ، ويخوضون في الاسباب الشرعية ، غير متصنعين لاحد ، ولا متشوفين له ، ولا طامعين الا في الله حتى ماتوا ذوي عز ، وخلوص من دنس الطمع ، ومن حرفة ممن الناس ، وخفة ظهورهم من التبعات ، وكثير ما نتمى أحوالهم لولا ما من الله تعالى علينا به من تلاوة كتابه ومزيد التفقه في دينه ، نسال الله تعالى ان يكمل لنا هذه المنة بالتوفيق الى العمل الصالح ، والختم بالحسنى انه ذو الفضل العظيم ، ومن رزقه الله تعالى من اولادنا رزقا صالحا

واحسانه فليقبله كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما أتاك من هذا المال وانت غير متشوف ولا سائل فخذہ وتموله ، وما لا فلا تتبعه نفسك » « ومن لم يرزقه الله ذلك ، فلا يقحم نفسه في الممالك والمصائب ، ويرجع الى ما كان عليه أسلافه ، ولا عيب عليه في ذلك ، والغازي اذا لم يغنم فلا عيب عليه ، وانما العيب اذا تلف ما عنده ، ورجع بخفى حنين ، نسأل الله تعالى العافية .

وأما الدار الخلفونية فان أبقاهم تعالى فيها ورزقهم العافية وما يحتاجون فليقموا أو ليذكروا الله تعالى ففى الخبر من رزق من باب فليزمه « والا فارض الله واسعة والبلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأينما وجد الانسان دينه ورزقه فليقم » ، ثم المتولى يسكن فى الدار وعليه أن يأوي من معه من الاخوة ان وسعتهم والا فيلبن لهم حوله كسائر التعلقات والبساتين تنفق فى سبيل الله كذلك ويوكل منها بقدر الحاجة .

وأما الكتب ، فما كان منها عارية او وديعة فيرد الى ربه الا ان يأذن فى الانتفاع به فى المستقبل فينتفع به ، وان لم يوجد ربه حفظ له حتى يوجد ، وما كان منها ملكا لنا بشراء او عطية ، والغالب ان ذلك مكتوب عليه ، فهو كله حبس على اولادي ، لا يباع ولا يورث ملكا ولا يتصرف فيه بشيء من التصرفات غير الانتفاع به بالمطالعة والقراءة وغير ذلك فينتفع الاولاد ما تناسلوا ، وينتفع معهم من كان معهم من رحبتهم من طلبة العلم باعارة من الاولاد وترد ولا تخرج الكتب عن وضعها خوف التلف والضياع بل ولا تعار أصلا لمن لا يصونها كمن ليس

بمأمون على الهروب بها ، أو فسادها كمن يفتح الكتاب كثيرا عند النظر ويأخذه ويده غير نظيفة ، أو ينعس عند النظر فيقع الكتاب من يده أو يقع عليه الزيت من المصباح ، أو يطرحه في محل يناله فيه الندى أو القطر أو الفأر ، أو الغبرة الكثيرة أو نحو ذلك ، وكثير من الناس قليل التحفظ ، ولذلك يقال : آفة الكتب العارية . وما يقال من أن منع الكتب غلول فانما يصح عند وجود من هو أهل لأن يعطى ، والا فهو تضييع للكتب . وأما النساء الحرائر فيؤخذ من كل واحدة ما فضل من صداقها من ما في يدها ويجعل من مال الله ويترك لكل واحدة صداقها محسوباً بما فات منه عندها ثم من أحببت أن تصبر في الدار ، فهي من جملة الاولاد تأكل من مال الله وتلبس ما عاشت ومن أحببت أن تتزوج فلا يتعرض لها .

وأما ان توفاني الله تعالى فكفى هو ازار الشيخ وروداء مع قطعة أخرى من كفنه وذلك في المخزن معد (لذلك) ولا بأس أن يضاف الى ذلك على وجه التبرك خرقة من لباس الشيخ سيدي عبد الله بن حسين وأخرى من لباس سيدي أحمد بن أبي القاسم الصومعي وغير ذلك مما هو عندنا مخزون للبركة والله ينفعنا بالصالحين في الدارين آمين .

(واعود) فأوصي أيضا اولادي وسائر الاخوان بمجانبة خلطاء السوء فان الطباع تسرق من الطباع ، والمعاشرة لها اثر ظاهر في كل شيء ، ولذلك قيل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مقندي

وفي الخبر : « الجليس الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من جليس السوء » ، ويرجع جليس السوء الى ثلاثة : فاسد الطبع ، وفاسد الحس ، وفاسد العمل .

أما الاول فنعنى به كل من له خلق مذموم سواء جبل عليه أو اكتسبه ، فمن ذلك حب الدنيا فصاحبه يعتنى بالدنيا طلبا وذكرًا ، ويهتم بها ، فمن صاحبه يخشى عليه أن يجره الى ذلك أو شيء منه . وحيث الدنيا رأس كل خطيئة ، وهذا البلاء عام فاش في الناس الا من اخلصه الله تعالى وقليل ما هم ، فلا تكاد تلقى (الا) مهتما بها عطشان اليها لهفان عليها ، فليحذر اولادنا من مصاحبة العوام الذين عميت بصائرهم بحبها فلا مشهود لهم ولا محبوب ولا مطلوب غيرها ..

وليحذروا كذلك ن عوام الطلبة والفقراء المتعطشين اليها الذين يزينون لهم الملابس والمفارش والمأكول ، والمراكب والمساكن والمناكح ، وطلب الجاه والرياسة ، وربما جعلوا لذلك تأويلات فاسدة ، ونصبوا لهم شبحا واهية ، وادلة فاسدة . فصحبة هؤلاء والاصغاء الى ترهاتهم وأباطيلهم ، سم قاتل ، وهم شر من ابليس بكثير . ومن ذلك الكبر والتجبر ، وصاحبه هالك في الهالكين الا ان يتداركه الله تعالى برحمة منه ، ومن صاحبه مع ما يعانيه من خشونة أخلاقه دائر بين ان يسرق من طبعه ، فيكون مثله أو قريبا منه ، وبين أن يعيش معه في ذل ومهانة ، ويألف التذلل للمتجبرين ولا خير من شيء من ذلك .

ومن ذلك الحسد والحقد والبخل وسائر أخلاق السوء

وآفاتنا مشروحة في كتب الائمة فلا حاجة الى التطويل بها في هذه المجالة .

وأما الثاني ، فالمراد به الضعيف العقل القليل التمييز ولا خير في صحبته ، بل فيها غاية المضرة لانه يريد ان ينفع فيضر ، ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويقرب البعيد ، ويبعد القريب فيقع في مهاوي الغرر والهلاك ويجر الى حمقه ، ولذلك قال صالح ابن عبد القدوس :

ولان يعادي عاقلا خير له من أن يكون له صديق أحمق

وأما الثالث : فنريد به من لا يتق الله تعالى في أفعاله وأقواله كافرا ، أو مسلما فاسقا بارتكاب المنهيات ، والتقصير في المأمورات . وصحبته شر ومعصية ، لانا أمرنا بمجانبة أعداء الله وبغضهم لله ، ونهينا عن فعل الفواحش ، وعن تقريرها وذلك بمشاهدتها من غير نكر وهو حاصل الصحبة . ومن اضراب هؤلاء شخصان : احدهما المبتدع في الدين ظاهرا وباطنا ، فان البدع تستند الى تأويلات ، فيوشك أن يسرق عقل المصاحب بها ويرتكبها او امثالها ، نسأل الله تعالى العافية ، فالحذر ممن لا يحافظ على سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كانت عليه الجماعة ، ولا سيما الامر في هذا الزمان الذي قل فيه الخير وتقوسيت المعالم الشرعية ، والآثار النبوية ، وصارت السنة بين البدع كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود . وقد ابتدعت أمور ، فلما طال بها العهد وشاع العمل صارت سنة ثم الحقت بتلك الامور أمور ، فلما طال العهد بها أيضا صارت سنة وهكذا .

وقد غلبت العادات على العبادات حتى كادت تقضى عليها لولا ان الله تعالى يحفظ دينه في ايدي خواص عباده ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا وأولادنا وسائر احبتنا منهم انه ذو فضل عظيم. الثاني : من لا يضبط لسانه من الوقعية في الناس وهذا بلاء عظيم، ومع عظمه هو عام في الناس ، لا يكاد ينجو منه الا قليل ممن ورعه الله تعالى وحفظه . وقد ابتلى بها كثير ممن اتسم بالدين وصلحت أحواله في غير ذلك ، لنزوع النفس طبعاً الى أكل لحوم الناس ، والتفكه بأعراضهم واستلذاذ ذلك وخفته على اللسان ، فان النفس جبولة على حب الرفعة والشرف والفضيلة فتجری لاستنقاص الغير توها منها أنه يحصل بذلك غرضها بالنسبة ، والنفس ا لدنية مجبولة على الاستنقاص ، والناقص يقيس الناس بذراعه وهذه اشارة الى أسباب في الحكمة الالهية لن يسع الوقت تفصيلها . والحذر الحذر ممن يقع في الناس بكلمة او رمز او تلويح ولا يحجزه عنهم دين ولا مروءة ، ويكون اما باسكاته ان كان يقبل النصيح واما بالبعد عنه ، ولا بد في ذلك من تلاف وحسن تخلص ، والا فمن هكذا حاله ان رمت كفه عن الناس تركهم واخذ فيك والله تعالى المستعان .

ومن ابتلى بصحبة واحد من هؤلاء في وقت لضرورة ، فليحتفظ على دينه جهده ، كما قيل : خالط الناس ودينك لا تسلمه ، وليدراً عن نفسه وعن دينه ، وليلجأ الى الله تعالى في التخلص من الورطة.

وقد لا يمكن التخلص عادة او لا يليق كالزوجات ،

والسراري مع « ان النساء ناقصات عقل ودين » ، والعبيد وسائر الخدام ، وكل من يعين على معاش او شيء من المنافع الدنيوية ، فليس الا التحفظ والمجانبة ما أمكن . ولذلك قيل صاحب لدينك وصاحب لدنياك ، وصاحب لآخرتك وصاحب للتانس وهي مسروحة في كلام الشيخ زروق وغيره . اوصيهم بمعاشرة أهل الخير ومجالسة أهل الفقه والحكمة من العلماء العاملين الصالحين . والاقتباس من أنوارهم مع غاية المحبة لهم والاكرام اليهم والتأدب بين أيديهم ، وان لم يوجد الا من عنده علم ولا ترضى حالته ، فليؤخذ منه العلم ، وتترك حالته ولا بد أيضا من توقيره واکرامه ومحبته باعتبار العلم ، اذ ادنى أحواله ان يكون كصندوق محشو بكتب العلم ، ومعلوم ان هذا الصندوق لا ينبذ في المزبلة ، ولا يمشى بالنعال عليه ، ولا يمتن بل يحترم غاية ، ويحب ما فيه . فكيف بمن جمع الاحتواء على العلم بالايمان والاسلام مع ما وفقه الله اليه من الدين ، والاعتراف بالتقصير فيما بقى . وهذا خير كثير ، بل كل من اتسم باسم عالم او فقيه ينبغي أن يراعى له من الاحترام والاکرام ما يليق بحق النسبة والاسم ، ومن كثر سواد قوم فهو منهم ، والنسبة لها حق :

رأى المجنون في البعداء كلبا فجر له من الاحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه وقالوا لم نلت الكلب ذيلا
فقال دعوا الملامة ان عيني رأته مرة في حى ليلى

وكذلك من لتسم بالفقر والانتساب الى الجانب الربانى
تراعى له حرمة الاسم والا نتساب ، فيحترم ويكرم ويظن
به الخير ، ثم ان صحت استقامته او ظهرت مع ذلك كرامته
فهو كنز مظفور به ، وان ستره الله فهو الى الله والحمد لله
على الستر ، وان ظهر منه ما ينكر فهو بحال التماس المعافير ،
والانكار بمقتضى الشريعة على وجه النصيحة مع قيام حسن
الظن والاحترام بالقلب . وحذار حذار من الاحتقار والوقية
بالشهوات ، فان الله تعالى يغار للمنتسبين لجانبه وان كانوا
على سوء يعاقب من تعرض لهم بمجرد الهوى ، ولذلك أسباب
وأسرار يطول تفصيلها : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان
تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم » .

وحب الجانب على الجملة وتعظيمه والميل اليه لا بد
منه لكل موفق . وكل قلب ليس فيه تعظيم جناب الله ومن
انتسب اليه على الجملة ومحبة ذلك فهو خرب ، فان ابتلى مع
ذلك بالغموس فيه او الوقية فهو الهالك

وحذار حذار من صحبة الناقصى الهمم منهم ، والجوالين
على بطونهم والمالطين على الحظوظ النفسانية كائنة ما كانت ،
ومن أظفره الله تعالى باهل الهمم العلية المتخلين على الفانى ،
المقيمين على ما يعينهم فليصحب وليقر عينا بهم ، ويحمد الله
تعالى على الكثر والعلق النفيس ، فصحبة هؤلاء نعيم عاجل
وفلاح آجل وفي حقهم يقول القطب الجامع الغوث أبو مدين
رضى الله عنه :

ما لذة العيش الا صحبة الفقراء هم السلاطين والسادات والامراء

وقال آخر في وصفه :

له تحت قباب العز طائفة هم السلاطين في اطمار مسكنة
شعث مفارقهم غير ملايتهم هذى المكارم لاقعبان من لبن
(هذى المناقب لاثوبان من عدن
أخفاهم في رداء الفقر اجلالا
استعبدوا من ملوك الارض اقيالا
جروا على فلك الخضراء اذيالا
شييا بماء فعاد بعد ابوالا
خيطا قميصا فعاد بعد اسمالا)

وقال آخر :

عباد الله سادات كرام علامتهم نحول واصفرار
فهم للناس في الدنيا امان ابادوا صحبة الدنيا وقالوا
لهم في الخير ان لاح ابيعات
واخفاء واطمار رثات
من الامن والخوف وهم غيات
طلائك في شريعتنا ثلاث

وقال آخر :

رجال الله قد سعدوا وجازوا رجال طلقوا الدنيا ثلاثا
ولو جاز الرجوع لما استجازوا بدا علم النجاة فميزوه
ونالوا رحمة المولى وفازوا
يحركهم بدار وانحفاز

فبعض تشرق الامصار منه وبعض يستتار به المفاز
تميز كل ذي دين بدنيا وهم لهم بدينهم امتياز
وما عزوا بمخلوق ولكن لهم بالخالق الاحد اعتزاز
اردت لحاقهم فعجزت عنهم وجدت عن الاجازة اذ اجازوا
أتطمع باللحاق ولا نهوض وتفرح بالرحيل ولا جواز
وانت أخوهم نسبا ولكن طراز فوق ذاك ولا طراز
دع الدنيا فلسفت لها بند وهل تخفى الحقيقة والمجاز
(انتهى الى ربك المنتهى والحمد لله تعالى وكفى وسلام
على عباده الذين اصطفى . من خط شيخنا القدوة الامام نبراس
الهدى أقر الله طرفه برضاه في دار السلام وآونا واياه بجوار
خير الانام في دار الهنا والاكرام . تمت بحمد الله)

د : عبد اللطيف السعداني

فاس

أبو عليّ البوسيّ

هموم واهتمامات

عبد القادر زمامة

لاحقت شخصيات التاريخ في الدين والفكر والعلم والسياسة وغيرها من مجالات النشاط الانساني هموم واهتمامات خاصة بهم . جعلت حياتهم وكأنها طاقة متحركة موزعة المفعول والتأثير بين العمق والسطح . والذاتية والموضوعية . والشمول والخصوصية .

واذا حكمنا قانون الاستقرار العام في ظهور هذه الشخصيات على مسرح الحياة بطلقاتها الموزعة . وهمومها واهتماماتها المتنوعة . أيام المخاض الفكري والاجتماعي والسياسي من تاريخ الأمم والشعوب . فاننا نجد ظهور شخصية أبي عليّ البوسيّ على مسرح الحياة العلمية والفكرية والادبية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري (1040 هـ -

1102 هـ) ليس شاذاً عن قانون الاستقراء العام . الذي فرض علينا نفسه كلما وقفنا أمام ظهور الشخصيات موقف البحث والدرس والتحليل ...

فحياة هذا الرجل طلقة حركتها همومه النفسية واهتماماته الفكرية والعلمية والأدبية وغيرها . منذ بواكر الطفولة في مشارف نهر ملوية . حيث عرف هناك تلك الطبيعة الجغرافية القاسية . صيفا وشتاء . كما عرف هناك الحرمان من أحضان الأمومة وحنانها . الى أن ودع هذه الحياة وما فيها ومن فيها . وهو لا يكاد يصدق . والناس المشفقون عليه من حوله لا يكادون يصدقون أنه نجا من شبح الهموم المتلاحقة والاهتمامات المتتابة ... !

ولعل الرجل كان يختار - لو خير - أن يختصر سنين حياته . وهي سنون عادية في عدتها . أقرب الى القصر منها الى الطول . حيث انها لم تزد على الستين اقليلًا .. ! ولكنها - رغم قصرها - قدمت له في مسيرتها ألوانا من التناقض . وأنماطا من الناس ، وأنواعا من التجارب مارسها عن رضى تارة ، وعن سخط أخرى . ترفعه رافعة . وتخفضه خافضة .. !

فلو كانت حياة اليوسى حياة أديب . أو شاعر أو عالم مفكر . أو مرب صوفى . أو سياسى مناضل . أو ما شاء الله من أنماط عصره . لكانت - في الغالب - حياة محدودة النشاط . محدودة التقدير والاعتبار عند الأصدقاء والاعداء على السواء . ولكنها كلفت في واقع الامر - ولا سيما في عين معاصريه

وعن نفسيه من أهل العلم والادب والقصوف والسياسة — حياة رجل ضرب بسهم راجح وحظ راجح في ميادين شتى بعصامية وذكاء نادرين وتسنى له منذ بواكر شبابه أن يلبس شيوخ العلم . وشيوخ التربية . وأعلام السياسة . ويطلع على خبايا زوايا المغرب . وأسرار النحل والطرق المهتدية والضالة .. وأن يكون هدف وقبلة السياسة والحاكمين يستطلعون عند الملمات رأيهم وهواه . ويراقبون في السر والعلن حركاته وخطاه مع أنه ليس منهم في شيء .. !

وقد ركبت فيه المعاناة والتجربة والملابسة لهذه التناقضات مركبات نفسية شتى . ظهرت في سيرته وتصرفاته . وتصرف بعض معاصريه نحوه ..

والمركبات النفسية عادة تقلق الراحة . وتجلب الهموم . وتهدم الجسور بين الانسان ومعاصريه . وتضفي عليه حلة من الاحتراس المفرط . والانطواء والغموض .. !

وبطبيعة الحال يكون رد الفعل عند الآخرين متأثرا بمركباتهم أيضا فتختل اذ ذاك موازين الخير والشر . والنفع والضرر . وتفقّد الاشياء قيمتها والاحكام نزاهتها .

كل هذا ينبغي أن نجعله نصب أعيننا . ونحن نقدم امام قرائنا أبا علي اليوسي في همومه واهتماماته طيلة مراحل حياته الثلاث :

- مرحلة النشأة والحراسة المتنقلة .
- مرحلة الاستقرار في الزاوية الدلالية .
- مرحلة الابداء والمراقبة .

ولعله من المفيد أن نتذكر هنا أن كل مرحلة من مراحل حياة اليوسى الثلاث . دامت ما يقرب من عشرين سنة . الا أن عين التاريخ راقبته بدقة في المرحلة الثالثة . وسجل المؤرخون وسجل اليوسى أيضا عن هذه المرحلة ما لم تحظ به المرحلتان: الاولى والثانية ...

فالاضواء سلطت على اليوسى منذ طويت صفحة الدلائل وصفحة زاويتهم . وكان اليوسى اذ ذاك متكامل الشخصية . ما بين الاربعين والستين من عمره . وكانت الاحداث السياسية قد تمخضت في المغرب عن واقع جديد أخذ يفرض نفسه بجد واصرار بعد العهد بمثلها . في جميع الميادين ..

بعد هذا نتساءل . ما هي هموم اليوسى .. ؟ وما هي اهتماماته .. ؟ وكيف لاحقته في مراحل حياته الثلاث ؟

للإجابة عن هذه الاسئلة يجب أن نرافق اليوسى في رحلة حول نفسه . وحول ملابساتها وظروفها .

فمن مشارف نهر ملوية ذات الطبيعة القاسية حيث كانت تحل قبيلة (ءايت يوسى) قبل أن تلتقى بموطنها الجديد المعروف الآن بقسميها : ءايت يوسى كيكو . وءايت يوسى أمكلا .. نزل الحسن بن مسعود اليوسى وهو الى اليقاعة أقرب منه الى الشباب . تتقاسم خياله هواجس الصبا: وأحلام الفتوة. ومشاعر مفارقة بيئة حبيبة الى قلبه ولكنها أمية منعزلة محدودة النشاط. فقد فيها حنان الامومة . ولم يجد ما يعوض به ذلك الحنان في نفسه سوى الاقبال على طلب العلم في تلك البلاد الشاسعة

الاطراف التى سمع عن علمائها . وصلحائها . وزواياها . ومدارسها
الشيء الكثير . وكان يسميها مع بنى قومه : (بلاد القبلة) يعنى
بلاد الجنوب كما هو الاصطلاح فى الاندلس والمغرب ...

والمسافة التى تفصل مشارف ملوية فى المغرب الشرقى عن
بلاد القبلة مسافة طويلة متنوعة الطبيعة الجغرافية الى جانب
ما يخيم عليها اذ ذاك مع بقية أنحاء المغرب . من اضطراب
وتفكك وأهواء مختلفة . حول السيطرة والنفوذ وحول شيوخ
التربية وزواياهم . الذين استغلوا الفراغ السياسى المخيم على
البلاد فتسابقوا وتنافسوا واتفقوا واختلفوا .. !

وارتسمت فى ذهن الفتى الطالب اليوسى عدة علامات
للاستفهام وهو ينتقل من قرية الى أخرى . ومن قبيلة الى أخرى .
ومن زاوية الى أخرى . ومن شيخ الى شيخ آخر . ويسمع
العربية واللهجات المحلية ويشاهد أنماط الحياة . ومعرض
العادات والاصطلاحات والاخلاق ويقارن كل ذلك بما تركه عند
بنى قومه فى آيت يوسى بملوية .

وعرف الطالب فى هذه المرحلة من حياته وهو يطلب العلم :
بلاد درعة . وسوس . واقليم مراكش . واقليم سجلماسة كما
عرف قسما من بلاد دكالة . وقسما من بلاد الساحل ..

ودرس كتباً وعلوماً شتى على عدة شيوخ . وأعانتة الغربية
على ملازمة الدرس والاستفادة . كما أعانتة استقامته وقناعته
على كسب ثقة شيوخه وتقديرهم . وكان ظروف غربته واستقامته
وقناعته هيأته نفسياً وعقلياً ليتعرف كل ما أراد أن يعرفه عن

(بلاد القبلة) من معطيات بشرية وطبيعية وعلمية وما يسود كل ناحية منها من أفكار وانتماءات صوفية . وسياسية . زيادة على ما يظهر في مجتمعاتها من محاسن . ومبازل . وعلم . وجهل ، وصلاح . وفساد .. !

وبطبيعة ظروف الطالب الغريب الذكى اليقظ أن تتسع كل يوم آفاق تفكيره ومطامحه . كما تتسع آفاق همومه واهتماماته فمقد ربطته الكتب التي درسها أو طالعها . والشيوخ الذين زارهم على جهة التبرك أو التعلم . بعدد من شخصيات العلم والادب والتصوف . فالى جانب سييويه . وابن مالك . والحريري وابن أبي زيد القيرواني و خليل بن اسحق . والامام مالك . والبخاري ومسلم . عرف الجنيد . والسري السقطي . وطيفور ، وابن الفارض والغزالي وأبا مدين والشاذلي والمرسي . وأعلام التصوف المغربي . وأصبح مفهوم (العلم) في ذهن الطالب اليوسي لا يبتعد عن مفهوم (التصوف) كما أصبحت علوم (العربية) ملكة راسخة في ذهنه ولسانه وقلمه يتصرف في كلماتها وأمثالها . وشعرها . ونثرها . كيف يشاء ... !

وينبغي ألا يغيب عن أذهاننا ونحن نقوم برحلة حول نفس الطالب اليوسي وملايساتها وظروفها وهو يطلب العلم في (بلاد القبلة) أن نشير الى أن أهم الانتماءات الصوفية التي كانت منتشرة في بلاد القبلة كانت تمر عبر الزوايا الكبرى الشهيرة هناك في ذلك العصر . وهي :

— زاوية الجزولين بترروالت .

— زاوية الغازين بسجللمسة .

— زاوية الناصرين بتمامكروت .

ولكل زاوية من هذه الزوايا فروع ، وأنصار من الصوام
وأنخواص . وطابع تتميز به عن غيرها . وموقف صريح أوغامض
من الاوضاع القائمة في البلاد . والمخاض السياسي الذي تعانيه ..
الا أن الطالب اليوسى في هذه المرحلة من حياته كان رغم همومه
واهتماماته . بصدد (المعرفة) و (التربية) مع
(اقتباس الانوار) و (ملاقاته الاخيار والابرار) من
(شيوخ العلم) و (شيوخ التربية) على السواء . أو هكذا يخیل
الينا . ونحن ندرس ونبحث . بل اننا نستفيد من أحاديث
اليوسى وملاحظاته في كتبه ورسائله أنه كان يجد في بعض الزوايا
التي مر بها في بلاد القبلة أن شيخ العلم هو نفسه شيخ التربية
بها ... !

فرحلة اليوسى الى بلاد القبلة أو رحلاته على الاصح .
طبعت قلبه وفكره ولسانه وسلوكه بطابع الثقة بالنفس . وتصفية
القلب . وضبط السلوك . والحرص على المعرفة والتفان في
العيش بما تيسر . وربط العلم بالتربية . والعمل . والاخلاق
كما ان هذه الرحلة أو الرحلات جعلته يألف التردد على أضرحة
العدد الكبير من رجال الدين والصلاح والتصوف أينما حل
وارتحل . ويجعل ذلك عادته فيما استقبل من أيامه يوم قسام
برحلاته في شمال المغرب ..

وهناك نقطة نقف عندها في رحلة اليوسى الى بلاد القبلة
وكان يجب أن نقف . وهى تتعلق باتصال اليوسى بالجزوليين
السملالين أصحاب مدينة (ايلينغ) وقد كان لهم اذ ذاك من
النفوذ والقوة والجاه ما ساد عدة أقاليم في الساحل والصحراء .
ويذكر مترجمو اليوسى أن أبا حسون المعروف ببودميعة
السملالى أمر اليوسى أن ينزل بمدينة تارودانت ليلقى بها
دروسه . وينشر العلم بها .. واليوسى اذ ذاك ما يزال دون
العشرين من عمره ... !

وهذه النقطة من رحلة اليوسى الى بلاد القبلة التى أشار
اليها بعض مترجمى اليوسى نجد البعض الآخر من مترجميه لا
يكاد يشير اليها . وربما لا يعرف عنها شيئا .. : والمستغرب أن
اليوسى عند استعراض ذكرياته في بعض رسائله وكتبه يمر عليها
مر الكرام . ونحن نعلم أنه دخل مدينة (ايلينغ) ودرس بها . ومن
أشهر شيوخه بها عبد العزيز الرسموكى . وقد توجه اليوسى الى
شيخه هذا بعبارات التقدير والثناء كلما ذكره .. !

ولعل سكوت اليوسى (فيما رأينا من آثاره) المخطوطة
والمطبوعة لحد الآن . يرجع الى أنه كان يكتب ما نقرأ له من كتب
ورسائل . بعد طى صفحة (أبى حسون) وطى صفحة أعماله
ونفوذه في بلاد القبلة .. !

وبهذا نجد هموم اليوسى في هذه المرحلة من حياته ممتزجة
باهتماماته في تكوين شخصيته العلمية . عن طريق التنقل
والرحلة الى مدارس العلم التى لا تخلو من تربية صوفية .

وزوايا التصوف التي لا تخلو من حلقات علمية . وتلك ميزة
العصر ..

وحيثما كان اليوسى يرجع الى مسقط رأسه في ملوية ليزور
أهله وعشيرته كان يحز في نفسه ألا يجد عندهم ما كان يجده في
الأقاليم التي زارها في سوس ودرعة ومراكش ودكالة وبسلاط
الساحل من شيوخ وزوايا وحلقات العلم والتعليم ... ! وإنما
كان يجد عندهم في هذا الباب التردد جماعات وأفرادا التماسا
للبركة من أنوار (زاوية ميسور) التي يوجد بها ضريح الشيخ
بوطيب بن يحيى الميسوري . وقد سبق لليوسى أن زار هذه
الزاوية قبل رحلته الى بلاد القبلة ونوه بها وببركة أهلها ... ولهذا
نجد في كتبه ورسائله يذكرها ضمن مراكز الخير والبركة
المشهورة في المغرب كرباط شاكر . ورباط شالة . وضريح
الشيخ أبى يعزى وضريح الشيخ أبى سلهام وغيرها ...

وبانتقال اليوسى الى الزاوية الدلائية في حدود سنة
1060 هـ يدخل المرحلة الثانية من حياته حياة الاستقرار
وتكوين الأسرة ، والاشتغال بالتدريس وإكمال الدراسة العالية
على أعلام الزاوية ، والوافدين عليها من أقاليم المغرب .

وينبغي هنا أن نحدد بعض النقاط التي نتطرق بالدلائيين
وزاويتهم عند اتصال اليوسى بهم وإقامته بين أظهرهم ما
يقارب عشرين سنة ..

فاليوسى عندما وفد على الدلائيين إنما وفد على مدينة
الدلاء : مقر محمد الحاج بن محمد بن أبى بكر الدلائى ، أيام

أصبح له من النفوذ والقوة والسيطرة على عدة أقاليم مغربية ما هو مسطر في التاريخ ... ولم يند عليهم يوم كانوا في قرية : الدلاء ، مقر الشيخ المربي أبى بكر ابنه الشيخ المربي محمد بن أبى بكر ، واسم الزاوية الدلائية البكرية ، أطلق أولا على الزاوية التى أسسها الشيخ أبو بكر وتطورت خلال سبعين سنة الى أن أصبحت « قرية » ذات مرافق ومجتمع مستقر .. كما أطلق على « المدينة » التى أسسها محمد الحاج سنة 1048 هـ . وجعلها مقر حكمه ونفوذه وتطورت خلال ثلاثين سنة .. وبين الاولى والثانية مسافة تقدر باثنى عشر كلم ... وما تزال اطلال كل منهما قائمة الى الآن .

وقبيلة اليوسى تنتمى الى صنهاجة . وكانت ترتع في مشارف ملوية . وكذلك كانت : مجاط : قبيلة الدلائيين صنهاجية الانتماء ، تعيش في نفس المنطقة قبل أن يقع الانتقال الى أماكن أخرى تحت تأثير ضغط الظروف السياسية والمعاشية .

على أن اليوسى عند المحاجة والمجادلة بعد طى صفحة الدلائيين كان يقول ويكتب في رسائله انه ليس له في قضية الدلائيين « لا ناقة ولا جمل ... » وانما كان رجل علم وتربية يفيد ويستفيد

ويظهر ان اليوسى عرف اثناء مقامه عند الدلائيين كلا من « الدلاء » القديمة والمحدثة وتنقل بينهما اثناء ظروف وملابسات ربما كانت ظروف مضايقات وملابسات ناشئة عن خلاف وتنافس بينه وبين معاشريه من دلائيين ووافدين .

فنجده يقول في إحدى هذه الملائست والمظروف :

رحلت وقد نزلت على الدلاء وخلفت الحضيض الى العلاء
وخلفى عصابة يحرون غيبسى مغيب الغيث عن قوم ظماء
فقل لهم اذا ظمئوا استغيثوا ببصر لا يكدر بالدلاء
فواضح من هذه الابيات أنه انتقل حاملا هموما وأحزانا
من مدينة الدلاء : مدينة محمد الحاج الى قرية الدلاء القديمة.
والاولى في سفح الجبل ، بينما الثانية في أعلاه ولعله كان بهذا
الانتقال يحاول التخفيف عن نفسه من الهموم التى يحملها
والمتابع التى يتعرض لها عند الدلائيين .

وواضح ايضا من هذه الابيات ما يتجلى فيها من مركبات
اليوسنى النفسية ... فهو عند نفسه غيث ، والناس ظماء الى
هذا الغيث ، وهم عصابة يعلمون مقدار خسارتهم حينما
يفارقهم الغيث وهم ظماء ، فلا يسعهم الا ان يستغيثوا ببصر
زاخر ... يأخذون منه كفايتهم ، ولا يكدر صفوه كثرة « الدلاء »
التى يرسلونها لجذب ما به من خيرات لا ينضب معينها ، ولا
يغيض فيضها ...

واصطاد اليوسنى هذه التورية الواقعة بين علم المدينة
التى يعيش بها « الدلاء » وبين جمع كلمة دلو على « دلاء » ليصل
الى هذه الصورة التى تعيش فى خياله بين الآبار ،، ودلائها،
والبقاع وغيثها . وسيكبر اليوسنى هذه الصورة بأسلوب آخر
يوم يصل الى فلس ويعانى من بعض مفاسيه من أهلها ما

كان يعانيه من منافسيه في الدلاء ، وسيقول للآخرين ما قال
للأولين ... !!!

ومن حسن حظ اليوسى انه وجد في « الدلاء » مجتمعا
به من الاساتذة والشيوخ والطلبة والوافدين والكتب ما جعله
يستقر ويكون الاسرة ويستقبل البنين والبنات ويخطط لنفسه
مشاريعه في الكتابة والتأليف ومراسلة شيوخه في بلاد القبلة
ونظم الاشعار .

وكان اليوسى وهو في « الدلاء » عنصرا من عناصر
تقوية الصلة بين الناصريين والدلائيين فالشارب التربوية
تكاد تكون متحدة بين الزاويتين حيث انهما يستقيا ، من معين
الشاذلية ويربيان الانتصار تربوية صوفية قوامها التوبة والاعتنا
وممارسة الطاعات والمبرات ونوافل الخير .. وان اختلفا في
اتجاهات اخرى لا مجال لاثارتها الآن ..

واليوسى حينما مدح شيخه ومربيه أبا عبد الله ابن
ناصر بداليته الطويلة الشهيرة قال الناس في الدلاء وفي غير الدلاء
انه صنع بشيخه ابن ناصر ما صنعه أبى الفارض بشيخه أبى
العباس المرسى ...

والواقع ان الزاوية الناصرية تعتبر اليوسى ابنها البار ،
وخريجها المختار ، وهى التى احتفظت بمجموعة ثمينة من كتبه
ورسائله النادرة . ومن مجموعة هذه الرسائل

أطلعنا على كثير من هموم اليوسى واهتماماته في عدة مجالات علمية وأدبية وصوفية واجتماعية ...

وكانت الزاوية العياشية امتداد للزاوية الدلائية وبنيتها التي غذتها بلبانها . وكان اليوسى على اتصال مستمر بشيخها محمد بن أبى بكر العياشى : « الذي سبقه للاخذ عن الدلائيين » كما كان متصلا أيضا بابنه وخلفه أبى سالم العياشى الرحالة الشهير ...

وهكذا أبى الله الا ان يكون لليوسى حظ من اهتمام ورعاية وتقدير عند رجال الزوايا الثلاث . في حياته وبعد مماته كما أبى الا ان يجعل من اليوسى رجلا وفيا لاشياخه واصدقائه يثنى عليهم في كتبه ورسائله وأشعاره ويعترف لهم بما قدموه له من ألوان المبرة والاحسان .

وتترج حوادث الايام بابى على اليوسى قسرا في المرحلة الثالثة من حياته عندما طويت صفحة الدلائيين وكادت صفحة العياشين تطوى أيضا .

ولا ندخل في تفاصيل التاريخ وانتقال اليوسى الى فاس . ثم مراکش ، ومكناس ، وخلفون : على ضفاف نهر أم الربيع ، ورحلاته في تطوان وغيرها من أقاليم وجبال الشمال، وانما يعني ان نرافق اليوسى في همومه . واهتماماته المختلفة، وهو في مرحلة الأبعاد والمراقبة يعانى ما يعانى تحت أضواء كاشفة والحالة هذه وهو يريد الانطواء .

وقبل كل شيء ، ينبغي الا يغيب عن ذاكرتنا أن مركبات اليوسى النفسية في هذه المرحلة قد ظهرت بارزة للعيان وكان بالامكان لو خفت هذه المركبات ان يلاقى من الناس ضروبا أخرى من المعاملة والتعاشيش مغايرة لما لقيه .

فهموم اليوسى في فاس وما قيل عن أسبابها وخلفياتها ليست راجعة في الجوهر الا الى مركبات نفسية اصطدمت فيها مركبات بمركبات ، وحساسيات بحساسيات . وربما لم تكن القضية تعدو منافسة شخصية بين اليوسى وشخصية أخرى معينة معروفة لا اقل ولا اكثر ...

فلم تكن هناك هيئة ولا جماعة بل ولا حتى نزعة تقوم ضدا على اليوسى . وعلمه وفضله وأدبه ، وشخصيته المستقيمة باعتباره بدويا طارئا او غريبا مضطهدا ...

والدليل العملى على ذلك هو أن المؤلفات التى كتبت بفاس في عصر اليوسى وبعده تشيد باليوسى وتنشر فضائله وتتفنن تفننا غريبا في ذكر ترجمته وآثاره الشعرية والنثرية ويجتهد اصحابها في التقاط كل شاذة وفادة تتعلق بحياته وسيرته ومؤلفاته وتلامذته ..

وحول اليوسى نجد عددا من طلبة العلم والشخصيات المرموقة تجتمع لتشييد بفضله وتواسيه في غربته . وقد ذكر اليوسى نفسه هذه الشخصيات في خاتمة المحاضرات فلا معنى لتعدادها هنا . وييتسم الانسان ويستغرب عندما يرى ما يكتبه بعض المصلطين على الورق والمداد من ان اليوسى صادف في مدينة

فاس حربا شعواء ،، وو ،، مع ان القضية في اطارها الحقيقي عند التحليل المصق والنظرة المستوعبة لا تعدو ما ذكرناه .

واضطر اليوسى اليوسى - نزولا عند مركباته الى ان يقول بيتيه الشهيرين : - ما انصفت فاس ولا اعلامها ... - واضطر منافسه الى الاجابة عن هذين البيتين .. وانتهى الامر ، فأين هي الحرب الشعواء ؟ وأين ضحاياها والاشلاء ؟ وأين ما كتبه المتحاربان شعرا ونثرا ، واين التهم التى تبادلها الطرفان ؟

فالقضية جزئية تتكرر في كل زمان ومكان لكن المركبات أرادت ان تعممها وتجعل من اليوسى رجلا مضطهدا في فاس يتآمر أهل المدينة عليه بقضهم وقضيضهم ... !!

واذا تخطينا هذه القضية نجد اليوسى في محنة حقيقية مع نفسه ومع ظروفه الخاصة التى لم تهضم تحديات الواقع الذي كان اليوسى يود ان يكون واقعا مثاليا يتسم بالصفاء والجدية والوضوح طبقا للتربية التى عاش عليها والتى كان يؤمل أن يجد اصداؤها ونتائجها عند الناس ولا سيما اهل العلم والمعرفة والنفوس .

ومن هنا جاءت تلك الافكار وتلك القضايا التى طرحها اليوسى في رسائله وكتبه ، ولا سيما رسائله الى السلطان المولى اسماعيل ، وفصوله في المحاضرات عن اخلاق الناس وفسادها ، والمعاملات واضرارها ، والنفوس وادوائها .

وجاءت ظروف سياسية أخرى جعلت اليوسى — وهو يريد الانطواء والانزواء — لا يستقر فى مكان من البادية الا ونصح من طرف السلطة بالرجوع الى المدينة لينتفع الناس بعلمه ووعظه وارشاده وكتبه .. وقد عبر اليوسى عن همومه فى هذا الميدان نظما ونثرا .

على أن اليوسى رغم هذا كله كان يخلو الى نفسه فيكتب ويؤلف ويوضح اهتماماته العلمية فى عدة مؤلفات ورسائل ، نستطيع أن نجد فيها

- 1 — الاهتمام باللغة واللهجات ورد بعضها الى بعض
- 2 — الاهتمام بفضح الشعوذة والمشعوذين ولا سيما منهم ادعياء الصلاح كالعكاكرة وانصار المهدوية
- 3 — القضايا الاجتماعية فى البوادي والحوضر
- 4 — القضايا الدينية فى العادات والعبادات
- 5 — السلوك وقضايا التربية الصوفية .

ولا شك ان فى دراسة مؤلفات اليوسى ورسائله المخطوطة ما يزيدنا علما بهموم اليوسى واهتماماته ، الا اننا لا نودع الحديث عن هذا الموضوع دون ان نشير الى ذلك النص الغريب الذى رأيناه فى الرحلة المخطوطة المسماة « نسمة الآس فى حجة أبى العباس » وهى من تأليف الشيخ الرحال أبى العباس أحمد بن عبد القادر القادري الذى رافق شيخه المربى أحمد ابن

عبد الله معن الى الديار المقدسة . ولقى أبا علي اليوسى في الطريق ، وكان اليوسى يقدر الشيخ أحمد ابن عبد الله معن ويقدر مكانته في ميدان التربية بمدينة فاس . كما يقدر صديقه الشيخ أحمد اليميني وقد عقد معهما عهد الصفاء والمودة .

والنص الذي كتبه أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري في رحلة « نسمة الآس في حجة ابي العباس » يتعلق بعزم اليوسى على الإقامة بالمشرق .. بعد أداء مناسك الحج . وقد خلا اليوسى بالشيخ أحمد ابن عبد الله معن واستشاره في هذه القضية فأشار عليه برأيه فيها

ولا شك أن اليوسى قد فكر في الإقامة بالمشرق ، كما يقول صاحب الرحلة الا انه لم ينفذ فكرته ، اما لكون صديقه نهاه عن ذلك ، واما لكونه اقتنع عمليا بعدم جدوى هذه الإقامة هناك ،، لا سيما ونحن نعلم ان مركبات اليوسى حالت بينه وبين استجازة علماء المشرق ..

عبد القادر زمامة

فاس

اعتمدنا في تحرير هذا المقال على المصادر الآتية :

- طبقات الحضيكي
- فهرس الفهارس
- المحاضرات
- الزاوية الدلائلية
- رسائل اليوسى خ.ع. 302 .
- نسمة الآس خ.
- اليوسى ومشكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر

القولُ الفصلُ

في تمييز الخاصة عن الفصل**

د. التهامي الراجي الهاشمي

*** 1 - هذا مصنف من أجل مصنفات الشيخ الكبير ،
العلامة أبي علي اليوسي . ولكن ، رغم أهميته القصوى لم يحظ
بالعناية التي حظيت بها باقي مؤلفاته ، مثل : « نيل الاماني في

* سيرد شرح الخاصة في الحاشية رقم 11 .

** انظر البيان عن ذلك في الحاشية رقم 12

*** هذه الارقام العربية تشير في هذا البحث الى بداية تعليقاتي
التي اُهمد بها لكلام ابي علي اليوسي ، أما الحروف الابجدية
فأشير بها الى العناوين التي اضعها للفقرات . اضع كلا من
الارقام والحروف لتسهيل لحالة القارئ على ما اريد ان يعود اليه .

شرح التهانى « (1) و « زهرة الاكم في الامثال والحكم » (2) ،
و « القصيدة الدالية » (3) ، و « نفائس الدرر في حواشى
المختصر » (4) ، وغيرها كثير .

2 - ولا شك أن اهمال هذا الكتاب الجليل عائد الى أن
موضوعه في المنطق (5) ، وهى مادة صعبة ، لا بالنسبة لمعاصريه
الذين أهملوا هذا الفن اهمالا ما عليه من مزيد ، ولكن أيضا
بالنسبة للمحدثين الذين بهرهم ما ينتجه الغرب في هذا الباب ،
فهم عن كل ما خلف سلفهم الصالح من الاجداد غافلون .

3 - بدأ الكتاب بذكر السبب الذي دفع به الى تصنيفه
فأخبرنا أن مرد كتابته سؤال ورد عليه من بعض الاخوان ،
يتقدم اليه يستفسره عن قول المناطقة : ان الناطق جزء داخل

(1) يوجد من « نيل الامانى في شرح التهانى » ثلاث نسخ في الخزانة
العامة بالرباط ، هي 712 د و 1292 د و 1604 د . وهو شرح
رابع للقصيدة الدالية التى نظمها هو نفسه ، والذى توجد منها فى
نفس الخزانة للعلمة نسختان خطيتان .

(2) وهو كتاب نفيس للغاية يقوم بتحقيقه الآن الصديقان الدكتوران
محمد حجي ومحمد الاخضر غزال ، ومنه فى الخزانة العامة بالرباط
وحددها نسختان .

(3) توجد نسختان منها فى الخزانة العامة بالرباط ، واحدة منها تحمل
رقم 28 د .

(4) توجد منها بالخزانة العامة بالرباط اربع نسخ هي 2143 د و 451 د
و 623 د و 1072 د .

(5) كدت ان اقول « المنطق الرياضى » او « المنطق الرمزي » كما يسمى
هذا المنطق الفلاسفة المعاصرون .

في الماهية ، والضاحك لازم خارج عنها . فكان جوابه عن هذا السؤال شاملا جامعا مانعا ، الى درجة أنه صار — كما يقول هو نفسه : « جزء آ يحق أن يلقب : « القول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل » .

4 — وليست هذه الاحاطة الدقيقة للموضوع الشائك المادة ، هي وحدها التي جعلتني أحكم على الكتاب بأنه نفيس ، ولكن أيضا ، وعلى الخصوص ، حسن اختياره للمصطلحات الفلسفية الدقيقة التي ييرع في استعمالها ويجيد تفسيرها ، موافقا في اختيار الامثلة المعززة لتوضيحها .

5 — واذا كان من الصعب الآن تقديم النص الكامل لهذا الكتاب النفيس ، فلا أقل من أن أعطى الفقرات التي يقدم بها كتابه ونص السؤال الوارد عليه ، ثم مختارات متفرقة من جوابه عن هذا السؤال محاولا مقارنة النسختين الخطيتين اللتين رجعت اليهما (6) مركزا الكلام على المصطلحات التي ترد أثناء جواب الشيخ الكبير أبي على اليوسى .

1 — تقديم الكتاب

الحمد لله الواجب بذاته وصفاته ، المتعالى عن تخيلات الوهم وتصرفاته ، رب الملك والمالكوت ، وفائق الحدود والنعوت ،

(6) رجعت الى نسختين خطيتين مسجلتين بالخزانة العامة بالرباط تحت الرقمين 271 د و 1072 د ، أحجيت عن وصفها طلبا للاختصار .

أحمد على ما عرف من الوهم ، وأسأله الوقوف عند ما
حددورسم . وألجأ اليه في ستر الاعراض ، وقضاء الاغراض .
وأصلى وأسلم على نبينا محمد المؤيد بالحكمة وفصل الخطاب .
وعلى آله وصحبه خاصة الخاصة وأقطاب الاقطاب .

أما بعد ، فهذا جزء لطيف ، ومترع ان شاء الله شريف ،
أوضحت فيه فرق ما بين الذاتى (7) والعرضى (8) ، حتى كان
أحدهما سماوي والاخر أرضى (سببه) (9) سؤال بعض
الاخوان عن الفرق بين الناطق (10) في تعريف الانسان المجعول
ذاتيا وبين الضاحك المجعول عرضيا .

(7) سنلاحظ ان الشيخ ابى على اليوسى يدقق مصطلحاته المنطقية
ولذا سأحاول الوقوف عندها ، من بينها : الذاتى ، هو ما يختص
بالذات الفاعل ، وهو ما يعرف عند الغرب بـ Subjectif
أما الذاتية ، فهي في هذا الفن الذي يهمنا ، وهو المنطبق نظريتان :
(1) النظرية التى ترجع كل يقين الى التصديق الفردى . (2) النظرية
التي ترفض كل قيمة موضوعية عند التمييز بين الخطأ والصواب .

(8) العرضى : هو ما يعرف عند الغرب بـ accidental

(9) اجمل بين كلابين ما سقط من النسخة الخطية 1072 د .

(10) تستعمل هذه اللفظة في المنطق ويعنون بها « عقلى » Raisonnable
ومن هنا قالوا عقلانية لما وصفه الاوروبيون بـ Rationalisme
وهو مذهب يقول بان للعقل قدرة فطرية لها قوانين خاصة ،
بفضلها نستطيع ان نقيم المعرفة ، بقطع النظر عن التجربة الحسية
او الرجوع الى الوحى .

ب - تسمية الكتاب والاعتذار لعدم تحليته بالتمهيد السنخي يتصدر المؤلفات عادة .

فلما وقفت عليه انجر الكلام ، والحديث شجون ، الى أن صار جزءا يحق أن يلقب القول الفصل في تمييز الخاصة (11)

(11) أحسن تعريف لـ « الخاصة » الواردة في عنوان الكتاب هو التعريف الذي ذكره الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عرفة الورغمي التونسي المولود سنة 716 هجرية (1316 م) والمتوفى سنة 772 هـ (1401 م) في كتابه المسمى « المختصر في المنطق » قال : « فالكلى تمام ماهية افراده نوع وجزؤها جنس أو فصل وخارجا عنها خاصة أو عرض عام . والثاني يسمى ذاتيا . والشيخ قد يفسر الذاتى بما ليس بعرضى فالماهية عليه ذاتية . والذاتى جزء أو فصل لانه ان كان مقولا في جواب « ما هو ؟ » كان جنسا ، والا فان اقتص بالماهية كان فصلا لتمييزه الذاتى اياها . فان كان تمام مميزها بقريب ، والا فـ « فصل » ، فصل وان لم يختص بها ، امتنع كونه تمام مشترك بينها وبين ما يخالفها . والا كان مقولا عليها في جواب « ما هو ؟ » والفرض خلافه ، فوجب كونه جزءا من تمام المشترك لا مباينا له ولا اخص ، ولو من وجه لوجود المباين والاعم ، ولو من وجه دون مباينة واخصه ، وامتناع وجود الكل دون جزئه ولا اعم ، والا وجد دونه مشتركا بينها وبين ماهية ما . (انظر المختصر في المنطق لابن عرفة تحقيق وتقديم سعد غراب المطبعة المصرية بتونس بدون تاريخ الصفحتين 66 و 67) .

كما عرف الخاصة تعريفا دقيقا أبو عبد الله محمد بن نامور بن عبد الملك الخونجي المولود سنة 590 هجرية (1194 م) وتوفى بمصر سنة 646 هـ (1248 م) ، فقال : « . . . وان كان خارجا عنها فان حمل على ما تحت طبيعة واحدة فقط كان خاصة وأن حمل على غيرها أيضا كان عرضا عاما ، وكل واحد منهما إما غير شامل أو شامل مغارق أو لازم إما للوجود أو للماهية وذلك إما بغير وسط

عن الفصل (12) . ومن صدوره اتفاقا قد يفوته بعض ما هو شأن المصنفات من تمهيد وترصيف ، وفي جانب ما وقع بلا كبير رؤية ولا مراجعة للاصول (13) ، يفتقر له ما عسى أن

ان لم يفتقر العلم بالزوم الى ثالث وأما بوسط اذا افتقر اليه .
واذن فالخاصة هي صفة عرضية تميز النوع ، كالضحك بالنسبة
للإنسان ، ويطلق عليه الغرب *propriété*

(12) أعتقد أنه لا مفر من إيراد التعريف الذي عرف به هذا المصطلح
الشيخ الكبير أبو نصر الفارابي الذي قال : « والفصول المقومة
لنوع ما ، فانها تحمل على أشخاص ذلك النوع ، وكذلك المقومة
لجنس ما ، فانها تحمل على أنواع ذلك الجنس حملا مطلقا . وكذلك
كل جنسين كان أحدهما تحت الآخر ، فان الفصل المقوم للجنس
الذي هو أعلى يحمل على الجنس الذي هو أسفل حملا مطلقا . ولما
كان جميع ما يجاب به في جواب كيف الشيء ؟ يمكن أن يؤخذ على
جواب : أي شيء هو ؟ وكان الفصل يحمل من طريق كيف هو ؟
لزم أن تكون الفصول الذاتية للنوع تؤخذ في جواب المسألة عن ذلك
النوع بأي شيء هو ؟ وكذلك الفصول المقومة لجنس ما ، فانها
تؤخذ في جواب المسألة عن ذلك الجنس أي شيء هو ؟ وتلك حال
كل فصل مقوم ، فانه يؤخذ في التمييز بين ما يقوم وبين آخر
يشاركه في الجنس الذي هو أعلى منه . فلذلك صار الفصل يقال
فيه أنه هو المحمول على كلى من طريق أي شيء هو ؟ ، ويقال أنه
هو الذي يميز بين ما تحت جنس واحد بعينه ، ويقال أنه هو الذي
تختلف به الأشياء التي لا تختلف بالجنس . (انظر كتاب الالفاظ
المستعملة في المنطق لأبي نصر الفارابي تحقيق محسن مهدي صفحة
73 وما بعدها من طبعة بيروت سنة 1968) .

(13) ورغم أنه يقول أنه لم يراجع الاصول فانه سيستشهد ، في هذا
الكتاب بكثير من أقوال العلماء وسيشير الى مؤلفاتهم التي نقل
منها ، سأذكر هذا في نقطة قادمة .

يقع فيه من (سهو) (14) وتحريف . واليه المستعان ، وعليه
التكلان .

ج - السؤال الموجه للشيخ

نص السؤال :

سيدي رضى الله عنكم ، لا زلتم لايضاح ما أشكل ،
وايجاد ما أفل ، جوابكم عن مسألة ، وهى قول المناطقة :
« ان الناطق جزء داخل فى الماهية (15) والضاحك لازم خارج

(14) اجعل بين هالين ما سقط من النسخة 271 د كما جعلت بسين
كلايين ما سقط من النسخة 1072 د .

(15) فسر هذه اللفظة تفسيراً دقيقاً وبأمثلة الشيخ الكبير أبو نصر
الفارابى فى كتابه : « اللفاظ المستعملة فى المنطق » فى كلام طويل
ومفيد اقتطف منه قوله : « والامر الذى يستعمل فى افادة ما
يتعرف بمسألة « ما هو الشيء ؟ » هو احد امرين ، اما امر يدل
عليه بلفظ مفرد او امر يدل عليه بلفظ مركب . مثال ذلك قول
القاتل : « ما هذا الشيء ؟ » فلننزل أن المسؤول عنه كانت
نخلة — فان المجيب متى قال هذا الشيء هو نخلة فقد استعمل فى
افادته امر يدل عليه باسم مفرد . ومتى قال « شجرة ثمر الرطب »
فقد استعمل فى الجواب امراً يدل عليه بقول مركب . وبإي هذين
اجاب المجيب به فقد وفى السائل مطلوبه ، الا أن أحد الامرين يدل
على النخلة باسم مفرد ، والثانى يدل عليه بلفظ مركب . فالامر الذى
ينبغى أن يستعمل فى جواب : « ما هو الشيء ؟ » اذا كان يدل عليه
بلفظ مركب ، فانه يسمى ماهية الشيء ، ويسمى ايضا القول الدال
على ما هو الشيء أو على جوهر الشيء أو على انية الشيء ، أو

عنها ، ان كان اصطلاحا فلا بحث ، وان أرادوا أن مستنده العقل ، بحيث يمتنع غيره فلا نسلمه . اذ العقل لا يحكم الا بكونهما صفتين لازمتين له . وأما دخول واحدة دون أخرى ، ما أدركناه . ومما يؤيد اشكالنا كلام الشيخ المنجور (16) حيث جعل الحقائق كلها واحدة والاختلاف مجرد العرضيات فحسب . ومن جملتها الناطقية (17) ، ورد الشيخ القصار ان سلم . وضحه لنا سيدي ، اذ فهمنا في كلامه تدافعا ، وذلك لقصورنا . وغاية ما أدركت عقولنا ، أنها ، واحدة داخلية أو خارجة بالاعتبار . واستدل بعض [هم] على دخول الاول :

طبيعة الشيء ، ويسمى قول جوهر الشيء أيضا . يطلق الغربيون على ماهية المصطلح Essence . وهناك مذهب يعرف بـ l'Essencialisme وهو الذي يطلق عليه العرب المصطلح الماهوية وهو مذهب يقابله مذهب الوجود أو الوجودية . (وانظر كذلك التعليق رقم 62) .

(16) هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن ، المشهور بـ « المنجور » وهو فقيه مغربي مكناسي الاصل . قال صاحب صفوة من انتشار : « كان يقول : ان العلوم كلها نافعة ، حتى أنه تعلم لعبة الشطرنج وأتقنها » (ص 4) . ولد سنة 926 هجرية (1520 م) وتوفي بفاس سنة 995 هجرية (1587 م) . له « شرح المنهج المنتخب » ما زال مخطوطا وهو في الفقه المالكي ، و « مراقي المجد في آيات السعد » . وكتاب في العقائد يعرف بـ « حاشية على السنوسية الكبرى » .

(17) الناطقية ، لفظة صيغت على هيئة المصدر الصناعي ، والمصدر الصناعي ، كما هو معلوم ، مادة مهمة في العربية أفيد منها كثيرا في التوصل الى كثير من المصطلحات العلمية ، وسيفكر الشيخ أبو علي اليوسي عددا منها في هذا الكتاب .

أنا نتعقل الانسان بدون الضلحك ، فعلمنا أنه أمر زائد ، وهو باطل ، إذ لا فرق من جهة لزومها له . ولذلك نقول [أن] لو ركبت ماهية الانسان من الحيوان والضلحك لتعقل بدون الناطق . وكلن ما عداهما أمرا زائدا . وأيضا سيدي هل الناطق حيث جعلوه جزء الماهية ، باق على عرضيته ، أم لم يلاحظ فيه ذلك المعنى حيث قاسوه على السكنجيين أو أطلق على شيء (18) خاص في [الماهية] .

ومما يؤيد الاول اطلاقه على القوة المتفكرة ليدخل الآخرس ، فيتقوى الاشكال ، إذ لا مانع من أن يراد بالضاحك القوة المدركة للغرائب فيكونان داخلين معا أو خارجين ، وتخصيص أحدهما دون الآخر تحكم . وقد أجبنا سيدي بكلام القرافي (19) : ان العرب وضعت الحيوان الناطق للانسان وفهم منهم ذلك . وقد علمت أن الفن للحكماء وليس موفوقا على

(18) تبدأ هنا اللوحة 89 من النسخة 271 د .

(19) لا شك أن القرافي الذي يقصده صاحب السؤال هو أحمد بن إدريس ابن عبد الرحمن أبو العباس الصنهاجي القرافي المتوفى بالقاهرة سنة 684 هـ (1285 م) لأنه هو الذي يمكن أن يخوض في مثل هذه المسائل المشار إليها في السؤال نظرا لاهتمامه بفن الأصول . له في هذا الفرع : « اتوبار البروق في أنواء الفروق » و « الاحكام في تمييز الفتاوي عن الاحكام وتصرف القاضي والإمام » وهما مطبوعان معا . وله أيضا في هذا الفن « شرح تنقيح الفصول » و « مختصر تنقيح الفصول » و « الأجوبة الفاخرة في الرد على الاسئلة العاجزة » وكلها مطبوعة ، وله غيرها من المصنفات بعضها ما زال مخطوطا مثل « الفخيرة » في فقه المالكية .

الوضع في شيء . وهذا ما سولته أوهامنا ، وأدعنت اليه
عقولنا ، فانظر سيدي ما ظهر ، والسلام الاثم ورحمة
الله وبركاته . »

د - جواب الشيخ أبي علي اليوسي على السؤال المطروح ونص الجواب (20) :

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وسلم .
الجواب والله الموفق للصواب :

ان الكلام في هذه المسألة يتمهد في مطلبين :

الاول : بيان مفهوم الذاتى من الكليات (21) وتصوير

(20) هذا كلام الشيخ أبي علي اليوسي نفسه لا كلام كاتب هذا البحث .
(21) للكلية معنى عبر عنه الشيخ الفارابى ، فقال : « وأما المعنى
المفهوم من قولنا « انسان » فانه متى حمل على موضوع ما امكن
أن يؤخذ بعينه محمولا على موضوع آخر . فالمعنى الذى شأنها أن
تحمل على أكثر من واحد تسمى المعانى الكلية والمعانى العامة
والعامة والمعانى المحمولة على كثير . وما لم يكن من شأنه أن يحمل
على أكثر من واحد لكن أما أن لا يحمل على شيء أصلا وأما أن يحمل
على واحد فقط لا غير فانها تسمى « الاشخاص » (انظر « اللفاظ
المستعملة في المنطق » صفحة 59) .
والكليات أنواع :

- 1 - الكليات المنحازة بالحمل .
 - 2 - الكليات المشتركة في الحمل .
- وهذه تنفرع الى ستة انواع :

حقیقتہ بالحد (22) .

- أ - المشتركة في الحمل الاعم (أبدا أو بوجه)
- ب - المشتركة في الحمل الاخص (أبدا أو بوجه)
- ج - المشتركة في الحمل الجزئى .
- د - المتساوية .
- هـ - المتساوية .

يعرف ابن سينا الكلية فيقول : « فالكلية من حيث هو كلي ، ومن حيث هو شيء تلحقه الكلية ، شيء » ، وهو مصطلح يطلق عليه الغرب
Universalité

(22) الحد ، هنا عند الشيخ أبي على اليوسى ، هو كما عرفه ابن سينا :
 « القول الدال على ماهية الشيء . . . وهو ما يتحصل له — من
 جنسه القريب وفصله . » وهو كما عرفه الجرجاني ، القول الذي :
 « يشتمل على ما به الاشتراك وعلى ما به الامتياز . »

الا ان هذا البيان غير كاف اذا لم اعززه بما قاله ابو نصر الفارابي .
قال : « ومتى شارك النوع (ارجو قراءة العين مفتوحة) في الحمل
على الاشخاص كلى يدل عليه لفظ مركب يليق ان يجاب به في المسألة
عن النوع وعن الشخص ما هو ، وكانت اجزاؤه بعضها يدل على
جنس ذلك النوع وبعضها يدل على فصله ، وكان مساويا للنوع في
الحمل ، فان ذلك الكلى يسمى حد ذلك النوع — واعنى بالنوع
ما هنا ليس الاخير فقط لكن والانواع المتوسطة . مثال ذلك قولنا
حيوان مشاء ذو رجلين ، أو حيوان ناطق مائت ، فان هذا الكلى
اذا كان يحمل على أكثر من واحد ، وهو يشارك الانسان في الحمل على
زيد وعمرو ، ويدل عليه لفظ مركب ، ويليق أن يجاب به في المسألة
عن زيد وهن الانسان ، ما هو ، واجزاؤه الحيوان والمشاء ،
والحيوان يدل على جنس الانسان ، والمشاء يدل على فصله وكذلك
ذو الرجلين ، وهذا الكلى باسره يساوي الانسان في الحمل . فهذا
وما اشبهه هو حد الانسان . ومتى كان الكلى الذي بهذه الحالة
غير مساو للنوع في الحمل ، بل كان اعم من النوع المشار له ، فهو
يسمى حدا ناقصا لذلك النوع (انظر الالفاظ للفارابي ، صفحة 78)

الثاني : بيان خواصه وامارته التي يمتاز بها ذهننا وخارجا حتى يتضح باعتبار مصدوقاته ، ويتبين في كل كلى أنه ذاتي أو عرضي .

أما المطلب الاول فواضح مشهور ، اذ لاخفاء ان الذاتى هو الكلى الداخلى فى ماهية افراده أو الذي هو تلم ماهيتها . و « أو » للتتويج .

أما الاول فجنس ، ان كان أعم من ماهية افراده بحسب الصدق : كالحیوان باعتبار ماهية الانسان ، وفصل (23) ، ان

والحد يجمع على حدود وهو مصطلح يعرف عند الغرب بـ
 définition أو terre
 ولل قضية فى المنطق حدان ، الموضوع والمحمول
 — الحد الاكبر le terme majeur
 — الحد الاوسط le terme moyen
 — الحد الاصغر le terme mineur

فالمتكرر يسمى حداً اوسطاً والباقيان بسميان طرفين . مثال هذا : اذا اخذنا قياساً على الصورة الآتية : كل جزئى مركب من ذرات ، وكل مركب محدث ، اذن كل جزئى محدث فـ « محدث » الحد الاكبر (وهو محمول المطلوب) و « جزئى » الحد الاصغر (وهو موضوع المطلوب) و « مركب » ، الحد الاوسط (ما تشترك فيه مقدمة القياس) نقلاً عن مصطلحات فلسفية نشر كلية الاداب والعلوم الانسانية بالمغرب .

(23) عرضت فى الحاشية رقم 12 تعريفاً للمصطلح المنطقي « الفصل » ، وهو التعريف الذي ذكره الشيخ الكبير الفارابي . ويمكن الان ان نقسم الفصول الى ستة انواع :
 1 — الفصل الذاتى للنوع .

كان مساويا لها كالناطق باعتبار ماهية (24) الانسان .

واما الثانى فنوع كالانسان بناء على ان النوع هو ذاتى وما سوى ذلك مما هو خارج عن الماهية فعرض (ي) ، كالضاحك ل ماهية الانسان ، والتنفس لها (25) .

وأما المطلب الثانى ، فاعلم أن الذاتى قد اعتبروه بثلاث خواص ، قد ذكرها ابن الحاجب فى قوله : « الذاتى ما لا يتصور فهم الذات قبل فهمه كاللوفية (26) للسواد ، والجسمية للانسان . وقد يعرف بأنه غير معلل وبالترتيب (27) العقلى » (28)

2 — الفصل الذاتى للجنس .

3 — الفصل الذاتى المقوم .

4 — الفصل الذاتى القاسم .

5 — الفصل المتقابل .

6 — الفصل غير المتقابل .

(24) أريد أن اضيف هنا ، زيادة على ما اثبتته فى الحاشية رقم 15 : « يطلق الغرب على « الماهية » المصطلح quiddité وهى تعنى : « الحقيقة الخاصة بشيء ما » . فهى اذن مقومات الشيء أو مجموع صفاته التى بدونها يستحيل تصوره (وكلمة quiddité لفظة لاتينية يجاب بها عن السؤال : ما ؟) وكذلك ماهية ، فانها تتركب من كلمتين على نفس الشكل « ما ؟ » الاستفهامية و « هى » ضمير الفائب المنفصل ، وأول من استعمل « ماهية » الحمصى والكندى « عن مصطلحات فلسفية صفحة 131 .

(25) التنفس فى 271 د .

(26) مصدر صناعى آخر ، انظر الحاشية رقم 17 ، وبعد قليل سيذكر أبو على اليوسى « الجسمية » .

(27) سيشرح أبو على اليوسى معنى « الترتيب » بعد قليل .

(28) انتهى هنا كلام ابن الحاجب .

ومعنى **الاول** أن ماهية الانسان مثلا لا يمكن أن تفهمها اذا لم تفهم الحيوانية والناطقية ، لان هذا المعنى هو **المعنى بالماهية** ، فاذا لم تفهمه فأنت لم تفهم الماهية .

ومعنى **الثانى** أن الذاتى لا يثبت لما هو ذاتى له بعله ، فلا تقول : « لم كان الانسان ناطقا أو حيوانا ؟ » ، لان الانسان هو ذلك . فكأنك قلت : « لم كان الانسان انسانا ؟ » .

ومعنى **الثالث** أن ذاتى الشيء يتقدم عليه فى الوجودين أي ، ذهنا وخارجا (29) . فان الانسان مثلا لا توجد ماهيته فى الذهن أي لا تتعقل (30) حتى تعقل أجزاؤها من الحيوانية والناطقية . وفى الخارج أيضا لا تتحقق حتى تتحقق أجزاؤها وهذا معنى **الترتيب** (31) ، وهو مخصوص بجزء الماهية .

(29) قال ابو نصر معرفا الصيغة الخارجة : « والصنف الذي به تثبت ذات الشيء تسمى صيغ ذات الشيء ، والصنف الآخر الذي لا تثبت به تسمى **الصيغ الخارجة** عن ذات الشيء .
والحرف الذي يقرن بالشيء فيبدل على أنه مطلوب معرفة صيغته بالجملة فهو حرف « كيف » . فانا اذا قلنا : « كيف الشيء ؟ » ، فطلبنا هو معرفة صيغة الشيء ، اما صيغة ذاته ، واما **الخارجة** عن ذاتها .

(30) « لاتعقل » فى 271 د وهى مصححة فى طرة النسخة 1072 د
(31) سيتعرض الامام ابو على اليوسى الى الخلاف فى « الترتيب » عند كل من الغزالى وابن الحاجب فى اللوحة 91 من النسخة 271 د بعد السطر العاشر .

أما النوع (32) فلا يتقدم لاستحالة تقدم الشيء على نفسه . والعرضى بخلاف ذلك في الجميع (33) ، وهذه المسألة مبسطة في كتب المتقدمين .

قال الامام حجة الاسلام (الغزالي) (34) في كتابه « مقاصد الفلاسفة » (35) : اذا قلنا : هذا الحيوان انسان وأبيض ، أدركنا تفرقة بين نسبة الحيوانية وبين نسبة البياضية (36) اليه . فما نسبته نسبة الحيوانية الى الموضوعات يسمى ذاتيا وما نسبته نسبة الابيض يسمى عرضيا

فيقال : كل معنى كلى نسب الى جزأين تحته ، فاما أن يكون ذاتيا واما أن يكون عرضيا ، ويكون المعنى ذاتيا (37) ما لم يجتمع فيه ثلاثة أمور :

(32) ان الحد يعرف من الشيء امرين اثنين ، كما يقول أبو نصر . أحدهما أنه يعرف ذات الشيء وجوهره ، والثاني أنه يعرف ما يتميز به عن كل ما سواه . فلذلك سمي بهذا الاسم — اعني اسم الحد — من قبل أنه شبيه بحدود الضياع والعقار ، اذ كان حد الدار يخص الدار وبه تتميز عن سائر الدور وبه انجازت الدار عن ما سواها

(33) اللوحة 197 ب — من 1072 د .

(34) انظر الحاشية رقم 14 .

(35) « مقاصد الفلاسفة » للغزالي ، هو في المنطق والحكمة الالهية والحكمة الطبيعية . طبع في « ليدن » سنة 1888 ميلادية مع شروح ، وفي القاهرة غير مرة ، وله ترجمة لاتينية طبعت في « البندقية » سنة 1906 ميلادية .

(36) مصدر اصطناعي آخر ، انظر الحاشيتين 17 و 26 .

(37) اللوحة 190 من النسخة 271 د .

الاول :

انك مهما فهمت الذاتى ، وفهمت ما هو ذاتى له ، لم
يمكنك أن يخطر ببالك الموضوع أو تفهمه ، الا أن تفهم حصول
الذاتى له ، ولا يمكنك فهمه دون ذلك الذاتى . فانك اذا فهمت :
« ما الانسان ؟ » و « ما الحيوان ؟ » لم يمكنك فهم الانسان
دون الحيوان . واذا فهمت العدد ، وفهمت الاربعة ، لم يمكنك
أن تقدر الاربعة ولو أبدلت الحيوان والعدد بـ « الموجود »
و « الابيض » ، أمكنك أن تفهم « الاربعة » من غير أن يدخل
فى فهمك أنها موجودة أم لا ، وأنها بيض . بل ربما تشك فى أن
العدد أربعة أم لا . وذلك لا يقدم فى فهمك ذات « الاربعة » .
وكذلك تفهم ماهية الانسان بعقلك من غير أن تحتاج الى فهم
كونه أبيض أو فهم كونه موجودا . ولكثرة وجود الانسان فأبدله
بالتمساح أو بما شئت من الحيوان وغيرهما ، فبذلك يظهر أن
الوجود عرضى للماهيات كلها . وأما الحيوان للانسان فذاتى ،
وكون اللون للأسود ، والعدد للخمسة .

الثانى :

انك تفهم أن الكلى لا بد أن يكون أولا حتى يكون جزئى
تحتة حاصل . اما فى الوجود أو فى الزمن ، اذ لا بد من حيوان
أولا حتى يكون انسانا (أو فرسا) (38) بل لا بد من انسان
أولا حتى يكون ضاحكا . وكون الانسان ضاحكا بالطبع وصف له

(38) انظر الحاشية رقم 14 .

عرضى تابع لوجوده ، وهو مساو لكونه حيواناً في أنه لازم لا يفارق ، ولكن الفرق بينهما مدرك ، اذ لا بد من اتصال الروح بجسد الانسان أولاً ليكون انساناً . ولا يمكن أن يقال لابد من ضحكك أولاً ليكون انساناً ، بل لا بد من انسان أولاً ليكون ضاحكاً . ولا نعى بهذه الاولوية ترتيباً زمنياً بل ترتيباً عقلياً ، وان كان مساوياً في الزمن .

الثالث :

ان الذاتى لا يمكن أن يعلل . فلا يمكن أن يقال : « جعل الانسان حيواناً والسواد لونا ، والاربعة عددا » . بل الانسان حيوان لذاته ، لا يجعل جاعل ، اذ لو كان يجعل جاعل لتصور أن يجعله انساناً ، ولا يجعله حيواناً . ولا يمكن ذلك في الوهم كما يمكن أن يجعل « انساناً » ولا يجعل « ضاحكاً » . أما العرضى فمعلل ، اذ يقال : « ما الذي جعل الانسان موجوداً ؟ » . فيصح السؤال . ولا يصح أن يقال « ما الذي جعل الانسان حيواناً ؟ » كقوله : « ما الذي جعل الانسان انساناً ؟ » . فيقال : هو انسان لذاته . فكذلك هو حيوان لذاته ، لان معنى الانسان حيوان ناطق ، ولا فرق بين قوله : « ما الذي جعل الحيوان الناطق حيواناً ناطقاً ؟ » وبين قوله : « ما الذي جعله حيواناً ؟ » . الا أنه اقتصر في أحد السؤالين على أحد الذاتين دون الآخر (39) .

(39) القول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل ، اللوحة 90 من 271 د .

هـ - وسيلة تقريب مادة الكتاب

6 - من الوسائل التي يستعملها أبو على لتقريب مادة كتابه الصعبة للاذهان واثارة قارئيه الحوار . لذا تراه يقول المرات بعد الاخرى : « واعترض » فيردف بعد الاعتراض : « وأجيب » . أو « قال فلان » ، فيردف بعد القول : ((قلت)) والامثلة على ذلك لا تحصى :

قال مثلا (40) :

« واعترض الامر الاول بأن الماهية لو عرفت برسم يوجب تصورها لكانت متصورة بدون ذاتياتها ، فيلزم ألا تكون تلك الذاتيات ذاتية ، وهو باطل » .

وأجيب بأن المراد تصور الماهية بالكنه لا مجرد الشعور ، والتصور بالكنه مستحيل بدون تصور ماهيتها ، وهو ظاهر .

« واعترض » بأن الرسم البسيط لو احتيج الى رسم أيضا لامتنع ادراكه بدون ذلك الرسم ، فيكون ذاتيا له وهو باطل (41) .

(40) القول الفصل ، اللوحة 91 ، السطر الرابع .
(41) نقرا اعتراضا آخر في آخر اللوحة 91 . كما نقرا اعتراضا على ابن الحاجب في اللوحة 198 من النسخة 1072 د . وآخر على ما يقوله الغزالي في اللوحة 92 من 272 د ، السطر العاشر ، ويرد على المعتزلة الذين يظنون أن « تنابع الحدوث لا تتعلق بها قدرة القادر » انظر اللوحة 92 السطر الخامس عشر من 271 د .

7 - يختتم أبو على اليوسى هذه الاعتراضات كلها بقوله (42) :

« وقد أفصح الأئمة قديما وحديثا بخفاء الميز بين الذاتى والعرضى الملازم ، واعترفوا بأن جل ما يذكر الآن من التعاريف رسوم أو حدود نواقص لعسر العثور على الحد الحقيقى » .

8 - ثم ينقل من كتابين للإمام الغزالى هما « الحد » (43) و « محك النظر » (44) كلاما يؤيد هذه النظرية .

وبعد ذلك يحاول أن يبين أن هذا الفن عسير مستعص . لكن ، لما رأى أن ذلك قد يثنى الغرائم قال (45) :

« وهو مع هذا ، فعسر لا يجعله ممتع المنال ، ولا مستديم الاشكال ، بل هو على طرف اللثام ، عنود وفي الافهام ، وقليل ما هم :

وللحقائق أقوام لها خلقوا وللحروب لدى الهيجاء فرسان
9 - ويرد أبو على اليوسى حتى على ابن سينا الذى يرى أن :

(42) انظر اللوحة 94 من 271 د السطر التاسع .

(43) اللوحة 94 السطر 11 من 271 د ، واللوحة 198 ب السطر 31 من 1072 د .

(44) اللوحة 94 السطر 20 من 271 د ، واللوحة 199 ا السطر الرابع . ومحك النظر كتاب فى الفلسفة طبع فى مصر ، بدون تاريخ .

(45) « القول الفصل » اللوحة 94 من 271 د السطر 25 وكذا اللوحة 199 ا من 1072 د السطر الثامن .

« ثبوت الاجناس للانواع مطلق » (46) .

فيقول : « واذا لم يتبين ذلك كل التبيين من معامين الشيوخ
السوابق (47) فلا بد من طبيب يحسن كشفه (48) ، ولا امر
جدع قصير أنفه ، فنقول (49) . . . »

10 - ثم يتعرض لشرح الماهية شرحا دقيقا مطولا ،
موضحا فيه ميدان اهتمامه ، فيقول (50) :

« فاعلم أن الماهية بسيطة ومركبة . والمركبة قسمان :
حقيقية واعتبارية . و (أ -) حقيقية قسمان حسية وعقلية .

أما البسيطة ونعني بها ما لم يعتبر منها تعدد وكثرة ،
ذهنا وخارجا ، فليست من غرضنا ولا بحث لنا عنها ، ولا
دخل لنا في السؤال والجواب وذلك أن البحث كان عن الاجزاء
الداخلية ، والبسيط لا جزء له ، وذاته هي غير مفهومة بلا
شبهة . »

(46) اللوحة 95 من 271 د السطر 19 واللوحة 199 1 من 1072 د
السطر 24 .

(47) « الشيوخ السابق ذكرهما » في 271 د ، وهو خطأ واضح .

(48) وليس الطبيب الذي يحسن كشف الداء الا الامام اليوسى .

(49) اللوحة 95 من 271 د السطر 23 واللوحة 199 1 من 1072 د
السطر 27 .

(50) اللوحة 96 من 271 د السطر 12 واللوحة 199 ب السطر 7 .

12 - غير أنه لا ينهى شرحها في هذه الصفحات ، اذ يعود الى الموضوع الذي كان يخوض فيه قبل ، ولا ينهـى توضيحها الا بعد صفحات كثيرة ، فيقول (51) :
« الماهية من حيث هي ثلاثة أقسام : مخلوطة ومجردة ومطلقة ، وذلك أن الماهية قد تؤخذ بشرط مفارقة العوارض المتشخصات ، فيقال لها « الماهية المخلوطة » . والماهية بشرط شيء ، وقد تؤخذ بغير أن يقارنها شيء من العوارض (52) أصلا ،

-
- (51) اللوحة 115 من 271 د السطر 23 .
(52) العوارض أنواع : 1 - العوارض الذاتية ، 2 - العوارض الغريبة ، 3 - العوارض المكتسبة ، 4 - العوارض السماوية .
يحدد هذه « العوارض » تحديدا علميا دقيقا العلامة أبو الحسن على بن محمد بن على الجرجاني ، المعروف بـ « السيد الشريف » المتوفى سنة 816 هـ (1430 ميلادية) في كتابه القيم « التعريفات والاصول المنطقية » فيقول :
العوارض الذاتية : هي التي تلحق الشيء لما هو هو ، كالتعجب اللاحق لذات الانسان أو لجزئه ، كالحركة بالارادة اللاحقة للانسان بواسطة أنه حيوان ، أو بواسطة أمر خارج عنه مساو له كالضحك العارض للانسان بواسطة التعجب .
العوارض الغريبة : هي العارض لأمـر خارج أعم من المعارض ، كالحركة اللاحقة للابيض بواسطة أنه جسم ، وهو أعم من الابيض وغيره ، والعارض للخارج الاخص منه ، كالضحك العارض للحيوان بواسطة أنه انسان وهو أخص من الحيوان ، والعارض بسبب المباين ، كالحرارة العارضة للماء بسبب النار وهي مباينة للماء .
العوارض المكتسبة : هي التي يكون لكسب العباد مدخل فيها بباشرة الاسباب كالسكر أو بالتقاعد عن المزيل كالجهل .
العوارض السماوية : ما لا يكون لاختيار العبد فيه مدخل ، على معنى أنه نازل من السماء كالصفر والجنون والنوم .

فيقال لها « الماهية المجردة » .

12 - ثم يختتم هذا البحث القيم بخاتمة ، يقول فيها (53) :

خاتمة (54) :

تشتمل على مباحث ، وقع فيما مر التنبيه عليها والاشارة اليها ، ولكن غير مستوفات . ولا بد من استيفائها باختصار لئلا يغتر مغتر أو يظن ظان .

13 - وأخيرا يختتم كتابه بستة عشر مبحثا هي كما يلي :

المبحث الاول

14 - يتحدث فيه عن « علة الشيء » (15) ويقول :
« أي ما يحتاج اليه ذلك الشيء ، وهي اما داخلة فيه أو خارجة

(53) اللوحة 128 من 271 د ، السطر 14 .

(54) هذا لفظ الامام ابي على اليوسى .

(55) « علة الشيء » ما يتوقف عليه ذلك الشيء . وهي قسمان :
الاول ما يتقوم به الماهية من اجزائها ويسمى علة الماهية ، والثانى :
ما يتوقف عليه اتصاف الماهية المتقومة باجزائها بالوجود الخارجى
ويسمى علة الوجود . وعلة الماهية اما الا يجب بها وجود المعلول
بالفعل بل بالقوة وهي العلة المادية ، واما ان يجب بها وجود ،
وهي العلة الصورية (انظر الحاشية 56) وعلة الوجود اما ان يوجد
منها المعلول ، أي يكون مؤثرا في المعلول موجداً له وهي العلة
الفاعلية أولا ، وحينئذ اما ان يكون المعلول لاجلها وهي العلة
الغائية ، أولا وهي الشرط ان كان وجوديا وارتفاع الموانع ان كان
عديميا .

عنه . فان كانت داخلة فيه ، فوجود الشيء معها اما أن يكون بالفعل ، وهي العلة الصورية (56) ، أو بالقوة وهي العلة المادية « (57) .

المبحث الثانى

15 – عقد الامام أبو على اليوسى هذا المبحث للحديث عن البساطة والتركيب فى الماهية (58) ملاحظا أن التركيب اما أن يكون بحسب العقل أو بحسب الخارج ، فهى (59) ، فى هذه الحالة أربعة أقسام :

- 1 – بسيط عقلى .
- 2 – بسيط خارجى .
- 3 – بسيط مركب عقلى .
- 4 – بسيط مركب خارجى (60) .

المبحث الثالث

16 – يتعرض هنا لنظرية بسيطها على طول الكتاب وعرضه،

(56) « العلة الصورية » ما يوجد الشيء بالفعل ، والمادية ما يوجد الشيء بالقوة، والفاعلية ما يوجد الشيء بسببه ، والفائية ما يوجد الشيء لاجله (انظر الحاشية رقم 55 أعلاه) .

(57) اللوحة 128 من 271 د السطر 16 .

(58) يتم الشيخ أبو على اليوسى بهذا المبحث وبغيره يأتى ما المحت اليه فى الفقرتين 10 و 11 .

(59) أقصد البساطة .

(60) اللوحة 130 من 271 د ، السطر التاسع .

يمكن أن أجملها فيما يلي « لا يتصور أن يكون الفصل أعم من الجنس » (61) .

المبحث الرابع

17 - يحاول المؤلف أن يبين في هذا المبحث أن أجزاء الماهية (62) العقلية متمایزا ذهنا (63) لا خارجا (64) .

المبحث الخامس

18 - تصدى الشيخ الامام في هذا المبحث الى « الاختلاف

(61) « الجنس » كلى مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ما هو من حيث هو كذلك . فالكلى جنس . وقوله « مختلفين بالحقيقة » ، يخرج النوع والخاصة والفصل القريب . وقوله « في جواب ما هو » ، يخرج الفصل البعيد والعرض العام . وهو قريب ان كان الجواب عن الماهية وعن بعض ما يشاركها في ذلك الجنس وهو الجواب عنها وعن كل ما يشاركها فيه ، كالحيوان بالنسبة الى الانسان ، وبعيد ان كان الجواب عنها وعن بعض ما يشاركها فيه غير الجواب عنها وعن البعض الآخر ، كالجسم النامي بالنسبة الى الانسان . (التعريفات . صفحة 42) .

(62) احب ان اضيف هنا الى ما قلته في التعليق رقم 15 التعريف المذى اعطاه للماهية الشيخ الامام ابو الحسن الجرجاني في « تعريفاته » . قال : « ماهية الشيء ، ما به الشيء هو هو ، وهى من حيث هى هى لا موجودة ولا معدومة ، ولا كلى ولا جزئى ، ولا خاص ولا عام ، وقيل منسوب الى (ما) ، والاصل : الماىة قلبت الهمزة هاء لثلا يشتهر بالمصدر المأخوذ من لفظ (ما) والاظهر انه نسبة الى (ما هو) جعلت الكلمتان ككلمة واحدة .

(63) « الذهن » اما قوة للنفس تشمل الحواس الظاهرة والباطنة معدة لاكتساب العلوم واما هو الاستعداد التام لادراك العلوم والمعارف بالنكسر .

(64) اللوحة 134 من 271 د ، السطر 23 .

في ماهية الانسان » ، فحاول أن يجيب عن السؤال : « هل ماهية الانسان حقيقية أو اعتبارية » (65) .

المبحث السادس

19 - يمكن تلخيصه فيما يلي : « للقوة العقلية (66) التي يمتاز بها الانسان مراتب ثلاثة ، تختلف عليها الاسامى بسببها » (67) .

المبحث السابع

20 - يدور هذا المبحث حول الفكرة : « كل ما سوى الانسان نوع واحد » (68) ، وهي الفكرة التي يوضحها كما يلي : « ان كلها (69) ، سوى الانسان من الحيوان نوع واحد ، وان الخصيصه التي امتاز بها الانسان هي القوة المتفكره المحركة (70) ، وما سواه قد عدم هذه الخصيصه ، فلم يكن

(65) اللوحة 136 من 271 د ، السطر 25 .

(66) القوة العقلية باعتبار ادراكاتها للكلية تسمى القوة النظرية ، وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية من ادلتها بالرأي تسمى القوة العملية . وهناك « القوة العاقلة » وهي قوة روحانية غير حالة في الجسم ، مستعملة للمفكرة ، وتسمى بالقدس ، والحدس من لوازم افكاره .

(67) اللوحة 137 من 271 د ، السطر 16 .

(68) اللوحة 137 من 271 د ، السطر الاخير .

(69) يقصد المخلوقات .

(70) يسميها أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني بـ « القوة المفكرة » ، ويقول عنها : « قوة جسمانية ، فتصير حجابا للنور الكاشف عن المعاني الغيبية » . (انظر « التعريفات » صفحة 95)

عنده الا مجرد الحياة مع الحس والحركة وقوة الشهوة ،
والغضب ، ونحو ذلك » (71) .

المبحث الثامن

21 - يعلق الشيخ الامام في هذا المبحث على النظرية
التي تقول : « ان الفصول اذا جهلت حقائقها ، أقيمت
عوارضها » (72) .

المبحث التاسع

22 - يناقش الامام أبو على اليوسى في هذا المبحث (73)
الشيخ سعد الدين (74) في « شرح المقاصد » (75) الذي
« يتحدث عن الممتزجات المسماة بالمواليد الثلاثة ، أعنى
المعادن والنبات والحيوان » .
يؤيد الامام أبو على اليوسى رأي الشيخ سعد الدين .

(71) اللوحة 138 من 271 د ، السطر السادس .

(72) اللوحة 139 من 271 د ، السطر الثامن عشر .

(73) اللوحة 139 من 271 د ، السطر 20 .

(74) هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتزاني : من ائمة
العربية والبيان والمنطق ، ولد سنة 712 هجرية (1312 م) في
بلاد خراسان . كانت في لسانه لكمة . مات بسمرقند سنة 793
هجرية (1390 م) . له من الكتب في المادة التي تهمننا وهو المنطق :
« تهذيب المنطق » و « شرح الشمسية » وهما مطبوعان ومعروفان .
وله في البلاغة « المطول » و « المختصر » اختصر به شرح تلخيص
المفتاح . وله في علم الكلام « مقاصد الطالبين » و « شرح مقاصد
الطالبين » الذي اخذ منه الشيخ أبو على اليوسى استشهاده
(انظر الفقرة 22 أعلاه) . وله أيضا « شرح الكلم النواصب
للزمخشري » و « شرح العقائد النسفية » و « حاشية على شرح

كما يؤيد رأيه الذي يقول فيه (76) : « من المعدنيات ما وصل الى أفق النباتيات ، ومن النباتيات ما وصل الى أفق الحيوانيات » (77) لأنه يطلق من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اكرموا عمتكم النخلة » .

المبحث العاشر

23 - عقد هذا المبحث للحديث عن الحد ، معلقا تعليقات إضافية على القاعدة القائلة : « الحد لا يثبت بالبرهان » . وذكرنا فيه (78) أنه نبهنا على ذلك في حواشي « شرح المختصر » (79) .

وفي هذا المبحث تظهر براعة الشيخ اليوسى فى المناقشة العلمية ، ويبدو من خلالها اهتمامه البالغ فى تحديد معنى اللفاظ العلمية الدقيقة (80) .

المضد على مختصر ابن الحاجب « و « التلويح الى كشف غوامض التنقيح » وغيرها كثير .

(75) يسمى أيضا « مقاصد الطالبين فى علم أصول الدين » فرغ من تأليفه سنة 784 هجرية ، مرتب على سبعة مقاصد ، وهو مطبوع .

(76) اللوحة 140 من 271 د ، السطر الرابع .

(77) هذه نظرية مأخوذة من قواعد الفلاسفة ، كما جاء فى « شرح المقاصد » .

(78) انظر اللوحة 141 من 271 د ، السطر السابع .

(79) له فعلا حواشى على شرح المختصر يسمى « نفائس الدرر فى حواشى المختصر » ، توجد منه فى الخزانة العامة أربع نسخ تحمل

الارقام الاتية : 2143 د و 451 د و 623 د و 1072 د . (مجموع) .

(80) سيما وهو يناقش الخطيبى ، شارح المختصر الذى قال : « التعريف قسمان : حقيقى ووصفى » . (انظر اللوحة 143 من 271 د ،

السطر الثامن . والتاذلى فى تعليقه على التنقيح من بعض شروح الارشاد) .

المبحث الحادي عشر

24 — يعلق في هذا المبحث على التساؤل : « هل الذاتيات من الجنس ، والفصل معتبرة في المفهومات العدمية ، أم هي مخصوصة بالموجوبات ؟ » (81) .

المبحث الثاني عشر

25 — يحدد فيه ما يجب أن يفهم من قول الفلاسفة : « ان أجزاء الحقيقة المسماة بالذاتيات لا تعقل الحقيقة الا عند تعلقها وهو الفرق بين الذاتى والعرضى » (82) .

المبحث الثالث عشر

26 — يبسط أطروحته التى تقول : « طالب العثور على حقيقة الشيء اذا وجدها بين نفسه ، فلا يكابر نفسه ، ولا ييالى بأي طريق وصل اليها وظفر بها » (83) .

المبحث الرابع عشر

27 — يضيف في هذا المبحث مطومات أخرى يستقيها ، كما يقول ، من كلام الاقدمين (84) على : « مضمون ما مر من الكلام جملة مما يستعين به العاقل على الاطلاع على ذات الشيء ويكتسب به قدرة على تعريف الاشياء بالحدود الحقيقية » (85) .

(81) اللوحة 148 من النسخة 271 د ، السطر 12 د .

(82) اللوحة 149 من 271 د ، السطر 14 .

(83) اللوحة 151 من نفس النسخة ، السطر 23 .

(84) انظر الورقة رقم 151 من النسخة 271 د ، السطر الثانى .

(85) اللوحة 152 ، السطر ما قبل الاخير .

المبحث الخامس عشر

28 — يبسط القول هنا في أطروحة أخرى من أطروحاته ، تقول هذه الأطروحة الجديدة : « اذا أدركت حقيقة الشيء بالحد التام المشتمل على كل من الجنس والفصل ، فما يصح أن يقال ان لهم ذاتيات أخرى ، أو كون هذا الحد حدا تاما يقضى بانحصارها والاحاطة بها » (86) ؟

المبحث السادس عشر

29 — أمر مهم هذا الذي يصدر به هذا المبحث ، فلنقرأه : « قد يقع غيما مر من العبارات والتقسيمات شيء مما لا تعهده أيها الناظر أو لا تجده عند غيرنا . فلا تعجل بانكاره توهمها منك أنى ممن يتصدى لحكاية أقوال الناس وتلفيق كلامهم ، وممن قصارى علمه ، ومنتهى جهده أن يقول : قال فلان . كلا ، والله لسنا ، ان شاء الله في ذلك الشد ، ولا ذلك العنق . وأنا أعوذ بالله ان ننسخ وجوه القراطيس ونكرر عدد الدفاتر بمجرد ما للناس لفظا أو معنى على وجه التقليد ، وصنع كل قدم بليد . من شنع بما ليس فيه كان كمن لبس ثوبى زور . ولا سيما في هذه العلوم التى هى على الدراية موقوفة ، والى منهاجها مصروفة » (87) .

د. التهامى الراجى الهاشمى

الرباط

(86) اللوحة 153 من 271 د ، السطر 21 .

(87) اللوحة 154 من النسخة 271 د السطر الاول .

المناهل

تصدرها :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

زئقة غاندي - الرباط - المغرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES
CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)

Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب)

